أفول الحضارة اليمنية القديمة
- ملاحظات أولية -

مدخل:

هذا البحث «أفول الحضارة اليمنية- ملاحظات أولية» هو في الأصل بحث نشر في مجلة بحوث جامعة تعز- سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الثاني (1998م) ص1-14. وقد مضى عليه في صنعته الأصلية حوالي ثمان سنوات، رجعت إليه خلالها مرات عديدة مساءلاً ومدققاً، ناقداً ومتفحصاً، فأدخلت عليه الكثير من التنقيحات والإيضاحات ...الخ.

أ.د. عبدا للّمحسن الشيبه
أستاذ تاريخ الجزيرة العربية وآثارها
كلية الآداب – جامعة صنعاء

لقد بدأت فكرة هذا البحث تخامرني منذ فترة طويلة، أثناء ما كان الحوار يدور حول مسائل كثيرة من أهمها طبيعة نمط الإنتاج الرئيسي في المجتمع اليمني القديم، ثم التحولات التي طرأت عليه. وما لفت نظري وأنظار البعض في ذلك الحوار، هو نزوع الكثيرين إلى تشذيب الواقع اليمني لكي يأتي على مقاس نظريات بعينها.

لقد كانت قناعتي، بأن الانكباب على فهم الواقع النوعي اليمني ومعالجة إشكالياته، يمر بالضرورة عبر الدراسة الدقيقة والمتأنية، وبدون أية قوالب جاهزة للواقع اليمني القديم بكل أبعاده.

لقد نقبت عن أكثر ما يمكن من الجزئيات والتفاصيل التي تهم الموضوع، وقمت بعملية استنطاق دقيقة لكل المصادر المتاحة لأدرك الغرض. وأبرز هذه المصادر على الإطلاق هي النقوش والآثار اليمنية القديمة، فهي أصدق المصادر، لأنها دونت في العصر نفسه ومن الأفراد الذين عاصروا الأحداث.

أملي هو تحديد بعض المعطيات التي يمكن أن تساعد على فهم بعض جوانب

«المنطق الداخلي» للتاريخ اليمني القديم. ويقيني أن هذه المحاولة ضرورية، رغم ما تنطوي عليه من مجازفة، لأن العزوف عن الأطروحات التفسيرية الشمولية (العامة) موقف غير علمي، والاقتصار على تجميع المعلومات الدقيقة والغزيرة، شرط ضروري، لكنه غير كاف. كما أن الموقف الذي يدعو إلى الإحجام عن التنظير ريثما تقع الإحاطة الشاملة بكل جوانب الواقع، ويقع تكريس أكثر ما يمكن من المعطيات الملموسة، والتحليلات الكمية والدراسات النوعية أمر غير مقبول تماماً. والصواب عندي هو أن نحاول التنظير انطلاقاً مما هو متوفر في لحظة معينة من معطيات كمية (لا بد من حد أدنى من المعطيات) على أن نقوم بالتعديل النظري اللازم في كل مرة تتحسن فيها معرفتنا للواقع الملموس. وينبغي أن نتذكر هنا مقولة شهيرة مفادها: أن تاريخ العلوم هو تاريخ تجاوز الخطأ تدريجياً، أو بالأحرى الاستعاضة عن الخطأ القديم بخطأ جديد أقل خطورة، وهكذا دواليك حتى بلوغ الحقيقة.

وقد تخليت في أثناء دراسة النصوص النقشية بشكل كامل- أو عند الوقوف أمام المحاور الأساسية للمفاهيم- عن الطريقة التي ما زالت متبعة في الدراسات اليمنية القديمة (النقوش على وجه التحديد) والتي تعتمد على انتزاع الألفاظ من النصوص، ومقارنتها بنظائرها في الصورة والمعنى مما ورد في نصوص قديمة من حيث الأصل اللغوي باللغات التي اصطلح على تسميتها «السامية»، ليمكن إرجاعها إلى أصل معين تفرع إلى عدة فروع في أنحاء مختلفة. وشرح أصول الكلمات نادراً ما يدل على المدلول الحقيقي لها، مالم ينظر إلى الجانب الاجتماعي وأثره في تطور الدلالات، ولا إلى المظاهر الإنسانية ذات الأثر في تغيرها وتطورها، أي أن دراستهم كانت ومازالت منصبة على النواحي الداخلية في الألفاظ دون كبير اهتمام بالعوامل الخارجية عنها. ونقصد بالعوامل الخارجية من إنسانية واجتماعية، فلو سألنا عن الأسباب التي جعلت بعض الكلمات تنكمش في دلالتها، وبعضها ينحدر بعد أن كان سامياً أو يسمو بعد أن كان منحطاً. فبالتأكيد أن ذلك يرجع إلى أسباب وعوامل مرت في تاريخ الأمم وأدت إلى مثل هذا التطور والتغير. ونرى أن مثل هذه الدراسة أجدى وأنفع من دراسة الكلمات منفردة منعزلة. لأن هذا المنهج المتبع في دراسة النصوص النقشية اليمنية القديمة يغفل إلى حد كبير أمراً هاماً، وهو أنه يصعب في كثير من الحالات تحديد اللهجة السامية التي تمثلها كلمة من الكلمات، لأن اللغات السامية لها قاموس كثير من ألفاظه – إن لم نقل معظم ألفاظه – مشتركة بين لهجاتها المختلفة، ثم أن هذا المنهج يفقد النص صلته بالمسائل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية التي وضع من أجلها، ومن ثم بسياقها التاريخي والاجتماعي أيضاً. ولنقل يفقدها تاريخيتها الصارمة.

لكن الدراسات اليمنية القديمة ما زالت حتى اليوم نقطة اهتمام بين أوساط علمية متخصصة جداً وضيقة جداً سواء في الغرب أو الشرق، ولم تدعم مكانتها بعد على مثال دراسة الحضارات القديمة الأخرى. ومعرفتنا لليمن القديم لا زالت محفوفة بنقاط الاستفهام ولم تخرج من نطاق التخصص الدقيق مثل دراسة النقوش أو الآثار، إلى نظرة تاريخية حقيقية، فليس علم النقوش على ما أرى علماً بذاته وليست الحفريات الأثرية هدفاً بحد ذاتها، إنما هي تمهيد لمعرفة تاريخية، بحيث بقيت الدراسات اليمنية القديمة عالة على مختصين هم ليسوا في الحقيقة مؤرخين أصليين.

ومع كل الجهد الذي بذل وما زال لقراءة النقوش اليمنية القديمة وتفسيرها، تعترضها صعوبات جمة. فقد مضى وقت طويل لم تعد

تستعمل فيه الأبجدية القديمة المؤلفة من 29 حرفاً. وآخر النقوش اليمنية القديمة هو النقش الموسوم CIH325 المؤرخ في عام 669 من التقويم الحميري الذي يقابله عام 554 للميلاد، إذ لم يصلنا بعد ذلك أي نقش يمني قديم. كما لم تحتفظ أية نصوص منقولة بمعلومات حتى ولو ناقصة، عن اللغة. لذلك، تحتم أولاً فك رموز النقوش، ثم الاجتهاد في تحديد معاني الكلمات.

ويتضح حجم المشكلات التي تحتاج إلى حلول، إذا وضعنا في الحسبان أنه يندر وجود نص لا تختلف تفسيراته وترجماته بعضها عن بعض، رغم وجود أكثر من معجم وضع منذ العام 1982م. (بيستون1982، Ricks 1982, Biella 1982). ومما يزيد من صعوبة مشكلات الصرف والنحو كون كل اللغات التي اصطلح على تسميتها بالسامية القديمة تشترك في أنها جميعاً مكتوبة بحروف ساكنة، وتنقصها الحركات، وتفتقر إلى علامة التشديد (انظر: إسماعيل، 2000- Hofner 1943, Beeston 1962; Beeston 1984). يضاف إلى ذلك أن في اللغة مجالات معينة لن نتوصل إليها، لأن النقوش ليست مكتوبة باللغة العامية بل صنعت في أسلوب يحتفظ بشكليته التقليدية، ولا يعطينا سوى معلومات ناقصة عن صيغ الضمائر والأفعال. والأمل معقود في النقوش الخشبية (الزبور) التي تم اكتشافها ونشر بعضها مؤخراً وهي تتحدث بضمير المتكلم والمخاطب وبصيغة الفعل المضارع وفعل الأمر، إلا أن ما نشر من هذه النقوش لا يسمح لنا بالدخول في تفاصيل دقيقة، وأأمل أن يتم الإفراج عنها ونشرها لأنها تعنى بمسائل شخصية ومعاملات يومية وفيها نصوص عن توزيع ماء الغيل وسندات وضمانات للمعاملات المالية فضلا عن أن بعضها يتعلق بملكية الأرض (ريكمانز 1994، 2000/01 Maraqtan).

ولأن اللغة اليمنية القديمة محددة السمات والأسلوب وصيغ الألفاظ، وتعابيرها نمطية تتكرر كثيراً، فإنه من الصعوبة بمكان تحديد معاني كثير من الألفاظ، وخاصة تلك الكتابات ذات المحتوى الحقوقي- والتي لا تشكل في الواقع سوى عدد قليل- لأن مضمونها غالباً ما يذكر لمرة واحدة، وصياغتها النحوية وتركيبها اللغوي معقد، ولكنها تلقي الضوء على حياة عرب الجنوب الحقوقية؛ بحيث لا يمكن الاستغناء عنها.

ثم إننا لا نعلم بالضبط في أي وقت من الألف الأول ق.م. بدأت النقوش اليمنية القديمة، فإمكانية المقارنة الزمنية بالحوادث التي وقعت خارج الجزيرة العربية غير متوفرة. كما أن اعتماد نتائج علم دراسة الخطوط Paleography وسيلة وحيدة لتحديد عمر النص لا يكفي لإثبات الفوارق الزمنية بين المجموعات الخطية وحروفها المتنوعة. أجل، كان لبلاد العرب الجنوبية قديماً توقيت زمني خاص بها، إلا أن ما يسمى بالتقويم الحميري لم يبدأ إلا في عام 115 ق.م.، كما أن النقوش التي تحمل التقويم الحميري بدأت حوالي عام 200 بعد الميلاد. أما ما عُهد عنهم من تدوين السنين وفق أشخاص معينين Eponymen، فأمر لا ييسر وضع نظام مطلق وفق التسلسل الزمني، فما بالك بوضع قائمة بالحكام خالية من الثغرات.

ولست بهاضم لحقوق علماء النقوش ولا جاحد لفضلهم، إذا قلت أن غيوماً كثيفة تخيم على الحضارة اليمنية بل والعربية القديمة، وما هذه المعلومات إلا أوتاد متباعدة، وكنا نأمل أن تصبح دعائم يعاد عليها بناء التاريخ القديم. لقد دُرست هذه النقوش كمصدر لدراسة اللغات السامية، ولم تخرج إلى رحاب أوسع، وهو رحاب التاريخ وجعلها مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الجزيرة العربية من النواحي الاجتماعية

والاقتصادية الثقافية والدينية والسياسية والحضارية بشكل عام. (الأنصاري 1999 ص6).

ورغم كل هذه الثغرات يستطيع المرء أن يحصل من تلك النقوش مجتمعة على صورة متعددة الجوانب عن بلاد العرب الجنوبية، خاصة إذا لم يكتف بتفسير النقوش تفسيراً لغوياً، فإن بإمكان تلك النقوش أن تساهم مساهمة فعالة، في زيادة معلوماتنا عن الدولة والمجتمع والدين والثقافة، وخاصة الجغرافيا التاريخية وتاريخ القبائل في اليمن القديم، وهما مادتان ليس لاستمرارهما في بلاد اليمن مثيل آخر في بلدان الشرق الأدنى بأسره، ذلك لأن مئات من أسماء الأماكن والقبائل والعشائر التي عرفها العصر الإسلامي- وما زالت قائمة حتى اليوم- نجدها في النقوش اليمنية القديمة. (Al-Sheiba 1987).

إن هذا العمل الذي عكفت عليه الأعوام الطويلة أشذب وأهذب، وأمحو وأثبت، وإن قادني إلى نتائج اعتقد بكل تواضع أنها مفيدة في دراسة التاريخ اليمني القديم، فقد علمني أن اعترف بعجزي عن بلوغ الحقائق التي إليها أطمح. والأكيد أن الكثير مما صنعته من قوالب لغوية ومفاهيم ومقولات في هذه الدراسة قد تكون غير مكتملة كأدوات معرفية وهي بحاجة إلى إثرائها عبر مزيد من الدرس، فكلما حاول الباحث أن تكون رؤيته متسعة ضاقت العبارة كما يقول المثل العربي. ولنتذكر هنا ما قاله الفقيه المتصوف الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد بن الفضل) للقاضي عبدالرحيم البيساني «... إنه وقع لي شيء وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك أني رأيت ألا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أجمل، ولو ترك هذا لكان أفضل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ومع كل هذه الدواعي إلى التشكك فأحب أن أقدم للمهتمين بعض الملاحظات التي تصور آرائي في الوقت الحاضر. وأنا أطلب إليهم أن يقبلوها بكل ما ينبغي من التأني، متذكرين دائماً أن اكتشاف نقش أو نقوش جديدة قد تقلب هذه الآراء ويلزمني بتركها أو تغييرها.

إن كل أملي هو أن أكون قد أثرت في هذه الدراسة بعض الأسئلة المحفزة، وفتحت بعض الأبواب الموصدة، ودخلت بعض المناطق المسكوت عنها، وحولت بعض المسلمات إلى إشكاليات. وهي في النهاية ملاحظات أولية، تهدف إلى فهم واقعنا اليمني الحاضر، فإن الذي لا يفهم ماضيه لا يمكنه فهم حاضره أو استشراف مستقبله. وأحسب سلفاً، أن هذه الدراسة سوف تثير من غبار الحوار ما يثري الموضوع ويساعد على فهمه فهماً موضوعياً.

ولسنا بحاجة إلى جهد كبير لكي نبين أن فهم الماضي هو أصعب علم، لأنه علم دراسة الإنسان للإنسان ولأنه علم علاقة الإنسان بالإنسان، وهل هناك أمر أعقد من علاقة الإنسان بالإنسان؟ وعلم التاريخ ليس حكايات يتسلى بها الناس ولا يضيرهم جهلها، فهدفه ليس (الإمتاع والمؤانسة)، وهو ليس بالعلم المحكوم بعبر الماضي التي يجب على الحاضر استيعابها، إذ هو لا يهدف إلى الترهيب والترغيب، وإنما هي شواغل الحاضر تحمل المرء على الاهتمام بهذه الناحية أو تلك من الماضي.

فإذا رأيت في هذه الدراسة استقصاء غير تام، أو فكرة غابت عن ذهني، فالرجاء التصويب والتزويد بما يمكن، حتى نصل بالموضوع إلى غايته المنشودة، فلست أدعي- مرة أخرى- أنني ألممت بكل ما يجب الإلمام به.

* * *

ليس من شك في أن اليمن- جنوب جزيرة العرب- كان فيما مضى ذا حظ عظيم من التمدن والعمران ووفرة الثروة وكثافة السكان، وما عرف من تاريخ اليمن القديم منذ القرن العاشر أو الحادي عشر ق.م. حتى القرن السابع الذي ظهر فيه الإسلام، أي خلال سبعة أو ثمانية عشر قرناً، هو أنه تأسست في اليمن ممالك عديدة ثبت تقدمها في ميادين العمران والحضارة.

والبحث في تاريخ اليمن القديم من أعقد الأمور، ولهذا كتب عنه أفراد قلائل، وأغلب ما كتب عبارة عن كتب القدماء، ولقد بقي هذا التاريخ إلى أمد غير بعيد مجموعة غرائب وخرافات ومبالغات تتناقلها الأجيال بلا تمحيص وتزداد بالنقل اضطراباً أو إبهاماً.

ولعل سبب ذلك يرجع إلى أنه ليس من اليسير رسم صورة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لشعوب لم تترك لنا من الوثائق سوى نقوش نذرية وتذكارية. ولكنها كثيرة- بلغت عدة آلاف- وهو ما يكفي لاستخراج بعض النتائج التي تتسم بالحيطة والحذر ولكون المنطقة تتكون من مجموعة مجتمعات مختلفة فإن النتائج التي يتوصل إليها في مجتمع لا تصلح لدولة أخرى على الرغم من التجانس الكبير بين دول المنطقة.

إن المفهوم العلمي للتاريخ القديم بصفة عامة، لا يقتصر على عهود الحضارات المعروفة لدينا. وإنما يمتد إلى حضارات أخرى سبقتها بعصور بعيدة. فقد بدأ نشاط الإنسان فيما قبل التاريخ بما يعرف اصطلاحاً بالعصور الحجرية (Stone Age) التي تسبق عصرنا الحاضر بعشرات الآلاف من الأعوام. وقد قسم الدارسون هذه الفترة إلى عدة مراحل رئيسية: قديمة أو باليوليتية Palaeolithic ووسيطة أو ميزوليتية Mesolithic، وحديثة أو نيوليتية Neolithic.

واخيراً العصر الحجري النحاسي Chalcolithic، ثم تلاها أولاً عصر البرونز Bronze Age ثم عصر الحديد Iron Age وهي فترة طويلة تبدأ منذ ظهور الإنسان وحتى اختراع الكتابة والتدوين، أي بداية العصور التاريخية.

(للمزيد من التفاصيل عن جنوب الجزيرة انظر، Albright 1949، Wissmann 1975).

خلال هذه المدة الطويلة مر الإنسان بعدة أطوار بدءاً من استخدام أدوات وأسلحة حجرية، تميزت بظهور وانتشار تقنية الأنصال والشفرات الرفيعة التي استعملت للصيد والالتقاط، وشهدت هذه المرحلة تطورات مهمة في نمط الاستيطان والاقتصاد البدائي. وفي العصر اللاحق الميزوليتي بدأ الإنسان بالاستقرار فبنى البيوت الأولى وتصاعدت قدرته على صيد الحيوانات والتقاط الحبوب. وفي العصر النيوليتي انتقل إلى الاستقرار الكلي وإلى ممارسة الزراعة والتدجين وبالتالي إنتاج مصادر العيش، بعد أن كان يعتمد على خيرات الطبيعة الحرة. وفي هذا العصر عرف الفخار والنسيج، وتبلورت معتقدات روحية وفنية راقية... ومعظم آثار هذا العصر هي أدوات حجرية وعظمية إضافة إلى أوانٍ فخارية وأدوات زراعية وبقايا أبنية وأعمال فنية ومقابر وهياكل عظمية أتت من العديد من المواقع وخاصة من الطبقات الدنيا في التلال الأثرية.

وفي العصر الحجري النحاسي بدأ الإنسان في التعرف على النحاس واستخدامه مطروقاً، فتراجع دور الحجر تدريجياً لتحل مكانه المعادن. ويعد هذا العصر المؤرخ بين 4000-3000 ق.م. عصراً انتقالياً بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة، ومعظم آثاره على شكل أدوات وأوان حجرية وفخارية ونحاسية وتماثيل طينية. وفي العصر الذي اصطلح على تسميته بعصر البرونز وعصر الحديد، والذي شمل الفترة الواقعة ما بين اختراع الكتابة وبداية عصر البرونز في مطلع الألف الثالث ق.م.، نشأت الدول الأولى في الشرق

القديم، أو ما يسمى بعصر السلالات الباكرة او دويلات المدن الأولى في بلاد الرافدين التي ذكرت في قوائم الملوك السومرية، أو ما يسمى بعصر بداية الأسرات والعصر العتيق في مصر وعصر البرونز القديم في بلاد الشام. وهكذا لم تعد الوثائق الأثرية مصدر المعلومات الأهم بل نجد أنفسنا أمام مصدر آخر للمعلومات هو الوثائق الكتابية.

لقد تعلم الإنسان بعضاً من مبادئ الحضارة تمثل في حفظ الطعام وإنتاجه، ثم عرفناه مزارعاً ناجحاً يعيش في قرية ويمارس بعض الطقوس الدينية. ربما تكون هذه هي القاعدة على صعيد الحياة في القرية، ويبدو أن صيغاً من البنية الاجتماعية أكثر تقدماً قد ظهرت في مدينة أريحا في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري(أ)، وذلك عندما أضيفت صناعة الفخار والنحاس والحلي المصنوعة من الرصاص والأقمشة المنسوجة إلى الذخيرة التقنية السابقة. كما ظهرت في هذا العصر مراكز ومدن تجارية بالإضافة إلى القرية البسيطة. وتشير كل الأدلة إلى أن هذه العملية كانت بطيئة وطويلة، وان انتشار حضارة الوركاء في بلاد الرافدين في الثلث الأخير من الألف الرابع ق.م.، وابتكار الكتابة التصويرية التي ما لبثت أن تطورت إلى الكتابة المسمارية أنهت بهذه الخطوة العملاقة عصور ما قبل التاريخ وبدأت العصور التاريخية القديمة في مطلع الألف الثالث ق.م. وبانتشار التجارة مع مصر عبر سوريا ولبنان فإن بلاد الرافدين ومصر، بثرواتهما الوفيرة ووحدتهما الأساسية تمكنتا من السيطرة على كل التطور الحضاري في منطقة الشرق القديم خلال الآلاف الثلاثة من السنوات التالية.(إن أهم الأعمال الشاملة عن بلاد الرافدين وهو يتضمن كثيراً من الشواهد النصية- ما يزال رغم قدمه هو: Meissner 1925 -1920، وهو يقع في جزأين أما أهم الأعمال التي بحثت في حضارات جنوب غربي آسيا ومصر فهو الكتاب الضخم الذي نشره موسكاتي ومجموعة من البابحثين الايطاليين ويقع في ثلاثة أجزاء Moscati S. u.a. 1976، راجع ايضاً Schmakel.u.a. 1961، Oppenheim 1964، Combridge Anceint History, vol.1-111.)

كانت تلك التطورات الحضرية السابقة تخص مناطق الشرق القديم، لتوفر مقومات الزراعة في أنهارها وأمطارها وتربتها، أما الجزيرة العربية التي تحتل رقعة كبيرة من هذا الشرق، فلم تجد حتى الآن من الأبحاث الأثرية ما يصور الأوضاع المعيشية لأهلها فيما يوافق العصور الحجرية بالمناطق السابقة. ولكن يمكن أن نذكر من ناحية أخرى أن العصر الحجري الحديث في مجمله قد ارتبط في العالم القديم بتطور مناخي جديد، إلى جانب التطور البشري الجديد. فعوضاً عن عصور الجفاف الشديد التي سادت الشرق خلال أواخر العصر الحجري القديم، بدأت فترة رطيبة في الظهور وصحبتها أمطار تقل من حيث المنسوب والاستمرار عن أمطار الحقب المطيرة القديمة، ولكنها أمطار مناسبة على كل حال، وصحبها اعتدال واسع في أحوال الحرارة.(عن جزيرة العرب و جنوبها على وجه الخصوص انظر: Wissmann 1932، Idem 1953)

وهكذا يمكن القول، أن تأثيرات العصور المطيرة خلال العصر الحجري القديم كان لها الأثر في شق أودية عدة في جنوب بلاد العرب ساعدت على قيام نشاط بشري واسع خلال عصور ما قبل التاريخ. نذكر منها على سبيل المثال: وادي أذنة ووادي بيحان ووادي الجوف ووادي مرخة ووادي جردان ووادي الجوبة ووادي حضرموت ووادي سهام ووادي مور ووادي سردد ووادي المعشار ووادي الخارد ووادي رماع ووادي زبيد ووادي مذاب ووادي بنا ووادي تبن ووادي الكسر ووادي عمد ووادي العين....الخ. وكلها قد شقتها فيما يبدو مياه أمطار غزيرة في فترات قديمة. وقد تم اكتشاف عدة مواقع أثرية ترجع

في معظمها إلى العصور الحجرية في مراحلها المختلفة وحتى العصر البرونزي، وذلك على الجبال المطلة على هذه الوديان أو على جوانب المنحدرات التي تطل عليها أو في الوديان نفسها: مثل جبل تلع وحريضة ومشغة والحرجة ووادي بيحان وريبون وشونة وصافر ووادي الجوبة ويلا ووادي دوعن وميكنون... (لمزيد من التفاصيل انظر: دي ميجرت 1991، كريستوفر 2001، ويلكنسون وآخرون 2001، جوي 2001، بوركهارت 2003 وفيها العشرات من المراجع) ومن المتوقع أن نجد لقى أثرية كثيرة إذا ما نشطت حركة الكشوف الأثرية في البلاد، ووجهت وجهتها الصحيحة، بدلاً من العبث الذي يجري الآن.

هذا الجزء من الجزيرة العربية الذي أطلق عليه اسم (اليمن) شمل في عرف أكثر الجغرافيين العرب أرضاً واسعة يحدها من الغرب بحر القلزم (البحر الأحمر) ومن الجنوب بحر الهند ومن الشرق البحر العربي، ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة، فإلى حدود الهُجيرة وتثليث وأنهار جُرش وكُثبة، منحدراً في السراة على شعف عنز إلى تهامة على أم حجدم إلى البحر، حذا جبل يقال له كُدُمل، بالقرب من حمضة، وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن من بطن تهامة.وأول إحاطة البحر باليمن من ناحية دما. وتقع دما هذه قريباً من بلدة دبا الواقعة في شمال سلطنة عُمان في منطقة مستدم.[انظر: الهمداني 1974 ص65، وقارن، البكري 1945 ج1 ص65،ابن خرداذبه 1889 ص135، ابن حوقل 1938 ص19، 33-40، اليعقوبي 1860 ص102-106، القزويني 1960 ص65-69، الدمشقي 1865 ص216-218، المسعودي 1973 ج2، ص69، 89؛ المقدسي 1906 ص29-88، ياقوت 1866ج4، ص1035-1036].

اليمن، هذا الذي يواجه جزء من ساحله أفريقيا بينما يواجه سائره المحيط الهندي، هو أخصب مناطق الجزيرة العربية، وقد سمي قديماً بلاد العرب السعيدة Arabia Felix لغنى محاصيله، ولاعتدال مناخه على النقيض الواضح من المناطق المستعرة الحر وراءه، فلم يكن هناك بد من أن تقضي هذه الظروف بقيام مجتمعات بشرية قطعت شوطاً في تقدمها، وقد امتد أثرها إلى الساحل الأفريقي المقابل في صورة تجارة واسعة وموجات من المهاجرين المستوطنين.وهنا يجب أن لا ننسى أن هذه الأرض التي كانت في زمنها مسرحاً لحدث هام في رواية الإنسانية، وتلك الشعوب التي أدت أدوار الممثلين في فصول هذه الرواية، إنما أدت الأدوار التي لم يكن لها، بمقتضى أحوالها الطبيعية، مفر من أدائها. وعلى الرغم من الفروق التي فرضتها العوامل الجغرافية على الجزيرة العربية فقد انبعثت شعوب تميز بعضها عن بعض تاريخياً وسياسياً، لكن الوحدة الجغرافية الجوهرية منعت استقلالها فكان لكل حركة تنشأ في جزء منها آثار في الأجزاء الأخرى.

ولعلي أحسن صنعاً إذا ما مهدت للموضوع بعد هذه التوطئة، بإلمامة تاريخية مبسطة، هي الآن من نوافل القول، أحسبها متكأ ضرورياً. فالمعروف أن عدد الممالك اليمنية القديمة الرئيسة خمس هي: سبأ وعاصمتهم مأرب، ومعين ومدينتهم الكبرى قرناو [تسمى اليوم معين وتقع جنوب شرق الحزم في الجوف]، وقتبان وعاصمتهم تمنع [تسمى اليوم هجر كحلان وتقع في وادي بيحان] وحضرموت وعاصمتهم شبوة، ومملكة لم تظهر هويتها كاملة بعد، هي التي كانت تدعى أوسان.

يلاحظ مما سبق أن اسم حمير لم يرد، ذلك لأن حميَر ذكرت لأول مرة في القرن الأول الميلادي. وحمير أصلاً اسم قبيلة عربية جنوبية، ظلت تتحين الفرص للانقضاض على الدولة السبئية، حتى تمكنت من ذلك بعد استقلالها عن قتبان، واستغلالها لجملة ظروف مرت بها سبأ، وعلى إثر الاضطراب الذي ساد المنطقة حوالي قرنين من الزمان بين 60 و265م، وهو

اضطراب لا زالت تفاصيله خافية ونصوصه متضاربة، ظهرت حمير قوة ضاربة على مسرح الأحداث، ولم تلبث أن شقت طريقها واتخذت عاصمتها في مدينة ظفار التي نشأت في منطقة خصبة قرب قرية منكث الحالية [تبعد حوالي 15كم جنوب شرق يريم الحالية]، وحمتها عدة حصون قامت على التلال التي تحيط بها، وكان حصن ريدان أكبرها، فأصبح حصنها الملكي، وانتسب إليه ملوكها في لقبهم الذي اشتهروا به وهو «ذو ريدان» وأسسوا على إثره ما عرف في التاريخ «بدولة سبأ وذو ريدان».

وعندما تولى الملك شمر يهرعش الحكم في الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي، عمل على تحقيق الوحدة السياسية لجنوب جزيرة العرب، فاستولت جيوشه على أجزاء متسعة من دولة حضرموت وتوابعها، وتغلبت جيوشه على أقاليم تهامة واتسعت شمالاً إلى ما وراء نجران. وشجعت هذه الانتصارات المتوالية شمر يهرعش على أن يزيد في ألقاب ملكيته ألقاباً أخرى، واتخذ لقب «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانة».

وتجددت المشكلات في عهود خلفائه الأقربين ولم ينجحوا في غير إخضاع حضرموت التي استنفدت قواها، أما الأطراف الغربية لدولتهم فاكتنف الغموض مصيرها. ومع التجاوز عن الأسماء العديدة التي أتت النصوص بها- مراعاة للتخفيف- فقد تميز من ملوك العصر «أبو كرب أسعد» الذي مارس الحكم نحو ستين عاماً منذ أن اشترك مع أبيه طفلاً. وكانت له جهود لتوطيد الأمن في دولته والسيطرة على ما تبقى من طريق القوافل المتجهة إلى الشمال، كما كانت له حروب كثيرة، وشجعه نجاحه على أن يزيد في ألقابه الملكية عبارة أكد فيها سلطانه على بدو المرتفعات والبراري، فأصبح «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانة وأعرابهم في الطود وتهامة» ولاتساع أعماله نسبياً احتفظ الأخباريون بذكراه وذكروه باسم «أسعد تبع» وأسعد الكامل، ونسبوا إليه فتوحات واسعة وأشادوا بقصوره أو حصونه فيما بين ظفار وبين صنعاء. [لمزيد من التفاصيل انظر: الشيبه 1999 ص 101-112 وقارن: Wissmann 1964B.429-497].

وأخيراً ، لا مفر من القول بأن عرضنا هذا كان موجزاً أشد الإيجاز، ومقتصراً على الخطوط العريضة ليس غير. وأمرٌ آخر، فكثيراً ما ستتداخل القضايا، حتى يستحيل التفريق بينها، وسيؤدي هذا التداخل في تحليلنا إلى الوقوع أحياناً في تكرار ، نرجو ألا يكون أكثر من طاقة القارئ على الاحتمال.

وأمام إشكالية قلة المصادر التي واجهتنا، لم يكن ثمة مندوحة عن قراءة متأنية لكل ما هو متاح في المظان الأصلية حول الموضوع لتكوين خلفية فكرية دقيقة نقيس عليها الرؤى المختلفة للقضية ونحتكم إليها من أجل البث فيها. وفي ذات الوقت التعويل على آخر ما كتب أكاديمياً باعتباره مدخلاً طبيعياً لولوج الموضوع.

ومما سبق عرضه يمكننا أن نستنتج أن اليمن بلغت مرحلة الإنتاج الزراعي المكثف؛ في مجال إنتاج الحبوب، وفي مجال زراعة الأشجار ا المثمرة التي وصلت إلى مستوى متطور ، وبخاصة أشجار النخيل، كما كانت هناك تربية للحيوانات الداجنة، ولعبت الزراعات التقنية دوراً مهماً مثل النباتات الليفية ونباتات الألوان، وبخاصة النباتات العطرية، التي بلغت شهرةً عالمية انطلاقاً من جنوبي الجزيرة، واستعملت داخل اليمن على نطاق واسع، كما انتشرت في سائر بلدان الشرق القديم، وتعتبر زراعة أشجار البخور وإنتاجه ذات أهمية، إذ أنها تسمح لنا بالتعرف على نوعية السلع ذات المنشأ الزراعي في عمليات التبادل التجاري. [Grohamann: 1922. I].

ارتكزت الزراعة في اليمن على نظام متطور للري قائم على الري الصناعي، وما تزال

البقايا الكثيرة للسدود والاقنية، وحواجز المياه والسواقي الفرعية، دليلاً واضحاً على الازدهار الزراعي القديم. وتلك المنشآت مبنية بحجارة منحوتة بشكل جيد، وفي تآلف مع البيئة والظروف المحيطة، بحيث يمكن استنتاج المستوى العالي من التطور الذي بلغته حرفة البناء، وتقنيات النحت [Bowen ،B 1958، 132-43].

أما تطور إنتاج الثروة الحيوانية فالدليل عليه ليس فقط تلك الأعداد الكبيرة من غنائم الحيوان التي تذكرها النقوش في غزوات الملوك والأمراء (مثلاً: 150.000 و200.000 رأس من المواشي كما في النقش: RES3945/18،19، 290.000 رأس من الجمال والأبقار والعنوز كما في النقش: RY507/9-9 بل وأيضاً الاتساع الكبير الذي بلغته تربية الإبل، وعلينا أن ننبه هنا إلى الدور المهم الذي لعبه الجمل كواسطة نقل أمنت اتصالاً دائماً بين جنوب الجزيرة وبلدان العالم القديم.

وفي مجال الحرف والصناعات اليدوية نشير إلى المستوى العالي الذي بلغه اليمن، كما تدل عليه بقايا السدود والمعابد، والرسوم الجدارية، والتماثيل الحجرية، والتماثيل البرونزية الرائعة بوجه خاص، والتي تعني ازدهاراً في مجال الصناعات المعدنية.

وبلغت التجارة درجةً عالية من التطور والتقدم، سواءً في المجال الخارجي أو مجال التبادل الداخلي بين الأقاليم المتجاورة. فقد ازدهرت العمليات التجارية بسبب اختلاف المناخ في نواحي البلاد، وبالتالي اختلاف المنتجات مما شجع على تبادلها، ثم كان هناك ذلك التبادل بين الفلاحين، ومربي الماشية في أقاليم البلاد المختلفة. وبالنسبة للتجارة الخارجية فقد كانت هناك تجارة البخور العالمية الشهيرة والتي كانت تنطلق من اليمن، كما كان هناك دور لليمن كوسيط تجاري تنتقل عبره السلع بين بلدان الشرق القديم وشرق أفريقيا.

ومنذ أوائل الألف الأول ق.م. بدأت قوافل الإبل المحملة بالسلع تنتقل من اليمن وإليها محملة بمختلف السلع التي تنتجها البلاد أو تلعب دور الوسيط في نقلها من موانئها وإليها [Bowen،B 1958،35-42].

ولا أدل على التطور الثقافي الذي بلغته اليمن في الوقت نفسه من ظهور النصوص الرسمية والخاصة مستخدمةً الأبجدية اليمنية (المسند) في هذه الحقبة المبكرة. وهو الخط الذي شاع استخدامه وزاد انتشاره بعد ذلك، وأصبح خط البلاد الرئيسي، وهو حسب اعتقادي، معاصر للأبجدية الفينيقية، إن لم يكن أقدم منها. وهذا أمر يجب أن يهتم به علماء الآثار، وتقديم دليل أو أدلة على تاريخ الكتابة اليمنية، وإلى أية مرحلة أو فترة تاريخية يرجع التدوين في اليمن.

أما الظروف الاجتماعية فقد بلغت في تطورها وتعقدها المستوى الذي بلغته التطورات الاقتصادية، فقد كانت هناك مفاهيم للملكية، ونظاماً معقداً للتنظيم الاجتماعي. وما تزال الدراسات اليمنية القديمة في مراحلها الأولى بحيث لا يمكن الوصول إلى تحليل للبناء الاجتماعي لليمن القديم، وتحديداً لمراحل التطور المبكر لمجتمعاتها، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضع المزري الذي تعيشه الدراسات اليمنية القديمة. لكن هذا لا يعني أننا لا نعرف شيئاً عن مجتمع اليمن القديم المبكر، إذ تحفل المصادر النقشية اليمنية القديمة، ومن ضمنها أنّ أظهر وجوه البنية الاجتماعية التي تعرضها هذه النقوش هي بنية الدولة. وأعتقد أن هذا التوثيق للدولة في النقوش، يعتبر أساساً عند محاولة إعادة تركيب تصور مقارب للبنى والظروف الاجتماعية السائدة آنذاك.

تشير النقوش إلى وجود خمس دول في اليمن القديم: سبأ، معين، قتبان، أوسان وحضرموت. والنقوش الكتابية المستعملة في كل دولة من تلك الدول الخمس ذات لهجة خاصة. وتعتبر دولة سبأ أ هم تلك الدول، كما أن معرفتنا بها

أكثر اكتمالاً ووضوحاً. ولذلك، فسنقتصر في هذه الدراسة على الاهتمام بدولة سبأ، والنقوش المتوافرة عنها.

امتدت سيطرة دولة سبأ على أكثر أراضي اليمن الحالية، من مثل المراكز الرئيسية بشرق اليمن: مأرب وصرواح وواحة رغوان، والأنحاء الوسطى مثل أرحب وصنعاء. ومما له دلالته أننا نجد نقوشاً سبئية في الشمال أيضاً حيث المناطق التي كانت تقع تحت سيطرة دولة معين، وكذا في الجنوب، مثل أبين التي كانت تحت سيطر دولة قتبان. وتثبت النقوش التي خلفها المكرب/ الملك السبئي كرب ايل وتر RES3945, RES3946 Gl1000A,b= أنه قام بحملات عسكرية شملت أكثر أنحاء اليمن القديم من نجران في الشمال وحتى عدن في الجنوب. لكن عشوائية النصوص النقشية التي عثرنا عليها حتى الآن، وقلة الدراسات الأثرية ، لا تسمح بتحديد دقيق لحدود الدولة السبئية، فضلاً عن إمكان تحديد ذلك في حقب معينة. فهناك حالات قليلة فقط نستطيع فيها بشيء من الاطمئنان تحديد حدود بين دولتين، مثل تلك التي كانت بين سبأ وقتبان، وفي بعض الحالات استنتاج متغيرات الحدود مثل انتقال إقليم من يد دولة إلى سيطرة دولة أخرى، هذا مع ملاحظة غموض الموقف في بعض الأقاليم. لكن على رغم ذلك كله، إذا تجاوزنا المناطق النائية عن المراكز الرئيسية، والتي وجدت فيها بعض النقوش السبئية، يمكن القول: إن الأجزاء الرئيسية التي كانت تسيطر عليها دولة سبأ مع مطلع الألف الأول ق.م.، كانت تشمل قسماً كبيراً من بلاد اليمن.

ولعل السؤال الذي يرد في هذا المقام هو: ما الأساس الطبيعي لذلك البناء الحضاري الشامخ الذي قام على أرض اليمن عبر العصور، بكل محمولاته من غطاء عمراني وكيان اقتصادي إلى تراث مادي وهيكل اجتماعي؟ إن كل بناء حضاري في البيئة هو أشبه بالتمثال وقاعدته، وكل تمثال وقاعدته بينهما فنياً وهندسياً نسبة وتناسب معين خامة وقامة وقوة وصلابة وحجماً وثقلاً. فهل يتناسب تمثال الحضارة التاريخي اليمني مع قاعدته المادية الأرضية الراسخة، وإلى أي مدى؟ وفي سؤال آخر: ما طبيعة ونوعية العلاقة بين الإنسان والبيئة وبين المصنوع والمطبوع في هذه الحضارة؟

صحيح أن الجزيرة العربية تقع وسط سلسلة الصحراوات التي تمتد كالحزام حول العالم القديم، نحو الغرب عبر النيل في الشمال الأفريقي فيما يعرف بالصحراء الكبرى، ونحو الشرق عبر سهول دجلة والفرات وخلال الهضبة الإيرانية إلى بلاد التركستان وصحراوات آسيا الوسطى في التبت وجوبي. وهذا يعني عدم وجود أنهر عبر كل نطاق الصحاري الحارة بالعروض الوسطى في العالم القديم، أي نطاق الصحراء الكبرى – صحراء العرب من المحيط حتى الخليج- باستثناء النيل، رغم ذلك فقد قامت حضارة عريقة في بلاد اليمن، وذلك لتوفر عنصرين هامين لعبا دوراً حاسماً في نشوء مستوطنات مستقرة (قرى) في البداية، ثم تطورت إلى الحضارات الكبرى المعروفة.

وهذان العنصران الهامان هما الموضع والموقع ، انظر تفاصيل هذه الفكرة في الدراسة القيمة للدكتور جمال حمدان (حمدان، 1981م).

ولنبدأ عرضنا بالموضع ثم نثني بالموقع. والموضع Site هو عبارة عن ملامح ومحتويات المكان الداخلية (المكان من الداخل)، وعلى هذا الأساس فإن الموضع يتمثل في قدرة الإنسان على السيطرة على مياه السيول على مشارف الوديان وإقامة السدود والحواجز في الوديان المعمورة المزروعة. ذلك أن الرياح تحمل السحاب الماطر، فتمطر على الهضبة اليمنية التي تمتد على النطاق الجبلي الضخم من الشمال إلى الجنوب متأثرة بالعوامل المناخية المختلفة في موسمين: ربيعي، مكونة الموسم

الأول للأمطار في شهري أبريل ومايو، وذلك نتيجة الرياح القادمة من منطقة البحر الأحمر؛ وصيفي مكونة الفصل الثاني خلال شهري يوليو وأغسطس، نتيجة تجمع الرياح الموسمية التي تهب من المحيط الهندي خلف خط الاستواء. وقد يكون هناك- أحياناً- موسم ثالث نتيجة لتأثير الرياح القادمة من منطقة البحر المتوسط حيث يدخل الهواء القطبي إلى منخفض جوي يؤدي إلى سقوط الأمطار في شهري ديسمبر ويناير. ويأتي المطر بلا هوادة وبعنف وصرامة على شكل عواصف رعدية كثيفة في أوقات قصيرة منقطعة، فينحدر من الجبال سريعاً مندفعاً كالسهم المارق على شكل سيول جامحة كانت تنزل الرعب على الناس في الماضي كما هو في الحاضر، وتنقل هذه معها تربة نوعية خاصة، تربة غير مناطقية Azonal من أصول بركانية خصبة جداً من الهضبة. ومن المستحيل بالطبع أن نفصل ولو نظرياً بين السيل وحمولته مع الغرين في كيان الحضارة اليمنية، ومع هذا فإن أياً منهما وحده ما كان يجدي كثيراً، وإنما هما يكمل كل منهما الآخر في تناسق نادر بل في أحكام وحكمة بالغة.

فنظام الري في ضفاف الأنهار، وهي دائمة الجريان، يقوم على قاعدة شق الترع من الأنهار وحسن التعامل مع مواسم الفيضانات، بينما يقوم نظام الري في الغالب في ضفاف الوديان وهي موسمية الجريان، على قاعدة إقامة سدود وحواجز تحويلية وقنوات عبر مجاري الوديان، بحيث تحسن تصريف السيول بسرعة ومرونة إبان مجيئها إلى الحقول على جوانب الوديان. إن السدود والحواجز والقنوات تقتضيها حاجة موجبة وظروف خاصة بالوديان الجافة، وهي حاجة لا تستدعيها ظروف الأنهار الجارية والكبيرة، ولهذا فإن السدود والحواجز والقنوات في حقيقة الأمر هي من نتاج حضارة الوديان الجافة، إن لم تكن في الواقع من اختراع أهل تلك الحضارة...

بمعنى آخر، إن المناخ والشروط الجغرافية وخصوصاً وجود مساحات صحراوية واسعة قد جعلت من الري الصناعي بواسطة السدود والاقنية وغيرها من المنشآت المائية قاعدة الزراعة في جنوب الجزيرة. فالسيول تخدم تخصيب الأرض، ويستفاد من ارتفاع مستوى الماء لتغذية أقنية الري، وهذه الضرورة الأولية لاستخدام الماء باقتصاد وتوفير، بصورة جماعية مشتركة، قد فرضت في اليمن تدخل الحكومة المركزية، لأن مثل هذه المشاريع لم تقم على أكتاف أشخاص، بل قامت بها الدولة، من هنا كانت وظيفة اقتصادية تقع على عاتق جميع الحكومات المتتابعة، هي وظيفة تأمين الأشغال العامة الكبيرة ذات الفائدة الهيدرولية (هيدرولي Hydrology ، نسبة إلى طاقة الماء المستخدمة في الزراعة كالسدود، الحواجز والأقنية وتنظيم الفيضانات).

إن هذه العملية (التخصيب الاصطناعي للتربة وإقامة السدود والحواجز ..الخ) كانت تتوقف على وجود حكومة مركزية، وتسقط إلى الحضيض، حينما يهمل الري وصرف المياه. وهذا الأمر فسر لنا ما عرف من وجود مناطق مزروعة بأسرها، وبأفضل صورة مثل مأرب وحضرموت والجوف، أصبحت اليوم جرداء قاحلة.ويفسر كيف أن حرباً مدمرة واحدة تستطيع أن تفرغ البلاد من السكان لقرون، وأن تحرمها من حضارتها.

أما العنصر الجوهري الآخر فهو الموقع، وتمثل بتجارة المرور والموقع Location هو عبارة عن الإطار الجغرافي الكبير الذي يحدد علاقات المكان بغيره من الأمكنة والظواهر الطبيعية والبشرية (المكان من الخارج). فقد كان عرب الجنوب وسطاء لا غنى عن الاستعانة بهم في عمليات الوصل التجاري بين سواحل المحيط الهندي وسواحل شرق أفريقيا من ناحية، وبين ضفاف الفرات في العراق وسواحل

البحر المتوسط في الشام وحدود مصر الشمالية الشرقية من ناحية أخرى. فاليمن تقع في الوسط بين شبكة خطوط الطول والعرض في العالم القديم. وطبيعي بعد هذا أن يكون لهذا الموقع الجغرافي الهام دور وقيمة هامة في التاريخ القديم. فعلى الرغم من العقبات المتمثلة في الصحاري والجبال والبراري الصعبة فإن طرق القوافل كانت تربط بين جميع أنحاء الجزيرة العربية ما بين أطرافها في الشمال والجنوب والشرق والغرب، مما سهل للتاجر وللسكان التنقل بين أرجاء البلاد.

وإذا جاز لنا استخدام معلومات الاصطخري (1961، ص21) الذي اهتم بالطرق والمسافات فحدد 14 (أربعة عشر) طريقاً تقطع الجزيرة، فإننا نلخصها، في أن الطرق الرئيسية كانت تشق البلاد في وسطها وفي غربها، تصل العراق والخليج بالحجاز واليمن بالشام عبر الحجاز ومصر، وأنه على الرغم من المسافات الكبيرة بين أطرافها (المسافة طولاً من باب المندب إلى خليج العقبة تصل إلى 2100 ك.م. ومن سيناء حتى باب المندب 2000 ك.م. والمسافة من عدن Arabia Eduaimon إلى نجران وعسير 550ك.م. ومن هنا إلى غزة 1600 ك.م.تقريباً انظر تفاصيل هذه الطرق أيضاً في (Grohmann (1963).7, A.1) فإن الاتصالات بين هذه الأطراف مؤكدة عن طريق التجارة، وهو ما تكشف عنه اللقى الأثرية على طول هذا الطريق، الذي تبلغ مسافته من منطقة سأكلان (ظفار عُمان الحالية) وحتى القدس حوالي 3400ك.م.، لدرجة أن الباحثين يطلقون عليه الطريق التجاري العظيم أو الطريق الشرقي القديم، وإن كان قد اشتهر باسم (طريق البخور أو طريق التوابل) مقابل طريق الحرير الغربي الذي يمر عبر أواسط آسيا. وكان هذا الطريق يبدأ من الموانئ اليمنية القديمة مثل (قنا) بئر علي الحالية- غرب المكلا- أو عدن ويمر بعواصم الدول اليمنية القديمة متجهاً إلى نجران ثم يسير في اتجاه شبه مستقيم نحو الشمال ماراً بالواحات التي كانت أشهرها واحة العُلا ومنها نحو البتراء، عندما ظهرت هذه الدولة في التاريخ منذ القرن الرابع ق.م. [لمزيد من التفاصيل، انظر: الشيبة 1991 ص122-140، وقارن: 37-Groom 1981.22].

وقد بلغ من كثافة وضخامة القوافل المارة بهذا الطريق أن شبهها الكاتب الروماني استرابون (بجيش عظيم يتحرك) وذلك عند وصفه للجزء الشمالي من هذا الطريق الذي يتجه نحو البتراء (23-Strabo: XVI. 4) ... ومن البتراء، كان المسار الرئيسي للطريق يمر شمال سيناء، وينتهي عند ميناء غزة على ساحل البحر المتوسط.

وإلى جانب الطرق البرية كان الطريق البحري مسلوكاً ما بين اليمن وساحل أفريقيا الشرقي وسواحل الهند وبحر القلزم (الأحمر) والمحيط الهندي. لكن الطريق البري- طريق البخور- الممتد على أرض الجزيرة كان أهم بكثير من الطريق البحري. ولم تستطع جيوش الإسكندر بعظمتها وجبروتها ومن بعد جيوش البطالمة والرومان، على الرغم من الحملات الكثيرة التي جردت على الجزيرة- كما سيأتي معنا- أن تستولي على الطريق التجاري في سبيل استغلال مرافق اليمن ومواردها في هذا المجال التجاري المربح. ومن هنا يمكننا أن نشبه تجارة البخور فيما مضى بتجارة النفط اليوم. فقد عرف أهل اليمن البحر طرقه وتعرجاته، سواحله وموانيه، وامتلكوا رياحه الغدارة فاحتكروا بذلك تجارته. وأهمية هذه المعرفة التي اكتسبها اليمنيون واضحة، فالمعروف أن البحر الأحمر أشد بحار العالم حرارة، خاصة الجزء الجنوبي منه حيث تساعد سلسلتا الجبال على جانبي البحر الأحمر العربي والأفريقي على ركود الهواء في هذه المنطقة لفترات طويلة مما يضاعف الشعور بالحرارة المرتفعة، وأما كمية الأملاح فيه فكبيرة أيضاً إذ تبلغ

36.5 % عند بريم وتتراوح بين 41،42 % عند السويس، والبحر مملوء بالصخور المتكونة من الأعشاب المرجانية التي كثيراً ما تظهر على سطح الماء، وقد ساعد على تكوينها ضحالة المياه في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر- لا يتعدى عمق المياه 150م- وارتفاع درجة حرارة مياهه وملوحته العالية الأمر الذي ترتب عليه زيادة نشاط الحيوانات البحرية المرجانية، ثم إن الملاحة في هذا البحر كانت ولا تزال محفوفة بالمخاطر والصعاب، تلك الصعاب التي صورها لنا الأدب المصري القديم في قصة (الملاح الغريق) التي ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة. وهي تذكرنا بقصة «السندباد البحري» في ألف ليلة وليلة. وبطل هذه القصة الطريفة يقلع في سفينة طولها 120 ذراعاً وعرضها 40 ذراعاً وبها 120 من خيرة البحارة المصريين (وكانوا يتعرفون السماء، وكانوا يتعرفون الأرض، وكانت قلوبهم أثبت من قلوب الأسود، وكانوا ينبئون بالعاصفة قبل أن تحدث، والزوبعة قبل أن تكون، وكان كل واحد منهم شجاع القلب قوي الساعد أكثر من زميله، ولم يكن بينهم أحمق، وقد هبت عاصفة ونحن لا نزال في البحر... وبعد ذلك غرقت السفينة بمن كانوا فيها، ولم يبق غيري (انظر القصة كاملة في Erman 1923.5.7f. وقارن، سليم 2000 ص250). فإذا علمنا أن أصحاب السفن الشراعية في يومنا هذا لا يجرؤون على الملاحة ليلاً في هذا البحر، اتضح لنا صدق هذه القصة التي تصور لنا خطورة الملاحة في تلك الأيام.

والبحر الأحمر يمتد بين خطي العرض 10 و30 شمالاً وخطي الطول 25 و55 شرقاً، وهو امتداد فلكي جيد يتيح تنوعاً في الخصائص المناخية والحيوية. ويبلغ طوله من باب المندب في أقصى الجنوب الشرقي حتى السويس في أقصى الطرف الشمالي الغربي زهاء 2200 ك.م. بمتوسط اتساع يصل نحو 240ك.م.، ويبلغ أقصى اتساع له نحو 340ك.م. قرب ميناء عدوليس الحبشي القديم (إلى الجنوب من مصوع) وبعدها يضيق ثانية حتى تقترب سواحله من بعضها البعض عند باب المندب في نقطة لا يزيد اتساعها عن 22ك.م. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك انتشار عدد كبير من الجزر في البحر الأحمر. (لمزيد من التفاصيل عن البحرالأحمر وجزره، انظر: محسن 1980 ص112-118؛ يحيى 1962 ص7-12؛ الحبيشي 1992 الباب الأول، لقمان 1972).

إذاً، فإن مثل هذا البلد الذي يحتل مثل هذا الموقع وتلك الخبرات كان بلا شك وجبة دسمة في نظر القوى الدولية في تلك الحقبة. وعلى الرغم من فشل حملات الرومان،فإنهم لم يغضوا بصرهم عن جنوب الجزيرة العربية، فغيروا سياستهم من استعمال القوة إلى تحسين علاقاتهم السياسية بالممالك العربية الجنوبية وبسادات القبائل للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية، كما وجهوا أنظارهم نحو ساحل أفريقيا وحكومة أكسوم لتطويق اليمن وانتظاراً للفرصة التي تمكنهم من الانقضاض عليها من جديد. [انظر: الشيبة 1999 ص17-19].

فقد كانت السفن تأتي من الهند وأفريقيا حاملة السلع المختلفة وفي مقدمتها خشب الأبنوس وريش النعام والذهب والأفاوية والطيوب وأخصها البخور والمر اللذان كان لهما سوق نافقة في المعابد والعقاقير والأصباغ والطقوس الدينية والسحر الذي تظهر صلته بوجه خاص في العقائد الجنائزية (أي المرتبطة بالموت وبالدفن والمقابر) عند أصحاب الحضارات القديمة بشكل عام. فيتلقفها التجار اليمنيون ويسيرون بها وسط الصحاري المذكورة متنقلين من محطة إلى أخرى في رحلة كانت تستغرق زهاء 79 يوماً ما بين العاصمة السبئية مأرب وحتى القدس، حيث تقدر المسافة بينهما بحوالي 2400ك.م. وذلك على افتراض سائد لدى العلماء بأن المسافة التي كان يقطعها الجمل من محطة إلى أخرى تبلغ حوالي 30 ك.م. يومياً (انظر الخرائط والمسافات بين

محطة وأخرى في: (Wissmann 1964 ,A. 117-118). بل يمكن القول بأن تجارة التوابل والأفاوية كانت العامل الأساسي في تقرير بزوغ الدول وأفولها (سقوط البتراء عام 107/108م وسقوط تدمر عام273م)، وفي فقرها وغناها وفي إثارة الفتن والحروب فيما بينها، كما أنها كانت الحافز على تحقيق الكثير من الاكتشافات الجغرافية- فيما بعد- ولقد كانت بلاد اليمن أهم مركز في احتكار التوابل والأفاوية، تجارة وتوزيعاً. (انظر في ذلك: Miller 1969, Warmington 1928, Muller 1978). وأثروا منها كما أثروا من الزراعة، لدرجة جعلت استرابون يصف ثروتهم بقوله (أرض سبأ عظيمة السعادة، وبها أعظم شعب..... ومأرب هي عاصمة السبئيين، وأرضها غنية بالأشجار..... ويعيش الملك ومن حوله في دعة ونعيم بين جميلات النساء، فريق من الناس يزرعون الحقول، وفريق يعملون بتجارة الطيب، والمواد الأثيوبية التي يتاجرون بها من وإلى أثيوبيا عبر مناطق بحرية وعرة..... وهم في غاية الثراء من زمن بعيد.....ولا يحتاجون إلى استيراد أشياء من خارج بلادهم) Strabo:XVI, 4 -19,22 ويضيف بليني (وأما السبئيون فهم أغنى الشعوب بالغابات ذات أشجار الطيوب الكثيرة، وأرضهم غنية بمعدن الذهب والفضة، ولديهم العسل والحبوب..... والسبئيون يطهون الطعام باستخدام خشب البخور، وآخرون باستخدام خشب المر، فتخرج روائح العطور بشكل لا مثيل له في جزء آخر من المدن والقرى) Pliny: VI, 161, XII,81. وفي هذا كله فإن اليمن لا يمتاز فقط بالموقع المركزي المتوسط، ولا بالموقع المدخلي أو موقع البوابة فحسب،ولكن أيضاً بالموقع العقدي البؤري.

وهنا يصح القول، إذا كانت دراسة «وضعية الأرض» في اليمن القديم تشكل مفتاحاً لفهم تاريخه، فإن دراسة التجارة، تشكل مفتاحاً آخر، على أساس أن هذا التاريخ في جوهره اعتمد على تفاعل الموضع والموقع وما نتج عنهما في حركة التاريخ وصيرورته الشمولية. بمعنى أن الأساس الاقتصادي – وفق نظرتنا – هو الذي يخلق البنى الاجتماعية، ويفرز أنماط الحكم والنظم.

وما زال اليمنيون في عزتهم وثروتهم حتى أخذت طرق التجارة تتحول من البر إلى البحر فأخذوا في الضعف، ففي الكتاب الموسوم: دليل البحر الأرتري. (Huntingford 1980 72) يخبرنا مؤلفه اليوناني المجهول أن هيبالوس Hippalus استطاع في عهد بطليميوس الثاني (116-80ق.م) أن يكشف حركة الرياح الموسمية التي كان يعرف سرها اليمنيون فقط لتسيير رحلاتهم البحرية. (انظر: Bunbruy 1959 Vol. II, 351) فبعد ذلك الاكتشاف الهام بدأت الدولة اليمنية القديمة تحس بالآثار التي أحدثها الاكتشاف على مواردها، حيث أصبح ممكناً نقل البضائع إلى الغرب رأساً بواسطة الرومان عن طريق البحر.

ثم أتت الحروب الطاحنة التي استمرت زهاء قرنين من الزمان تقريباً (60-265) نتيجة ضعف سلطان الدولة المركزية الذي يرجع إلى البنيان الاجتماعي المتخلف للجماعات القبلية والعشائرية، وهو الذي كان انعكاساً لظروف حياتها المادية والاجتماعية، وكان عاملاً من عوامل عدم الاستقرار السياسي على الأرض اليمنية، كما كان من أسباب تلك الحروب الطاحنة، التي ترتب عليها تدمير القوى المنتجة. وهكذا تحولت المدن العامرة إلى أطلال والأرض الخضراء إلى أرض جرداء وقد ساعدت على انتشار أعمال السلب والنهب في الطرقات البرية وظهور أعمال القرصنة في البحر الأحمر. وهذه الحالة مكنت الرومان من الاستفادة من اكتشاف هيبالوس فسيطروا على طرق التجارة في البحر الأحمر. وكانت أساطيلهم المحمية

بالمقاتلين تتزود من عدن بما تريده من البضائع وتعود بها إلى مصر، وتقوم بنقل منتجات الغرب إلى الشرق عن طريق عدن وهكذا. وبعد فترة قصيرة فقدت عدن أيضاً مركزها كمكان لتبادل التجارة الهندية والعربية بسبب الرومان. (Rostovtzeff, 1908, 302).

ولكن ما معنى هذا؟ و كيف حدث؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تتمثل في نمط الإنتاج، ونمط الإنتاج هو شكل خاص، نوعي، من أشكال استغلال الطبيعة والإنسان معاً. وهو يتطلب في آن واحد تنظيماً للعمل وشكلاً للتعاون، وتنظيماً اجتماعياً للعمل، وشكلاً من أشكال الإكراه الاجتماعي، حتى أنه ليصح أن يقال أنه كما يكون نمط الإنتاج يكون المجتمع على الأقل في ملامحه العريضة. وفي حالة جنوب الجزيرة، فإن نمط الإنتاج فيها تميز بالجمع بين النشاط الإنتاجي الجماعي للقرى الأولية وبين التدخل الاقتصادي لسلطة دولة تستغل تلك القرى وتقودها في آن واحد.

سنقوم الآن وتطبيقاً للمثل العربي القائل «بضدها تتبين الأشياء» بإبراز نمط الإنتاج الأسيوي ونمط الإنتاج الإقطاعي ونمط الإنتاج الإتاوي دون غيرها من المقولات التي أبدعها المفكرون نظراً إلى الصدى الواسع الذي لقيته هذه النظريات لدى المهتمين بتاريخ اليمن القديم.

ولابد من القول هنا ان استعراضنا النقدي لهذه المقولات النظرية سيكون سريعاً ومبسطاً، ذلك كونها لم تطرح بصفة رئيسية نمطاً للإنتاج الرئيسي في اليمن القديم، بل أدخلته في إطار النمط الكلاسيكي المعروف بتقسيماته الخمسة الشهيرة.

تتقسم هذه المقولات إلى صنفين: صنف اهتم أصحابه بنمط الإنتاج الرئيسي واعتبروه قضيتهم الرئيسية، وصنف آخر لم يهتم أصحابه بنمط الإنتاج الرئيسي، وإنما عكفوا على صياغة مفاهيم أعم وأشمل تنطوي أحياناً على تحديد ضمني لنمط الإنتاج الرئيسي، وتتعلق هذه المفاهيم بنمط الحكم أو بالبنى الداخلية للمجتمع أو بالتشكيلة الاقتصادية والاجتماعية ككل، وسيتعلق نقدنا لهذه المفاهيم بجانب واحد هو ما جاءت به هذه المفاهيم ضمنياً أو صراحة - من معطيات حول نمط الإنتاج الرئيسي. ونشير هنا أن اعتبارنا هذه النظريات غير ملائمة لمقارنة المنطق الداخلي للتاريخ اليمني القديم لا يعني أبداً أن البعض مما جاءت به هذه النظريات غير صالح لفهم جوانب معينة من هذا التاريخ.

1 - نمط الإنتاج الآسيوي:

لقد تبنى منظرون كبار مثل ماكس فيبر Max Weber أو سمير أمين بعض عناصر مقولة نمط الإنتاج الآسيوي، والمعروف أن هذين المنظرين صاغا مفاهيم طبقها بعض أشياعهم. لذلك لا بد من تحديد مضمون هذه المقولة كما جاءت في كتابات أهم المفكرين الذين تحمسوا لها واستماتوا في الدفاع عنها.

تتميز مواصفات المجتمعات "الآسيوية" حسب هؤلاء المفكرين كما يلي:-

- وجود مجموعات قروية "مكتفية ذاتياً" مع غياب الملكية الفردية في صلبها، أو وجود أشكال ملكية فردية محدودة الفاعلية، إلى جانب عدم وجود فصل بين الزراعة والصناعات الحرفية.
- وجود دولة مركزية قوية ومستبدة، ولهذه الدولة مهام اقتصادية كبرى مثلما هو الشأن إلى "المجتمعات المائية" القائمة على الري النهري (مصر، الهند، الصين...)، أي القائمة على الزراعة الثقيلة (مقارنة بالصناعة الثقيلة في أيامنا هذه). ومقابل الخدمات التي تقدمها البيروقراطية الحاكمة (المُلك، رجال الدين، الموظفون) للمجموعات القروية تستخلص منها جملة من الإتاوات، وتفرض عليها شبه عبودية معممة، بحيث يصبح

استبداد الدولة جبلة كامنة في الواقع الجغرافي لهذه المجموعات القروية، وتصبح الدولة وكأنها هي محرك التاريخ وليس التناقض بين المصالح الاجتماعية المتنافرة، وهذه الدولة تسهر دائماً على منع قيام قوى اجتماعية غير حكومية مستقلة وقوية. وتتجلى هذه الرؤية في خصوصية الإقطاع الصيني، في أن احتكار الطبقة السائدة للأراضي والمياه لم يأخذ شكل الملكية الخاصة، وإنما شكل ملكية الدولة التي تعود العلة فيها، شأنها شأن ملكية الدولة في الحقبة الرقية، إلى درجة المركزية العالية المرتبطة بالأشغال العامة وبناء المنشآت الضخمة.

- تميز هذه المجتمعات "الآسيوية" بالركود العام والانغلاق، بحيث تظل هذه المجتمعات تكرر نفسها على الدوام لعشرات القرون، ولا بد من عامل خارجي حاسم لإخراجها من الحلقة المفرغة التي تعيش فيها.

2 -نمط الإنتاج الإقطاعي:

إن مفهوم الإقطاع (انظر مقال إقطاع دينكن 1981) من المفاهيم التي أثارت ولا تزال تثير الكثير من الجدل بين المؤرخين. لقد ظهرت عبارة «إقطاع» في بداية القرن السابع عشر في الأوساط الفكرية الأوروبية. كان يقصد بها جوانب قانونية معينة من العلاقات التي كانت تربط عناصر الطبقة الحاكمة الأوروبية بعضها ببعض في العصر الوسيط الأوروبي. ومنذ أواخر القرن السابع عشر مع هنري سبلمان Henry Spelman وخاصة أثناء القرن الثامن عشر، بدأت عبارة إقطاعية تتجاوز المعنى القانوني لترمز إلى التنظيم السياسي والاجتماعي وخاصة القانوني الذي يهم الفئات والشرائح العليا في أوروبا قبل ظهور الصناعات العصرية الرأسمالية.

وكانت الأرض آنذاك في أيدي الملاكين العقاريين ورجال الدين، الذين كانوا يقيمون بالأرياف ويشرفون مباشرة على تنظيم الإنتاج الزراعي. وكان أولئك الإقطاعيون مرتبطين فيما بينهم بواسطة شبكة صارمة ومقننة من علاقات التبعية الشخصية.فالنبيل من درجة سفلى (تابع) للنبيل الذي يأتي أعلاه مباشرة، وهذا الأخير تابع بدوره لنبيل أرفع منه شأناً، وهكذا إلى أن نصل إلى الملك الذي يعتبر نبيل نبلاء المملكة. ويعطي النبيل لتابعه "إقطاعاً" يتمثل عادة في أرض كبيرة المساحة، كما يوفر له الحماية الشخصية. ويلتزم النبيل التابع مقابل ذلك بتقديم جملة من الخدمات لسيده أهمها الخدمة العسكرية عند اللزوم.

وقد تطور هذا المفهوم لينتهي في المرحلة الستالينية ليصبح واحدة من المراحل التي يجب أن تمر به كل البشرية وهي: المشاعة البدائية، العبودية، الإقطاعية، الرأسمالية ثم الاشتراكية. وهناك من حشر مجتمعات رعوية خالصة مثل منغوليا ضمن هذا المسار التاريخي الاضطراري، وأصبح ينعت إحدى فترات تاريخها "بالإقطاعية البدوية"!!.

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ التفكير حول الإقطاع يشهد تطوراً نوعياً. ودار حوار ثري في الخمسينيات من القرن الماضي حول الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية. أدت هذه المناقشات إلى زعزعة الكثير من المسلمات حول الإقطاع، وأعطت دفعاً جديداً للبحث في هذا الميدان. وقد شهد البحث زخماً لا يستهان به، وأصدر عدد من المؤرخين المرموقين دراسات محفزة. لقد تحقق بفضل هذا النشاط العلمي الفياض تقدم كبير في مجال الإحاطة بالإقطاع.

وهكذا بدأت النظرة إلى مقولة الإقطاع العربي وإلى التاريخ العربي بصفة عامة تتغير عند المفكرين العرب الذين تبنوا منذ العشرينات الفكرة القائلة بوجود مرحلة تاريخية إقطاعية عربية، تحت تأثير جملة من العوامل الداخلية،

ليس هنا محل مناقشتها. وهكذا ظهر جيل ثان من المثقفين العرب في الخمسينات وظهر في صفوفهم اتجاهان بالنسبة إلى مقولة الإقطاع، اتجاه تبنى مقولة الإقطاع العربي، لكن من موقع نقدي، واتجاه رفض مقولة الإقطاع العربي رفضاً إما سلبياً أو إيجابياً.

أما أصحاب الاتجاه الأول، فهم لا يزالون متمسكين بمقولة الإقطاع العربي، إلا أنهم يركزون على الفكرة القائلة أن لهذا الإقطاع مواصفات تميزه عن الإقطاع الأوروبي مثل عدم تفتت سلطة الدولة، سهولة مصادرة الدولة للإقطاعات التي كانت تمنحها لعلية القوم في فترات معينة، تمتع الفلاحين بقدر كبير من الحرية الشخصية، أهمية التجارة والمدن في التاريخ العربي...الخ.

أما أصحاب الاتجاه الثاني الرافض لوجود إقطاع عربي، فينقسمون بدورهم إلى ثلاثة اتجاهات فرعية:

- اتجاه يرى عدم ملاءمة مقولة الإقطاع لمقاربة التاريخ العربي، ويقترح تعويضها بمقولة نمط الإنتاج الآسيوي.
- اتجاه اتخذ من بعض مظاهر الإقطاع الأوروبي معياراً لنفي وجود إقطاع عربي.
- أما الاتجاه الفرعي الثالث، فيمثله سمير أمين الذي لم يقتصر على رفض مقولة الإقطاع العربي، وإنما قدم بديلاً مهماً هو نمط الإنتاج الإتاوي الذي سنناقشه فيما بعد.

3 - نمط الإنتاج الإتاوي:

انطلق المفكر سمير أمين من نقد (المركزية الأوروبية)، وهو يؤمن بوجود قوانين أساسية تحكم تطور كل المجتمعات الإنسانية، لكنه يرى أنه لا يمكن استخراج هذه القوانين انطلاقاً من التاريخ الأوروبي فقط. ويعتقد سمير أمين أن التشكيلات الاجتماعية الأساسية في التاريخ الإنساني قبل ظهور الرأسمالية هي التشكيلة المشاعية البدائية ثم التشكيلة الأتاوية. أما التشكيلة العبودية فهي تشكيلة عارضة، ولا يمكن تعميمها على كل المجتمعات، والمجتمعات التي عرفت العبودية مثل اليونان القديمة أو الامبراطورية الرومانية كانت مجتمعات «أطراف» بالنسبة إلى المجتمعات الإتاوية «المركزية المتطورة» مثل مصر والصين. ويتميز نمط الإنتاج الإتاوي الخراجي في نظر سمير أمين بالمواصفات التالية:

- انقسام المجتمع إلى طبقتين أساسيتين: الفلاحون الحائزون للأرض والمنتظمون في صلب جماعات محتفظة باستقلالية ذاتية نسبية والطبقة الحاكمة التي تحتكر وظيفة التنظيم السياسي للمجتمع وتنتزع من جماعات المزارعين إتاوات (غير سلعية).
- ابتزاز الإتاوات من جماعات المزارعين يتم بواسطة الوسائل اللا اقتصادية نظراً إلى ارتباط هؤلاء المزارعين بوسائل انتاجهم.
- تمحور التنظيم الأساسي للإنتاج حول القيم الاستهلاكية، وليس حول القيم التبادلية، وذلك لارتكاز نمط الإنتاج الإتاوي على الاقتصاد الطبيعي أساساً.
- تَمَيُّز المجتمعات الإتاوية بالاستقرار أو حتى الركود، رغم التقدم الكبير الذي قد يحصل أحياناً على مستوى الإنتاج (مصر الفرعونية، الصين في عهد الأباطرة)، إلا أن التقدم لا يمكن أن يؤدي إلى أي تغيير في علاقات الإنتاج.

في ظل كل هذه النظريات يستحيل في رأيي اختزال كل التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها الشرق قبل ميلاد الرأسمالية ضمن نمط واحد. وتجاهل ما لتلك التشكيلات من تنوع وتعقيد. والرأي عندي أنه لا يمكن أن تكون هناك تشكيلة عالمية واحدة قبل ظهور الرأسمالية التي تمثل أول نمط إنتاج ذا منزع عالمي. والأكيد وجود قواسم مشتركة بين أنماط الإنتاج المختلفة التي عرفتها المجتمعات

الإنسانية في الحقبة الطويلة بين اندثار العبودية وظهور الرأسمالية. لكن الوقت لم يحن بعد في رأيي لتحديد هذه القواسم المشتركة بدقة، لأن الدراسات التاريخية للمجتمعات الشرقية ما قبل الرأسمالية لم تتطور بعد بما فيه الكفاية، رغم ما هو موجود في الساحة العلمية اليوم من بعض الدراسات الجيدة. على أن هذا الحذر لن يمنعنا – كما أشرنامن قبل- من تجاوزه ومحاولة سبر أغوار التاريخ اليمني القديم.

هنا لا بد أن نتوقف بعض الشيء، لأن التاريخ لا يعرض على القراء كمّاً من الحوادث المبعثرة فحسب، بل يهدف إلى تنظيم هذه الحوادث وشرحها، وبناء على ذلك يبرز أمامنا هذا السؤال: ما نظام الأرض في المجتمع السبئي القديم؟ أقول لا داعي هنا لحرج البعض إزاء أن لا يكون للإنتاج الرقي الكلاسيكي أو حتى للإنتاج الإقطاعي الكلاسيكي تلك القيمة الشاملة العالمية التي كانت تعزى إلى بعض التكوينات الاجتماعية. فإن هذا الحرج لا مبرر له لأن مقولة أخرى، هي مقولة نمط الإنتاج الآسيوي، تسمح أكثر من غيرها بتفسير بعض مظاهر الواقع التاريخي. إذ العلم في جوهره، حركة الذهاب والإياب بين النظرية والممارسة؟

إن بعض الدراسات تشير إلى أن صيغة من صيغ "الأشكال التي تسبق الإنتاج الراسمالي" وإلى أن حقوق الفرد على الأرض لا وجود لها في المجتمع الآسيوي، إلا من خلال المشاعة التي ينتمي إليها الفرد، وإلى أن المشاعة هي (الوسيط) في التملك الفردي للأرض. ولكن أي مشاعة قصدوا؟ تارة يلحون على واقع أن الدولة هي المالك الحقيقي للأرض، وطوراً يلاحظ آخرون أهمية حقوق ملكية المشاعات القروية ذاتها. ولا شك في أنه ليس بين هذين الميلين من تناقض.

إن الواجب يقتضي أن نبذل المزيد من المساعي لتحديد نظام تتداخل فيه حقوق القرية وحقوق الدولة، ويتنوع فيه وزنها النسبي تبعاً للزمان والمكان وتبعاً لقوة السلطة المركزية. وهناك حاجة إلى العديد من الدراسات العينية لبيان كيف تداخلت في هذه المجتمعات المتباينة الملكية القروية وملكية الدولة.

وحتى في حالة ظهور (براعم) للملكية الخاصة للأرض، فإنها لا تغير جوهر الموقف. إضافة إلى أن العلاقات الأساسية للملكية العقارية لا يطرأ عليها تعديل جوهري عندما تخصص القرى أو مجموعات القرى بالأراضي، ويكون المستفيد الأول كبار الموظفين- الكبراء[1] – الأقيال- الأذواء- والارستقراطيون والمؤسسات الدينية (المعابد). فهذا التخصيص لا يعدو أن يكون أكثر من "إقطاعات كاذبة" لا يستغل الحائزون لها حقوق الدولة بالنيابة عنها إلا بموجب تفويض. فهم يقتطعون من القرى الفائض ويشرفون على السخرة. ولكن حلول هؤلاء المستفيدين الفرديين محل الدولة لا يعدل شيئاً في بنية الإنتاج القروي، ولا يمس اكتفاءها الذاتي الأساسي. لقد استرعت متانة تلك المشاعات وتلاحمها انتباه الدارسين، كما هي الحال على سبيل المثال في القرية الهندية. ولقد جاء أن من السمات الأساسية لتلك المشاعات غياب الملكية الخاصة للأرض، وعدم الانفصال بين الزراعة والصناعة والاكتفاء الذاتي إنتاجاً

---

(1) (كبراء جمع ك ب ر - كبير، وهو صاحب المنصب الإداري الأعلى في الشعب أي قبيلة من الحضر- الأقيال جمع ق ي ل أو ق و ل، وهو احد افراد بيت رئاسة في شعب والفرق بين الكبير والقيل أن سلطة الأول وموضوع اختصاصه أوسع وأشمل من سلطة واختصاص الثاني، إذ كان عليه تدبير شئون مخلاف (محافظة بمصطلح اليوم) أو عدة مخاليف الذي كان يتألف من عدد من المقاطعات أو مديريات، بينما كان القيل عبارة عن أمير يتولى تدبير شئون مقاطعة أو عدة مقاطعات إذا كان المخلاف كبيراً، الأذواء جمع (ذ) وهم أمراء المحافد (م ح ف د) الذين يطلق عليهم في النقوش اليمنية القديمة لفظ (ذ) أي صاحب فيقال (ذ غ ي م ن) أي صاحب غيمان، والمحفد كالحصن أو القلعة يحيط به سور)

واستهلاكاً في إطار القرية.

وبصدد وظائف الدولة الاقتصادية وعلاقتها بتلك القرى يمكن القول: إن تلك القرى البدائية قد كفت منذ أمد بعيد عن أن تحيا في استقلال تام، وهنا بالتحديد يكمن وجه اختلافها الجذري عن المشاعات البدائية القديمة. فهي الآن في اليمن مندمجة بجملة اقتصادية أرحب وأوسع، وهي كذلك خاضعة لسلطة الدولة. ولا يخامرنا شك، في أن الدولة اليمنية القديمة هي التي كانت تنظم بنفسها الإنتاج وبالتالي التعاون، بنفس المعنى الذي نقول به أن مالك العبيد الأغريقي أو الروماني والسيد الإقطاعي يتولون، كل في زمانه، تنظيم الإنتاج والتعاون. وهذا معناه أن الدولة تتمتع بـ (قيادة اقتصادية عليا).

ونحن نعرف أن فكرة (القيادة الاقتصادية العليا) تلك تنطوي على وظائف اقتصادية أخرى. من قبيل ذلك صيانة طرق القوافل ومراقبة أمنها، ومراقبة دورات زراعة الأرض واستثمارها (بمقدار ما أن اكتفاء القرى الذاتي لم يكن قط مطلقاً) وتتولى الدولة المسؤولية المباشرة عن بعض قطاعات الإنتاج التي تتعدى طاقات القرى مثل ورشات الأشغال الكبيرة ذات الفائدة الهيدرولية. (انظر المناقشات الكثيرة التي جرت حول هذا الأمر في: Gianni Sofri 1972.Ruben 1967 1968.Sellnow1961. 1963. Takei 1969. Varga 1967).

إن ممارسة الدولة لهذه الوظائف الاقتصادية المتنوعة تفترض وجود يد عاملة وفيرة، وسلكاً من الوسطاء التنفيذيين (الكبراء- الأذواء- الأقيال) وهذا بشقيه يثير العديد من الأسئلة: هل يشكل وسطاء الدولة، أو البيروقراطيون الذين ينبغي بادئ ذي بدء- على ما يبدو دراستهم دراسة نموذجية عينية- فئة اجتماعية مغلقة، ذات مركز وراثي كما يعتقد موسكاتي (1986، صـ 196 وما بعدها) أم أن صفوفهم تتجدد من خلال تعيين أكثر انفتاحاً؟ وإلى أي حد انفصلت هذه الأرستقراطية القبلية القديمة، التي أضحت بيروقراطية، انفصالا كاملا أو غير كامل عن المشاعة القروية؟ وما العلاقة بين هذه البيروقراطية وبين الزعماء الطبيعيين لتلك المشاعة القروية؟ لقد لجأت الدولة على ما يبدو في بعض الحالات إلى إعادة توظيف أولئك الزعماء الطبيعيين تعزيزاً منها لسلطتها على القرية.

ومن أين تأتي بعد هذا اليد العاملة المستخدمة في الأشغال العامة أو في نقل السلع الذي تشرف عليه الدولة؟ أهم أعضاء المشاعات الريفية الذين يقدمون مجاناً جل العمل؟ أم أنها على العكس- كما يرى البعض- طبقة اجتماعية متمايزة، طبقة الشغيلة غير المزارعين المسترقة على الدوام من قبل الدولة. (سلطان (1970) ص30-39، وقارن: باوير، واخرون 1984،مقبل 1977، مقبل 2003 الفصل الأول على وجه التحديد بالإضافة إلى ص89-94؛ كشار 1984 ص97-105).
إن أصحاب هذا الرأي اعتمدوا على مفهوم العبودية الرعوية عندما عدوا تلك المجتمعات اليمنية القديمة مجرد عينات متميزة من العبودية الكلاسيكية في المفهوم الماركسي، وبالمقابل ألح البعض على أصالة وغنى مفهوم العبودية المعممة (الظفاري 1971 ص33-34).
على الرغم من أن هذا المصطلح ليس موفقاً كل التوفيق ولا يقطع بتمييز كاف بين العبودية الكلاسيكية وبين الاستغلال الجماعي من النمط (الآسيوي) فالعبودية المعممة في نظرهم مختلفة. كل الاختلاف عن العبودية القديمة وعن السخرة الإقطاعية معاً. فهي رهن بقرار المستبد، في حين أن السخرة محدودة بالأعراف. فهم يتحدثون على كل حال، عن كتلة لا متمايزة من اليد العاملة، مع أن العبودية بالمعنى الصرف للكلمة تستدعي تخصصاً فردياً للعبودية. إذاً في كلتا الحالتين تبدو العبودية المعممة شكلاً من أشكال الاستغلال أقدم عهداً، ومتطابقاً مع مستوى أكثر انخفاضاً للقوى المنتجة.

إن استغلال الدولة هذا للمشاعات يتيح إمكانية تعبئة فائض أو فائض إنتاج يؤدي للدولة ولوسطائها. وغالباً ما يكون أداؤه عيناً، كما تحدثنا النقوش اليمنية القديمة.

فنحن نعرف مثلاً من النقش السبئي RES 3910، أنه في حالة عقد اتفاق مزارعة أو تأجير أراضي زراعية، فلا بد من اشتراط نوعية الأجرة وتحديد زمن دفعها، أما بيع المحصول سواء كان قمحاً أو ذرة فيجب أن يكون بحضور المشرف المسئول عن ضرائب المدينة، ومن باع الحبوب في غياب المسئول تفرض عليه غرامة.وكانت تفرض ضرائب خاصة تحدثت عنها النقوش: CIH 342، CIH 567، RES 4176، GL 1438، Ja 615، Ja 617، Ja 656، Ja 659، Ir 22، Nasq 1، هذه الضرائب فرضت على الزرع وعلى عروض التجارة. وكانت ضريبة الزرع متعارف عليها وتقدر بعشر المحصول، وعادة تكون من بواكير الثمار (ث ف ر ع/ ف ر ع س / و ع ش ر/ ع ش ر س) على حد تعبير النقوش المعينية 2/M54، 3/M27. وكان هناك موظف خاص لجمع الضرائب خاصة في قتبان دعي (ق ظ ر) وشارك النساء في تولي هذا المنصب (ق ظ ر ت/ ع م) أي جابية أموال الإله عم CIAS 47.11/OI/F72. وقد جاء في أحد الأوامر الملكية السبئية: CIH 601=RES 2726، بأن على قبائل سبأ أن يؤدوا ما عليهم من التزامات ضريبية مثل: ضريبة المحاصيل الزراعية وضريبة الرأس وضريبة الأرض.

ولكننا نستطيع بلا ريب أن ندمج به العمل المجاني الذي يقدمه الرجال في ورشات الأشغال العامة.ولهذا الفائض طابع مزدوج: فهو في آن واحد تعبير عن إكراه- إذ يجري اقتطاعه عن عمد بالقوة- وعن استطاعة (انظر النقوش: CIH 601، Ja 2856، RES 3951، RES 3439)- إن القوى المنتجة للمشاعة القروية تتيح لها بهذا الشكل أو ذاك أن تدفع إلى الخارج بهذا الفائض من إنتاجها الذاتي. وبمقدار ما يكون مباحاً لنا أن نصنف هذا المجتمع بأنه مجتمع طبقي ولكن من غير أن تكون وسائل الإنتاج قد احتكرت بعد احتكارا خاصاً من قبل الطبقة الحاكمة- كما ستكون عليه الحال بالنسبة إلى ملاك العبيد الإقطاعيين- فإننا لا نجد مفراً من الكلام هنا عن علاقات طبقية فريدة من نوعها.

فالمشاعات القروية تحيا في حالة من التبعية العامة، من العبودية المعممة، وهي تخضع خضوعاً مباشراً لسلطة الدولة وللوسطاء- البيروقراطية، الأرستقراطية، أي الكبراء، والأقيال والأذواء، الذين يتولون الوظائف الاقتصادية ويقتطعون الفائض ويسوقون الناس إلى أعمال السخرة والجندية. ولكن أعضاء هذه الطبقة الحاكمة ليست لهم سوى سلطة وظيفية. فهم لا يقبضون إلا على زمام جزء من السلطة العامة، ولا يشاركون في قيادة الاقتصاد وفي استغلال القرويين إلا بصفة شخصية عارضة. وبالمقابل فإن الدولة ككيان مستقل هي القابضة الفعلية على زمام السلطة والمستفيدة الحقيقية من الاستغلال.

إن التناحر بين المشاعات القروية وسلطة الدولة يقترن إذن بمعادلة الجدل المكمل له: الوحدة العليا التي تجمع بين المشاعات القروية وبين الدولة المستغلة لها والمنظمة في الوقت نفسه لنشاطها الاقتصادي. ومن هنا كانت أهمية أعمال الحظوة، المعابد على وجه الخصوص. فهذه الأعمال ليست محض (نزوة) من نزوات الطاغية، كما يذهب البعض (سلطان1970 ص31)، وإنما هي تجسيد تلك الوحدة العليا وتعبيرها السياسي العيني.

ويمكننا أخيراً أن نتساءل عن ما إذا كانت هذه التناحرات في المجتمع اليمني القديم، هذه التعارضات بين الدولة والمشاعات القروية، تلقى ما يعضدها ويعززها في التناحرات السياسية والسلالية؟ فنحن نقرأ في عدة نقوش أخبار حروب طاحنة بين كيانات سياسية مختلفة مثلتها عدة مراكز أثناء الصراع بين سبأ وحمير

على اللقب الملكي "ملك سبأ وذو ريدان". فقد كان من أصحاب الفضل في إعادة الملكية الشرعية إلى مأرب زعيم قبائل بتع في حاز- شمال شرق صنعاء- وزعيمان لقبيلتي مرثد في شبام أقيان، شبام كوكبان- وذي جرة في كنن- جنوب شرق صنعاء-، وقد عمل كل منهم من ناحيته. ولم يكن عمله بغير ثمن، فقد تلقب كل من الثلاثة بمثل لقب ملك مأرب القديم أي "ملك سبأ". أما الهمدانيون في ناعط – قرب ريدة الحالية- فقد عملوا بدورهم على أن يكون لهم نصيب في ألقاب العصر وزعامته، فنرى يريم أيمن يتلقب بلقب ملك.

وهكذا شهدت البلاد أربع أسر إقليمية أو قبلية ادعى كل زعيم فيها لقب «ملك سبأ» وذلك إلى جانب ملك مأرب صاحب لقب «ملك سبأ وذو ريدان» في دولة كانت تسيطر عليها من قبل مملكة واحدة. وإلى جانب هؤلاء الملوك الخمسة كانت هناك ملكية حمير التي تمسكت هي الأخرى بلقب «ملك سبأ وذو ريدان» وحاولت أن تحققه على حساب هذه الأطراف جميعاً. إذاً، إن ضعف الدولة المركزية، كان عاملاً من عوامل عدم الاستقرار السياسي، كما أنه كان من عوامل تلك الحروب الطاحنة.

لقد غرقت الطبقة العليا المسيطرة في حياة اللهو والنعيم وازدادت مطامح ملوكها في التوسع والسيطرة، وكان ذلك على حساب إرهاق الجماعات والأفراد بالضرائب: ضريبة المعبد، والميراث والمشتريات وضريبة الأرض للأغراض العسكرية والإتاوات. وهو الأمر الذي ترتب عليه هجر الجماعات والأفراد للأرض.

وقد تنوعت وتعددت أنواع الضرائب والغرامات التي كان يجب دفعها للمعبد، فهناك العشر من منتوجات الطيوب التي تقدم للمعبود، كما يفهم من النقش CIH 400، وأخرى على من اعتدى على المعبد M342-RES 3458، وأعطى حسب النص المسئول عن المعبد حق تحصيل هذه الغرامة، وثالثة صادرة من الربة ذات بعدان باحترام نظم المعبد، وحددت عقوبة جسدية هي الجلد وغرامة مالية قدرها 20 قطعة بلطية – نوع من العملة- لكل من يخل بنظم طلب الوحي، كما نقرأ في النقش Nami 74، ورابعة لمن دخل المعبد وملابسه ملطخة بالدماء CIH 544، وخامسة لمن حمل داخل المعبد سلاحاً فليدفع غرامة مالية قدرها خمس قطع نقدية من نوع حي أليم. CIH 548. إلى جانب هذا فقد كان للمعابد ممتلكات، فنحن نقرأ في النقش CIH 522 عن سرقة لمعبد الإله ذي سماوى وتدمير مزارع الكروم وتغيير لأنصاب حدود تلك الممتلكات، ونتيجة لهذا الانتهاك غضب الإله وهجر المعبد كعقاب لأتباعه، وهذه إشارة لشدة وقع الحادثة مما يدل على تحريم وقوعها. وفي نقش آخر Mafray Al-Adan 10+11+12 نجد حجراً لحمى المعبود ومنع الرعي فيه، وفي حالة المخالفة يتم دفع غرامة مالية وقدرها 50 قطعة بلطية.

إن ظهور الحمى ، هو الأساس الأول لتحديد مفهوم الملكية الخاصة، المقدسة، عند عرب الجنوب/ اليمنيين. فالحمى هو المكان المحمي لوجود الإله أو الشيء المقدس فيه. والحمى بهذا المعنى كان النواة الأولى للتملك الخاص، فظهر عندهم التمييز بين حمى الإله وحمى الرجل. وهنا لابد من الإشارة، أن حرم الإله تاريخياً، كان يستمد قوته ليس من ذاته ، بل من قوة المسيطرين عليه.

أما بشأن الأرض ومن ثم أنواع الضرائب التي كانت تفرض عليها، فإننا نواجه إشكالية عويصة، إذ لا نعرف شيئاً يذكر عن وضعها، وكيف كانت الملكية العقارية، فهل كانت منذ أمد بعيد في أيدي هيئات اجتماعية أو في أيدي أفراد. وتظهر صعوبة حل هذه الإشكالية إذا ما عرفنا أن العديد من النقوش اليمنية القديمة ترد فيها ألفاظاً كثيرة يترجمها أهل اللغة بشكل فضفاض لا يسمح بفهم مدلولها بشكل واضح. ومن هنا فإننا نُصْدَم لهذه

اللامبالاة في تحديد المعنى الدقيق للفظ. وفيما يلي نماذج لذلك على سبيل المثال لا الحصر:-

الكلمة/ اللفظة في النقوش اليمنية القديمة	ترجمتها في المعجم السبئي
أ د ي ن	أرض ساقية
أ ر ض	أرض/ بلاد/ أرض فلاحة
ج ب ل ت	أرض زراعية
ذ ب ر	أرض مفلوحة
هـ ر ت	أرض زراعية منخفضة
م أ ت م	أرض/ ضيعة
م د ر	أرض
م ش ر ع ت	أرض (صارت ملكاً خاصاً)
م ع ق ر	أرض (يسقيها المطر)
م ع ل ص	أرض مزروعة
م ن هـ ي ت	أرض سقاية
م هـ و ك ب	مزرعة
م و ف ر	أرض زراعية
س ف ل ت	أرض منخفضة
ع ب ر	أرض فلاحة
ع ق ر	أرض منخفضة
ع م ن هـ و	أرض سهلة
ص و ع	نوع من الأرض المسقية
ق ب ل/ م ق ب ل ت	أرض زراعية مؤجرة
ش د و	أرض مزروعة
س3 أ د	أرض زراعية
خ ت م/ خ ي ت م ت	أرض مزروعة

مع كل هذه الألفاظ فنحن لا نعرف كيف كانت تقسم الملكية العقارية، فهل كان هناك حقول ومزارع وحدائق وبساتين وأراضي بناء، وكيف كانت تقوّم المزارع، هل بالمساحة أم بجودة التربة، ثم هل كان للمزرعة إلى جانب الأرض الصالحة للزراعة مراعي وحدائق ...الخ.

ولما كانت الزراعة بشكل عام في جنوب الجزيرة قد اعتمدت على الري الصناعي، فإن نفس الإشكالية السابقة الخاصة بالأرض نواجهها هنا أيضاً. فقد جاء في النقوش اليمنية القديمة عشرات الألفاظ حول المنشآت المائية، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة معانيها:

الكلمة/ اللفظة في النقوش اليمنية القديمة	ترجمتها في المعجم السبئي
أ ف ق	ضبط / صد (فيضان)
ا ن ف	؟
أ ش ر م ت	منفذ ماء
أ ك ف ر	فتحة توزيع ماء
ز و ي ر ن	موزع ماء
ك ل و ي م	موزع ماء
م أ خ د	مجمع ماء وراء السد
ح ر ر / م ح ر ث	واق على ضفة نهر
م ر ي ت	نظام ري
م س3 و ر	ساقيه
ع ذ ب	سد/ أرض عليها سد
ع و ق	واق على ضفة النهر
م ن ف خ ت	موزع ماء

وينسحب نفس القول أيضاً على الفئات الاجتماعية، فقد ورد في النقوش اليمنية القديمة أيضاً عشرات الألفاظ حول ذلك:-

الكلمة/ اللفظة في النقوش اليمنية القديمة	ترجمتها في المعجم السبئي
أ د ي م ت	اتباع/ موال
ا ذ ي ن ت	اتباع/ حشم
أ ح س ن	تابع/ مولى
و ل ي ت	مولى
ح ر	رجل حر
ح و ر	مولى
ح و و / ح و	اقنان/ عبيد
م أ د ب ت	تابع/ مولى
ع ب د	عبد/ خادم/ تابع/ مولى
ع ذ ر	اتباع/ حشم
ق س د	فئة لا تحمل السلاح
ق س ط	فئة لا تحمل السلاح
ش و ع	تابع/ نصير
س و د	سيد (في سياق حربي)

وأنا لا أود هنا الوقوف طويلاً أمام هذه الترجمات، لكني أود الإشارة إلى أن الأمر يختلط على كثير من القراء، لأن مثل هذه الترجمات تخلط بين العديد من المفاهيم، فمثلاً حسب هذه الترجمات ليس هناك فرق بين (أ د ي م ت) و (أ د ي ن ت) وبين (و ل ي ت) و (ح و ر) أو بين (ح و و / ح و) و (ع ب د) وبالتالي من الصعوبة بمكان الحديث هنا عن هذا الموضوع، ولكن يتضح أن مثل هذه الترجمات لا تساعدنا على الإطلاق في دراسة هذه المسألة بنوع من التفصيل المطلوب.

فلنأخذ مثلاً مصطلح (ح و و / ح و) على أنها أقنان/ عبيد حسب الترجمة، غير أن المعروف أن هناك فروقا بين هذه الألفاظ/ المصطلحات، ويجب التمييز بدقة بين مصطلح رقيق أو قن أو عبد. فالرقيق يُرغم على القيام بعمل إجباري غير مشروع، تتفاوت مشقته وقسوته حسب رغبة سيده، وتربطه في أغلب الأحيان علاقة أبدية بمالكه، كما أن وضعه لا يسمح له بأن يطالب بأن يتوفر له قدر معقول من التأمين والحماية ضد هذا الاستخدام غير المشروع من جانب مالكه.

أما الأقنان فقد ارتبطوا بالأرض في القرى والضياع. وكانت كل قرية وضيعة - في أوروبا في العصر الإقطاعي- تخضع لسيد واحد، ويحتجز هذا السيد جزءاً من الأرض لتزرع لصالحه، وهو الجزء الذي كان يزرع بواسطة الأقنان. والجزء الباقي من الأرض يقسم إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها مقابل ضرائب وخدمات ثقيلة، لا يجد بعد سدادها ما يكاد أن يسد رمقه. وثمة فروق أخرى جوهرية بين القن والرقيق الذي يتحول بالاسترقاق إلى مال يتصرف فيه مالكه، مثلما يتصرف في أشيائه، فله أن يبيعه ويؤجره، وأن يرهنه وأن يوصي به. وفي حالة وفاته تؤول إلى سيده ممتلكاته، إذا ما كان يملك شيئاً، كما تؤول إليه زوجته وأطفاله. والرقيق لا يحصل على مقابل لخدماته، بل إنه في بعض المجتمعات القديمة كان يحرم مثلا من حقه في الحياة، ومن حقه في الزواج، ولكنه يستكثر بالتوالد كالأنعام. ولم يكن نسله ينسب إليه، وإنما كان هذا النسل ينسب للسيد. على حين أن القن ليس مملوكاً لمالك، ولا هو سلعة تباع وتشترى، كما أن له حقوقه وولايته على ممتلكاته الشخصية وعلى زوجته وأطفاله. وإذا مات مالك الأرض التي يعمل عليها، أو قام هذا المالك ببيعها، فإن الوريث أو المالك الجديد يملك الأرض ولا يملك القن. ويرتبط القن عادةً بمالك الأرض بعقد مكتوب أو بعرف لا

يمكنه بمقتضاه أن يبرح الأرض إلا بموافقة المالك. وقد يلزم بالعمل في الأرض وتسليم جزء من المحصول للمالك، أما الفائض فهو له.

ثم أنه لما كان للمعبد (أو الملك) أراض تتمتع بحمى الإله، فما هو نوع هذه الأراضيّ؟ بمعنى هل كان يمكن بيعها وشراؤها، أم كانت خاصة بالمعبد وغير قابلة للتوريث ولا قابلة للتبديل. ومن كان المستفيد المباشر منها إلى جانب الكهنة (أو الملك)؟ وكيف كان يتم زراعتها؟ فهل كانت تقسم إلى قطع صغيرة للأفراد لقاء حصة من الغلة؟ وهل كان هناك حق تملك الأراضي للأفراد أو المجتمع، وهو ربما ما تشير إليه كلمة (م ش ت ر ع ن) من الجدر (ش ر ع) والتي تعني أرض (صارت ملكاً خاصاً بحق) السقاية، كما جاء في المعجم السبئي.

ولماذا لا يكون لتلك الألفاظ العديدة التي ذكرت للأرض معانٍ محددة خاصةً، مثل: الأرض التي تقع في الإقليم وتلك التي خارج الإقليم، أو تلك التي تروى بصفة طبيعية من الأمطار، أو عن طريق القنوات أو الآبار. دون أن نغفل الأرض المزروعة فعلاً، والأرض غير المزروعة، أي الأرض البيضاء ا لقاحلة أو الأرض المهملة.

ونفس الشيء يقال عن الألفاظ الكثيرة التي كانت تطلق على سكان البلاد، أي أن كل لفظ منها كان له مدلول واضح وخاص به، نميز بينهم: الأرستقراطيين أو السادة (الملك والكهنة وأفراد الإدارة بما في ذلك قادة الجيش) الأحرار، وقد تمتعوا بحقوق المواطنة وربما كانوا يشكلون أغلبية السكان، التابعين: تابعون للمعبد، تابعون للأرستقراطية (ضمن شروط معينة)، العبيد (المملوكين بصف فردية) الأرقاء ، وأخيراً الأقنان.

هذا الوضع يتطلب منا إنجاز التحقيق الدقيق قبل التسرع في إطلاق الأحكام القطعية من جهة، وأن نفكر في احتمال أن طبقة العبيد ربما ضمّت فئات اجتماعية مختلفة، فئة الخدم والأرقاء والأقنان. كما يجب في هذا الإطار النظر في وضع الحرفيين، كالبستنة وأعمال الري، تربية الطيور، والحرف اليدوية مثل: النجارين، الحدادين، النحاتين، وربما الكتبة وهو ما تشير إليه كلمة (س ط ر/ س ط ر و) التي تتكرر مئات المرات في النقوش اليمنية القديمة.

ثم ما المقصود بـ (ح ر) التي ترجمت على أنها رجل حر، فهل هذا الرجل الحر كان من الفلاحين الأحرار، أي تلك القلة التي تمسكت بحريتها ولم تجرفها معاول القنية، الذين كانوا أحسن حالاً من الأقنان أو الرقيق. وهم أولئك الفلاحون الذين يزرعون الشرائط التي تحت أيديهم من الأرض مقابل ضرائب سنوية. وما الفرق بينه وبين الـ (أ ذ ي م ت) وأل (أ د ي ن ت)، وما هو وضعه القانوني بالمقارنة مع الـ (ق س د) وأل (ق س ط) الذين لا يحق لهم حمل السلاح، فهل كان يحق له حمل السلاح؟

تلك بعض التساؤلات التي تتبادر إلى الذهن، صحيح أن الدراسات التي تناولت موضوع الرق في مختلف مراحل التاريخ القديم، وخاصة في الشرق القديم، تؤكد أن الرق ساد في مرحلة تاريخية معينة، وأنه كان يتوافق مع متطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذه المرحلة، ومع المفاهيم الأخلاقية السائدة فيها. لكن تقرير مثل هذا الأمر بالنسبة للتاريخ اليمني القديم يحتاج إلى دراسات مكثفة، فرغم عشرات بعثات التنقيب الأثرية التي تعمل في البلاد، ورغم آلاف النقوش اليمنية القديمة التي نشرت منذ زمن بعيد، فإننا لا نجد دليلا أثاريا أو نقشيا واحدا يبين حقيقة تركيب المجتمع اليمني القديم، ومن ثم معرفة الأسلوب الإنتاجي المسيطر، والشكل المسيطر للفائض. وهنا تظهر الحاجة إلى معرفة طبيعة الفائض الذي يعيش عليه المجتمع والذي ينتجه لنفسه، وإلى أي مدى يعتمد هذا المجتمع على فائض تم نقله من مجتمع آخر. ومما له أهمية كذلك معرفة طريقة وشكل توزيع هذا الفائض بين الطبقات

الاجتماعية التي يمكن كشفها وتحديدها من خلال علاقاتها بالأساليب الإنتاجية المختلفة التي تميز هذا التكوين الاجتماعي، وكذلك كشف المجموعات الاجتماعية التي يرتبط وجودها بالطرق المتعددة التي تربط هذه الأساليب الإنتاجية مع بعضها البعض.

إن لغة أهل اليمن في العصور القديمة، كانت ما اصطلح على تسميته باللغة اليمنية القديمة أو المسند أو الحميرية، كما أسلفنا، أما عن لسان أهل العصر فنحن لا نعرف عنه الشيء الكثير، وإن كان الراجح أن غالبية الناس كانوا يتكلمون باللسان المحلي. وهنا نجد صعوبة تتصل بالتاريخ لذلك العصر، فمثلاً لو أن مشادة قامت بين اثنين حول أمر ما، فإنهما كانا يتنازعان طيلة الوقت باللسان المحلي، ولكن عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة تسطر بالمسند على يد واحد من الكتبة المحترفين. وغني عن البيان الهوة السحيقة بين ما يرد إلينا في النقوش وما قد وقع باللسان المحلي، كذلك نصطدم بمشكلة أخرى هي الترجمة من لسان الكلام إلى لغة المكتوب.

صحيح أن مقارنة اللغة اليمنية القديمة ببقية اللغات التي يطلق عليها مصطلح (اللغات السامية) تساعد الدارس على فهم أصول بعض الكلمات والقواعد، وعلى كثير من جذور اللغة ونشأتها وتطورها، ورغم أن هذا الأمر يبدو منطقياً للبعض، إلا أن ذلك لا يعني أنه بالضرورة صحيح.. لكن الباحث في التاريخ محتاج إلى شيء غير التعرف على الأصول والنشوء والتطور في أمر اللغة اليمنية القديمة، إنه محتاج إلى معرفة المجتمع الذي كتب هذه اللغة، فهو يريد معرفة قضايا التطور التاريخي والعلية والسببية الحاسمة والمحددة التي يمكن أن تثار عن مرحلة ملموسة وواقعية في التحليل، وهي مرحلة يمكن أن تفهم وتدرس بوصفها كلاً متداخلاً ومتمفصلاً ينطوي على عناصر تنتمي إلى مختلف أساليب الإنتاج والتفاعلات الدائرة والمتصلة بينهما.

والأرض هي جوهر هذه المسألة، وواضح أن الترجمات المختلفة التي قدمها أهل اللغة لا تسمح للخوض في تفاصيل توضح هذه المسألة. أما الترجمات التي قدمت للمصطلحات المتعلقة بالمنشآت المائية فإنها لا تحدد معنى واضحاً للكلمة السبئية، فتفتح بذلك المجال لعدة دلالات للكلمة، وهذا يعني ترك المعنى الملائم للسياق العام للنقش. بمعنى آخر، فإذا كان أصحاب المعجم السبئي، وهم أساتذة أجلاء ومتخصصون في اللغة اليمنية القديمة، قد رجعوا إلى النص الأصلي في مظانه، ثم قاموا بترجمة الكلمة، فكيف يمكن لمن ليس له خبرة في هذا المجال العودة إلى تلك النصوص الأصلية لاستخراج المعنى الملائم للسياق، وقد عجز المختصون في ذلك... إن النص- أي نص- تعبير عن مفهوم صاحبه، ونقل النص إلى أية لغة تعبير عن مفهوم المترجم، وعندما يعجز المترجم من إيصال المعنى، فإن ذلك يؤدي إلى تعدد المفاهيم وضياع المعنى.

ولست بهاضم لحقوق هؤلاء العلماء، ولا جاحد لفضلهم، إذا قلت أن غيوماً كثيفة تخيم على الحضارة اليمنية، وما نقرأ من معلومات ليست سوى أوتاد متباعدة، وكنا نأمل أن تصبح دعائم يعاد عليها بناء شكل المجتمع اليمني القديم.

فأنا لم أعرف مثلاً الفرق بين (أ ك ف ر) التي ترجمت بفتحة تفريغ الماء و (أ ش ر م ت) التي ترجمت بمنفذ ماء، ولا الفرق بين (ك ل و ي م) التي ترجمت بموزع الماء و (ز و ي ر ن) وترجمت أيضاً بموزع الماء. إن أهمية معرفة معاني هذه الكلمات بدقة يتضح إذا ما أدركنا أن اليمن القديم اعتمد على الزراعة، حيث تفوّق وضع العمل الزراعي على أوضاع الأعمال والمهن الأخرى. بل يمكن أن نذهب بالتحليل إلى أبعد من ذلك ونقول إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الطابع الزراعي للمجتمع اليمني القديم وبين

أعمال الري وتحسين الزراعة. إن المشروعات الكبيرة التي أقامها حكام اليمن القديم إنما كانت مكرسة أساساً لحجز وتوزيع مياه الأمطار، وهي المشروعات التي ما تزال آثارها باقية، كسد مأرب ومجموعة السدود الأخرى المنتشرة بقاياها في أنحاء البلاد. (انظر في ذلك: المعجم السبئي، بيستون، واخرون 1982).

لذلك كله، فإنني أعتقد أن مثل هذه الترجمات لا تتيح للقارئ، خاصة الباحث، المقارنة والتمييز، بل قد تتركه في حيرة وضيق.

إن اللغة، يجب أن تدرس في إطار العلاقة الوثيقة بينها وبين تاريخ المجتمع. ذلك أن اللغة – أية لغة – هي حصيلة اجتماعية، ونتاجٌ للتاريخ الاجتماعي. واللغة، بعد كل تحليل، لا تنطوي على شيء لا يمكن رده بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى تاريخ المجتمع الذي تعيش فيه.

على أنه لابد، قبل كل شيء، من تحديد مدلول الاعتبار التاريخي في إطار علم اللغة تحديداً واضحاً دقيقاً. إن طبيعة الصلات التاريخية بين اللغة والمجتمع، تتغير بحسب الأحوال من ظرف إلى آخر. وعندي أن ثمة أنماطاً ونماذج مختلفة، يتحدد كل منها، قبل كل شيء بالمبدأ ذاته الذي يقوم عليه وينطلق أصلاً منه. ولنتوقف عند نمطين فقط أعتبرهما الأكثر دلالة وتميزاً:

1 – إن الظاهرة اللغوية قد ترتبط بالعوامل التاريخية استناداً إلى مبدأ علاقة عامة مؤداه، أن صفة ظاهرة ما، أو حدثا (تاريخيا)، تحدد حالة مقابلة في الظاهرة الأخرى، أو الحدث الآخر (اللغوي). فالتاريخ يقدم لنا مثلاً نموذجياً من نوع هذه الصلات في العلاقة القائمة بين طبيعة القاعدة الاجتماعية، أو البنية التحتية للمجتمع (القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج الاجتماعية المتوافقة معها) وبين طبيعة البنية الفوقية (الأشكال السياسية والقانونية وأشكال الوعي الاجتماعي). بحيث أن لكل قاعدة، أو بنية تحتية، بناءً فوقياً يتغير، أو يتلاشى في الوقت نفسه لزوال القاعدة. وهذه الصلة مرتكزة إلى مبدأ علاقة عامة، إذ قد يكون من الغريب ومن غير الممكن في الواقع أن نتصور وجود مجتمع يقوم على بنية تحتية عبودية من جهة، وعلى بنية فوقية إقطاعية من جهة أخرى. وفي إطار اللغة، فليس من شك في أن لغات المجتمعات التي تنتمي إلى أسرة المجتمع الأبوي (البطريكي)، كانت أكثر بدائية من اللغات المعاصرة المتطورة.

إن العلاقة العامة المتبادلة بين تطور اللغة وتطور المجتمع تجد، في هذه الحالة، تعبيراً لها في الطبيعة الأكثر تطوراً للغة من حيث غنى معجمها، وتكامل بنيتها الصرفية، وبنيتها النحوية بشكل أخص. بيد أن التغييرات اللغوية، بحسب هذا المبدأ من العلاقة، لا تذهب إلى حد المساس بالنظام الصوتي للغة، ولا تصيب التطور العميق لمعجمها الأساسي.

وابتغاءً للاختصار أقول: إنه لم يعد صحيحاً – وهو لم يكن صحيحاً من أصله- ما يردده البعض، من أن اللغة اليمنية القديمة لم تعرف صيغ الفعل وضمائر المتكلم والمخاطب، بل هناك ثغرات كبيرة في معرفتنا في موضوع الصرف وبناء الجملة. والسبب في ذلك في نظر هذا البعض، يرجع إلى أن النقوش اليمنية القديمة لا تتحدث بغير ضمير الغائب المفرد أو الجمع، فضلاً عن عدم وجود نصوص من الأعمال الأدبية التي تنتمي إلى أنواع شتى: السِّيَر، القصائد الغنائية، الحِكَم، الشعر، قصص الرحلات..الخ كما هي الحال في الحضارات الشرقية الأخرى. (بستون، 1992، 9، بيستون، 1995، 7، إسماعيل، 2000، 48، Hofner، 1976، 31f).

لقد اتضح بطلان هذا القول، منذ اكتشاف النقوش الخشبية (الزبور) التي بلغ عددها حتى الآن ما يزيد على 7 آلاف نقش، مقابل

12 ألف نقش مسندي مكتوب على الحجر أو البرونز أو ما شابه ذلك، وكلها منشور، بينما لم ينشر من النقوش الخشبية سوى 30 نقشاً فقط. تتحدث هذه النقوش الخشبية أيضاً بضمير المتكلم وبصيغة الفعل المضارع وفعل الأمر، وفيها الكثير من المفردات والتعبيرات، أي أنها إضافة لغوية هامة إلى اللغة اليمنية القديمة. (ريكمانز جاك، واخرون، 1994، 14)، أما بالنسبة للأدب فقد تم نشر ما سمي بترنيمة الشمس، وهو نقش يمني قديم، يقوم مبناه ومعناه على أسس فنية معلومة كأي نوع من أنواع الأدب الجميل كالشعر والنثر، اتضح أنها أنشودة دينية ذات نسق نغمي معين ينتهي بالقافية. وقد صاغ هذا النص شعراً باللغة العربية الشاعر العربي الكبير/ سليمان العيسى (العيسى، 1989، 7) وهناك نص أدبي آخر سمي أنشودة المطر أو الاستسقاء نشر عام 1978، لكن للأسف الشديد لم ينقل بشكل جيد (بافقيه روبان، 1978، 11 وما بعدها). والحقيقة أن هذا الأمر متوقع من حضارة سامقة كالحضارة اليمنية القديمة، أما قلة النصوص الأدبية في النقوش التي وصلت إلينا، فيمكن إرجاعه إلى غياب التنقيب الأثري المخطط، ومن ثم عدم العثور على نصوص أدبية، فهذا لا تخلو منه الأمم المتحضرة عادةً. إذ بمقدار ما كان المجتمع يتطور ويتسع نطاق الكتابة، ويزداد الذين يستخدمونها، بمقدار ذلك كانت تتكون لغة أدبية.

ونسارع هنا إلى القول، يجب ألاّ نغفل لحظة واحدة، كون اللغة هي ظاهرة اجتماعية مرتبطة بالوضع التاريخي الاجتماعي لأي شعب، وليس ثمة إمكان لوجود أية لغة خارج نطاق المجتمع. وأن الكتابة، هي وسيلة رديفة ومتممة للتواصل بين الناس تستعمل لنقل اللغة والاحتفاظ بها عبر المكان والزمان. ومن هنا فاللغة هي شرط واجب وضروري لوجود المجتمع، في حين أن الكتابة لا تجسد هذا الشرط، أو أنها، بالأحرى، تصبح شرطاً في مرحلة معينة لتطور المجتمعات، وذلك عندما يتعاظم حجم المجتمع، وتتسع رقعته في المكان، ويتمركز ثباته في الزمان. على أن المطلع على المناهج المستخدمة في دراسة اللغة اليمنية القديمة وبالتالي الحضارة اليمنية، لا يجد شيئاً من هذا.

فالواقع المؤكد هو أن محاولة الربط بين هذه أو تلك من التحولات الصرفية على أساس المقارنة مع اللغات السامية، أو التغييرات التي تطرأ على المصادر والجذور، أو بين هذه أو تلك من الظواهر الصوتية اللغوية الخاصة، لا يمكن أن تقدم لنا بحد ذاتها شيئاً جوهرياً لدراسة العلاقة بين اللغة وتاريخ المجتمع. وفي الحقيقة ماذا نستطيع أن نعرف أكثر عندما نكتشف في أي وقت معين قد حدثت ظواهر لغوية مثل التشابه الإعلالي assimilation أو الترخيم اللفظي Syncopate أو مثل التلفظ ببعض الحروف الساكنة والحروف المصوتة واختصار النطق ببعض مجموعات الحروف الساكنة وغيرها؟ إننا لن نكون في الواقع أكثر استنارة لمجرد أننا استطعنا رد الأنماط النموذجية المختلفة التي تحدث في اللغة إلى أصولها.

2 - إن علاقة التاريخ باللغة، والتاريخ بالمجتمع، تتحدد بكون اللغة تعكس الصفة النوعية لتاريخ المجتمع. ومن هنا فإن وجود عدد وافر من مفردات اللغة اليمنية القديمة في اللغة الجعزية – الحبشية القديمة- ومن ثم في الأمهرية والتجرية والتيجرينية المعاصرة – يمكن تفسيره على أساس التأثير العميق الذي مارسه المهاجرون من بلاد اليمن في العصور القديمة. كما أن اشتمال معجم اللغة الإيرانية المعاصرة على دخيل ذي شأن من أصل عربي يعود مباشرة إلى تأثير الإسلام والثقافة العربية.

على أن هذين النمطين من العلاقة أبعد من

أن يكونا الوحيدين من الأنماط التي تؤكد ما ذهبنا إليه، إلا انهما، ولاريب، من أكثر الأنماط دلالة وأشدها نموذجية.

بمعنى أوضح، وكما هو معروف، إن كل لغة من لغات البشر تتضمن حقولاً ثلاثة محددة بدقة ووضوح: الأول هو البنية الصوتية، والثاني هو التركيب الصرفي والنحوي، والثالث هو معجم المفردات/ التركيب المعجمي.

وعلى ضوء ما سبق الإشارة إليه، فإن التطور الصوتي للغة ما، يعبر عن نفسه في صور عامة بتعبيرات نوعية تصيب بعض الأصوات، أو مجموعات من الأصوات. وبحلول بعض القوانين الصوتية محل غيرها، وباختفاء بعض الأصوات، أو مجموعات من الأصوات، وظهور أصوات، أو مجموعات من الأصوات الجديدة. وحتى لا نطيل، نرانا هنا مضطرين إلى الإقرار بأن الصورة العامة للنظام الصوتي في أي لغة من اللغات، لا يمكن أن يكون مرآة لأي عصر من العصور. إن التاريخ لا يعرف نموذجاً من اللغات عاش في ظل نظام اقتصادي ما وكانت صوتية مختلفة عن تلك التي تداولتها الألسن في ظل نظام اقتصادي مغاير آخر، من حيث بعض الصفات النوعية لنظامها الصوتي. فليس ثمة أنظمة صوتية خاصة بلغات القبائل ، والشعوب، والأمم. وما نشاهده من ضروب التغير في لفظ الحروف المعتلة، أو الحروف الساكنة، يمكن أن يحدث في كل العصور والمراحل، مهما يكن حال المجتمع وطبيعة نظامه.

أما دراسة الصّلات بين البنية الصرفية للغة، وتاريخ المجتمع، فهي في صورة خاصة دراسة محفوفة بالصعوبات. غير أنه يمكن القول، إن التغييرات التي تصيب البنية الصرفية يمكن أن تنشأ عن العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية على السواء. وفي هذا القسم الأكثر اتساعاً، والأوفر مرونة وطواعية من أقسام اللغة، تفعل ظاهرات الحضارة فعلها المباشر، ومن دون إبطاء ملحوظ، في التغييرات المتعلقة بالمعاني. إلا أن التطور الصوتي هو الذي يقولب شكل الألفاظ، في حين أن التطور الصرفي يؤثر في استحداث التعابير أو إزالتها.

على أن من خصائص المعجم المرتبط بقابلية الجذور للتكيف، خاصة الاقتباس والمقايضة. فالكلمات، أو مدلولاتها، تتقايض المعاني والألفاظ داخل اللغة الواحدة، كتلك المقايضة التي تحدث بين فئة وأخرى داخل المجتمع الواحد. وهكذا مثلاً كلمة "يَمّ" في لغتنا العربية التي حلت محلها كلمة "البحر"، مع أنها تعني "النهر" في اللغات السامية أكثر من البحر المعروف في عصرنا، لأن البحر بصفته عندنا هو "يم" في العربية وهي كلمة سامية قديمة، ويقابلها في العربية "الجَمّ" الذي ذهب إلى الكثرة مطلقاً، وإبدال كلمة مَرْسَى، وهذه سامية، وهي من "الرسوّ" في العربية، بكلمة "ميناء"، وإبدال كلمة "نوتي" وهذه أيضاً سامية قديمة - وليست يونانية كما ذهب البعض - وهو الملاح في البحر خاصة، بكلمة "بحّار"، وغيرها كثير.

لكن قد يكون من الخطأ الجزم بأن ليس ثمة علاقة بين البنية الصرفية للغة وتاريخ المجتمع التي يتداولها ، على أن من المهم جداً هنا تحديد العناصر الكامنة في تاريخ المجتمع، والتي يمكن إقامة الصلة بينها وبين المتغيرات الصرفية والنحوية. ثم إن التطور العام للبنية الصرفية وتكاملها، في لغة من اللغات، يتصلان بمجمل التجربة التاريخية للمجتمع بكليتها. وهما حصيلة تعاقب عصور تاريخية تغوص في أعماق الماضي. وأخيراً يجب الا ننسى، أن القواعد الصرفية والنحوية، على صلابتها، تظل في وضع من الاستقرار غير ثابت نهائياً، وذلك لأنها ليست - على العموم- مستندة إلى منطق عقلاني في تكوينها وبنائيتها. وهي إلى ذلك تسند أصلاً، في جملة ما تستند إليه ، على جوانب من أنظمة قواعدية لغوية سابقة. يمكن أن تستمر وتصمد إلى ما لا نهاية في الصيغ

الأكثر شيوعاً واستعمالاً، والتي لا تستدعي من الذاكرة أي عناء، أو على العكس في الصيغ نادرة الاستعمال التي تظل في منأى عن أي تغيير أو تبديل.

إنه لمن الأيسر، في حقل المفردات، إقامة الصلة بين الظواهر اللغوية، وتاريخ المجتمع. ذلك أن ثمة إمكانات متعددة للربط المباشر والصحيح بين تلك الظاهرة اللغوية، وذلك العنصر من التاريخ. ففي معالم اللغة تطالعنا في أشكال متفاوتة من الدقة، آثار باقية من تاريخ المجتمع على امتداده، بدءاً من الأزمنة السحيقة في القدم.

هكذا مثلاً نجد كلمة "بطن" في العربية التي تستعملها إلى اليوم بمعنى العائلة أو القبيلة، هي واحدة من الأدلة الواضحة على شيوع نظام الأمومة عند العرب قبل استحكام نظام الأبوة عندهم. وقد بان لمن بحث بهذه المسألة أن الأمومة أقدم عهداً من الأبوة.

والبحث في الأصول الاشتقاقية لمعجم المفردات في اللغة اليمنية القديمة - أو أي لغة قديمة - يتيح لنا القول بوجود زراعة على جانب مرموق من التقدم في اليمن القديم، انظر المفردات: (أ ك ل) بمعنى غلال الحبوب، (ع ل ص) بمعنى غلال الزرع، (ب ر ر) بمعنى بُرّ، حنطة ، (ج ذ ذ) بمعنى ذرة، (ح ب ب) بمعنى حبوب، (د ب ل) بمعنى كتلة من تمر، (ن خ ل) بمعنى نخيل/بستان، (ف ق ل) بمعنى غلال ، (ف ر ع) بمعنى باكورة غلة، (د ق ق) بمعنى دقيق، (ط ح ن) بمعنى طحين، (ح ر ض) بمعنى رغيف، (م ي ر)بمعنى بيع حبوب، (و ي ن/ ع ن ب) بمعنى كرم عنب، (ض ر ع) بمعنى عنب أبيض كبير الحَب، (ع ل ب) بمعنى شجر العلب...الخ. ودراسة المفردات تعلمنا أيضاً أن أسلافنا عرفوا تطوير تربية المواشي، انظر المفردات، ص ب ي/ ظباء (جمع ظبي)، ظ ب ي / ناقة (فتيّة) (ط ل ي) طليّ - خروف ابن عامه، (ع ن ز) ماعز (اسم جمع)، (ب ق ر) بقر، (غ ن م) غنم، (ض أ ن) ضأن، (ق ر ض) كبش، (ق ط ع) قطيع من الضأن والماعز، (ب ع ر) ماشية - أنعام - بعير، (غ ر ض) ذبح (حيواناً للإطعام)، (ج ب هـ) فرس (أنثى) ، (ج م ل) جمل، (ج و د) جواد، (ن ح ر) حصان قتال مدرب، (ع ي ر) قافلة - عير ، (ب غ ل) بغل، (ب ك ر) جمل فتي...الخ.

والذي يطالع الفارق بين جذر الفعل (وَصَلَ) في اللغة العربية، ففي اللسان العربي: أطعمت الغصن، وصلت به غصناً من غير شجرته، فقبل الوصل (الزمخشري، 1979، 280)، وبين التشعيبات العديدة التي آلت إليها اشتقاقاته المختلفة في اللغة العربية المعاصرة، يدرك بلا عناء، صحة ما ذهبنا إليه من أن تطور مختلف أشكال وميادين النشاط البشري، يعبر عن نفسه بتطور معنى الألفاظ ودلالاتها.

إذن ، فألفاظ مثل (ع ب د) عبد، (ح و ر) مولى، (ح و و ، ح و) عبيد أقنان، لابد أن يكون لها مفاهيم في ثقافة المجتمع الذي أنتجها، ولا يزال الدال اللغوي الذي يشير إليه لفظ (ع ب د) مستعملاً في اللغة رغم أن النظام الاجتماعي والاقتصادي الدال عليه في أصل الاستخدام اللغوي وحقيقته لم يعد له وجود. إن هذه المعاني/ المفاهيم التي وردت في المعجم السبئي تمثل الدلالة التاريخية للنقوش، فهي بالتالي ذات طابع تاريخي، كما أنها تؤكد بعدها الاجتماعي الذي يؤدي إهداره إلى إهدار دلالات النصوص ذاتها.

علينا أن نشير هنا كخلاصة، إلى وجوب اعتبار الأشياء ضمن إطار مجموعتها الكلية، وذلك يعني بالنسبة إلينا، وجوب مواجهة اللغة ضمن مجمل الحياة الاجتماعية. ووجوب العمل، عند دراسة إحدى الظاهرات اللغوية المتعددة، على مواجهة هذه الظاهرة من ضمن مواجهتنا للنظام اللغوي ككل.

بيد أن لنا هنا ملاحظات موجزة نبديها حول بعض الأمور الملحة. وفي مقدمتها أن معرفة البنيات يجب أن تتسع لتشمل النواحي

التي ظلت مهملة، نعني بها علم دلالات الألفاظ. وسوف يفضي بنا ذلك إلى دراسة العلاقات بين اللغة والمجتمع، دراسة لن تكون إخفاقات بعض المناهج القديمة فيها، إلا باعثاً مشجعاً على المضي في البحث عن حلول جديدة، ضمن ظروفنا وإمكاناتنا الراهنة.

على أية حال، فإن هذه الملاحظات لا تقلل الجهد الذي بذله العلماء، الذين أخرجوا المعجم السبئي، راجياً أن يتسع صدر من بقي منهم على قيد الحياة، ومثلهم جديرون بذلك، ولا نية لي من ملاحظاتي هذه سوى التنبيه لاستكمال ما ينقص الكتاب، من وجهة نظري، فإذا وافقوني عليها فبها ونعمت، وإذا لم يوافقوني أكون قد اجتهدت بغية الوصول إلى الصواب وكمال النفع والفائدة.

إذاً فنحن أمام قضية متشابكة الأفرع ومعقدة للغاية، لأنها في حقيقة الأمر محصلة تطورات كثيرة، لعل أبرزها هي حقيقة تحطم السلطة المركزية الذي بدأ مع الحملة الرومانية على عاصمة الدولة مأرب عام 24/25 ق.م.

وما تبع هذا من انهيار في دواليب الإدارة. وقد استتبع هذا الإنهيار أن قام بعض الأفراد الأقوياء باغتصاب امتيازات كانت وقفاً على الدولة فيما سبق إلى أيديهم، وقام هؤلاء الأقوياء بالاضطلاع بما عجزت الدولة عن القيام به من واجبات. وهكذا صارت إدارة شئون الولايات في أيدي الأقيال والأذواء، الذين كانوا في البداية رفقاء للملك ثم أصبحوا نواب له يحكمون الولايات باسمه، غير أن ضعف قوة الملك ساعدهم من أن يحكموا لصالحهم متجاهلين سلطته.

إنني أعتقد أن الانهيار الذي أصاب الحضارة اليمنية القديمة يمكن كشفه في ثنايا بنيان المجتمع اليمني القديم، الذي يبدو أنه كان منقسماً إلى عدة طبقات وفئات، بدليل وجود هذه الكلمات الكثيرة التي لا نعرف على وجه اليقين مدلولاتها.

وأتت الديانتان اليهودية والمسيحية لتكمل حلقات هذا التصدع. لقد تعرض الشعب اليمني لتأثير تلك الديانتان اللتان تداولته بسرعة في فترة قصيرة، وكانت جميعاً تمتلك الحماس والحيوية. ومما لا ريب فيه أن الوثنية القديمة في اليمن قد تعرضت لضربات عنيفة من هذه الديانات. والاحتمال كبير، في أن القيم الوثنية قد تلطخت سمعتها وأن مثل هذه التبدلات المتتالية في الأديان قد تركت اليمنيين في حالة ضياع فكري وبدون أية قيم ومعتقدات واضحة يهتدون بها ويرجعون إليها. ومن الجلي أن فتوراً قد خيم على ثقافتهم القديمة التي شاخت، بحيث لم يكن بمقدورها مواكبة الحياة الجديدة أو الاستجابة لمطالبها واتجاهاتها.

وكما أشرنا آنفاً، بأن ضعف الدولة المركزية، كان عاملاً من عوامل عدم الاستقرار السياسي، كما أنه كان من عوامل تلك الحروب الطاحنة التي شهدتها البلاد لقرنين. ونضيف هنا بأن الطبقة العليا انشغلت بطموحاتها الخاصة، فاهملت صيانة السدود وقنوات الري وتوقفت عن القيام بدورها في تنمية قوى الإنتاج وتطويرها. أي توقفت عن دورها في الاهتمام بالأشغال العامة. سواء باستصلاح الأراضي وبناء الحواجز والسدود وتطوير أقنية الري.

لقد أدى فقدان اليمن للثروات التي كانت تجنيها من التجارة البرية وا لبحرية – نتيجة لاكتشاف مواسم الرياح- إلى إصابة المجتمع بالانقسام الأميبي الداخلي. لقد حال ذلك الخسران للثروات التي كانت تملكها «الحكومة» دون إحكام سيطرتها وقبضتها الداخلية. إذ لم يعد بمقدورها أن تكتل الطاقات البشرية في سبيل مشاريع احتكارية ضخمة (سد مأرب... أو التجارة البرية والبحرية) وبانهيار تلك المشاريع وجدنا أنفسنا إزاء وضع يرتد بنا إلى ما يشبه حالة المنافسة الفردية بين المشروعات الصغيرة؛ فإذا بالمجموعة البشرية اليمنية تتقسم فيما بينها اقتتالاً وحرباً وانتهاباً لبعضها البعض في سبيل أن يوفر كل جزء منها

أسباب الرزق على حساب الآخر.

وحين انهزمت اليمن على يد الأحباش في عهد ذو نواس (ي س ف/ أس أر/ ي ث أر، في النقوش) كانت الجبهة المعنويةالداخلية في حالة تمزق شديد. لقد فرضت الديانة اليهودية فرضاً على الشعب اليمني، ولقد تأزم الموقف على نحو أشد في السياسة العنيفة التي أقدم عليها ذو نواس مع نصارى نجران، وارتد عليه بأوخم المواقب وأفدحها، وكلفته عرشه ووطنه وحياته. ومهما كانت النصرانية أقلية في اليمن إلا أن ذلك يدل على تماسك داخلي شديد فيما بينها يدفعها إلى الصمود والتفاني والتضحية، فضلاً عن أنه يدفعها إلى الاحتمال لتصور لجوئها إلى نوع آخر من المواجهة. أستطيع القول، أن تلك المجزرة قد شدت العزم لديها ولدى بقاياها فلجأت إلى النضال السري واستمرارية اتصالها بالخارج (بيزنطة والحبشة) والحفاظ داخلياً على بعث الدعوة سراً، واللجوء إلى المطاولة والالتفاف وبث التحريض على السلطة وتأليب الخصوم على ذي نواس وإذ يدخل ذو نواس في عملية مواجهة مع الغازي الحبشي، فإن ظهره كان مصاباً بأوجاع وآلام وتصدع في حلقات عموده الفقري (Fell 1881, Smith 1954,Kammerer1926) (Ryckmans1956.

لقد جهل ذو نواس الأسلوب الحربي أو العسكري الذي كان ينبغي أن يتبع في مواجهة الغازي الحبشي، حيث كانت الدولة اليمنية في ظل سيطرتها على الموضع والموقع تملك المقدرة الحربية البحرية والبرية، وبذلك كانت في الفترات التي بلغت فيها السيطرة على الموضع أوج القمة والقوة، تدير عجلة الحرب البحرية والبرية على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية فتبلغ سيطرتها حتى الخليج. ومن الدراسات ما يشير إلى امتداد سيطرتها بعيداً في أفريقيا (انظر: Huntingford 1980,99 وقارن: Glaser 1889 I, Glaser 1890 II, Rodinson, 1957, Pigulewskaja 1969 ،

Altheim - Stichl 1964 I ,1965II, 1966 III, 1967 V/I, 1968 V/2, WIssmann 1964 B, Idem 1975 I, 1982 II

.Lewis 1950, Sourdel 1976 .

لم يدرك ذو نواس والطبقة الحاكمة هذه المتغيرات الجديدة، فذهب بعدده وعدته إلى الساحل لمواجهة الجيش الحبشي، وكان ذلك خطأ وأي خطأ في ظل التغير الجديد في مكانة اليمن.. فخسارة الموقع- وهو هنا فقدان السيطرة على البحر وعدم القدرة على حماية طريق القوافل- كان يعني أن تذهب بدباباتك للقتال في العصر الراهن دون غطاء جوي. أريد أن أقول، إنه لو أن اليمن ظلت تملك القوى البحرية لكان اللقاء البحري في البحر في البداية، وذلك أمر كان قد خرج عن أيدي اليمنيين... وإذا كان ذلك قد حدث فإن اللقاء في السهل كان يعني أن تحسم الحرب بمعركة واحدة. أما القتال في الجبل، فلا تحسمه معركة واحدة وسريعة، ولم تكن التجربة قد قدمت لليمنيين وعلى رأسهم ذو نواس ضرورة الاحتفاظ في الجبل بالقوة الأساسية- كما حدث أثناء الصراع مع العثمانيين فيما بعد- والاكتفاء بالمناورات على الساحل استدراجاً للجيش الحبشي إلى ميدان يجد نفسه فيه عاجزاً وخاسراً. (انظر: الطبري 1987 جـ2، ص201 وما بعدها، ابن هشام 1936 جـ1، ص422، نشوان 1378هـ ص149).

وفقدان اليمن لسيطرتها على الموضع، أدى إلى انهيار السلطة المركزية الذي ترتب عليه ضعف داخلي تمثل بظهور مراكز قوى مستقلة في البلاد كان يديرها الأقيال أو الأذواء بعيداً عن السلطة المركزية. فقد حاول ذو نواس على الرغم من تردي الأوضاع الداخلية أن يوحد البلاد من أجل مقاومة العدو، فكتب إلى الأقيال يدعوهم إلى مظاهرته وأن يكون أمرهم في محاربة الحبشة، ودفعهم عن بلادهم واحداً، فأبوا وقالوا، ليقاتل كل رجل عن مقولته

وناحيته، على حد تعبير الطبري (1987) جـ2، ص219) وهذا يفسر لنا أن الرجل لم يعد (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم في الطود والتهائم) كما كان الحال في الفترة السابقة، بل هو، كما جاء في النقوش التي وصلت إلينا وتذكر اسمه (ملك كل أشعبن) أي كل القبائل (Ry507, RY 508, Ja 1028).

وقد كان على ذي نواس لكي يحقق النصر أن يتبنى خطة عسكرية جديدة في ظل حالة تغيرت فيها الظروف، حالة جديدة فقدت فيها اليمن سيطرتها على الموضع فتفككت أوصالها داخلياً، وفقدت سيطرتها على الموقع تدريجياً، واستمر هذا التضعضع بحيث فقدت إمكانية المواجهة البحرية وهو الأمر الذي كان يمكن أن يشكل ما يشبه الغطاء الجوي للسلاح البري في عصرنا الراهن.

وبصدد الحديث عن الجانب العسكري، فليس لدينا الإلمام الكافي بنوع الأسلحة التي حازها الطرفان: اليمني والحبشي باستثناء الأسلحة التقليدية التي كانت في ذلك العصر. لكن الذي ليس مجهولاً هو أن الأحباش قد استخدموا الفيلة وكان ذلك بالتعبير المعاصر سلاحاً ثقيلاً جباراً، أنزل باليمنيين فعله لا فقط التدميري ولكن أيضاً بما أحدثه من إرهاب معنوي، ورغم تشابه تضاريس كل من الحبشة واليمن، فلم يكن يعني ذلك أن اليمن قد عرفت هذا النوع من العتاد الذي يعتقد بعض الدارسين بأنه انقرض عن اليمن في أوائل عصر الصيادين، وهو يعادل العصر الحجري الحديث (النيوليت) في منطقة الهلال الخصيب، ويؤرخ بين 8000 وحتى 7500 ق.م. (Muller 1974.31-42 وقارن Anati 1968).

هل كان ذو نواس إذاً آخر ملوك اليمن المستقلين؟ انقسم الأخباريون كعادتهم في الإجابة على هذا السؤال إلى مجموعتين: واحدة ترى أنه آخر ملوك حمير (الطبري 1987 ص119) وأخرى تذكر أن النعمان بن عفير هو الذي قام باليمن بعد ذي نواس (الهمداني 1980 ص242-243) ولكن النقوش المسندية تحدثنا عن ملك اسمه (سميفع أشوع) على أنه ملك سبأ بعد ذو نواس (Istnbul 7608bis+ RES 3904).

وكيفما كان الأمر، فإن الثابت تاريخياً أن هذه الحرب قد انتهت باحتلال الحبشة لليمن، الأمر الذي يؤكد عدم قيام ملك يمني مستقل، وحتى سميفع أشوع هذا كان تابعاً، فرغم أنه حمل اللقب الملكي الطويل (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم طودم وتهامة) كما في النقش Istnbul 7608bis فهو يذكر في نفس النقش أنه عاقب أو نائب لنجاشي أكسوم، بمعنى آخر فقد كان ملكاً صورياً وهو من متنصري اليمن من الأقيال. ولعل الخلط في الأسماء، إنما نتج للارتباك الذي ساد الوضع الداخلي. ويبدو أن أبرهة الطموح، الذي كان يرى الدنيا شاه من ظفر بها افترسها، قد انفرد بالسلطة الفعلية في اليمن، وجعل الملك محصوراً في عائلته وذويه. ولقد أثار بتصرفه هذا حقد الأقيال الذين كانوا يرون في أنفسهم ورثة شرعيين لحكم جزء من اليمن تحت حراب الأحباش.

ومنذ ذلك التاريخ دخلت اليمن في طور جديد من تاريخها خضعت فيه لحكم الأحباش، إلى أن يلجأ أحد الأقيال- وتسميه الروايات العربية بسيف بن ذي يزن- إلى إمبراطور بيزنطة (وطلب إليه أن يخرجهم عنه، ويليهم هو، ويبعث إليه من شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن... فلم يجد عند ملك الروم ما يحبه ووجده يحامي عن الحبشة لموافقتهم إياه في الدين) (الطبري، 1978، جـ2 ، ص232، 236)، فيلجأ سيف إلى كسرى فارس- العدو الرئيسي لبيزنطة- فينجده هذا بجيش قوامه ثمانمائة سجين ثم حملهم في ثمان سفائن، غرقت سفينتان منها في البحر ووصلت إلى ساحل عدن ست منها، فيها ستمائة رجل، فيهم سيف. وهكذا استطاع أن

يتربع على العرش في حوالي 576م، حاكماً صورياً على اليمن، تحرسه حراب الذين أطلق عليهم المؤرخون لفظة الأبناء فيما بعد، لكن هذه الحراب، كما تذهب الروايات العربية، لم تنقذه من انتقام الأحباش، فخر صريعاً بأيدي عبيده من الحبشة. وبقتله- كما يقول ابن خلدون- آل ملك العرب، وسلطان حمير، إلى الفرس (بعد أن كانوا يزاحمونهم بالمناكب... ولم يبق للعرب في الملك رسم ولا طلل إلا أقيال من حمير وقحطان في أحيائهم بالبدو ولا تعرف لهم طاعة، ولا ينفذ لهم في غير دارتهم أمر) ابن خلدون 1960، مجـ2،ص125).

وكثيراً ما يعزى سقوط الحضارة اليمنية إلى انفجار سد مأرب. ولكن الواقع- كما أسلفنا- أن عدة عوامل قد تشابكت خلال الثلاثمائة السنة الواقعة بين القرنين الرابع والسابع الميلادي مما أدت تدريجياً إلى أفول الحضارة اليمنية القديمة وسقوطها، وأول تلك الأسباب بلا مراء كان الوضع الاقتصادي وذلك من جراء فقدان اليمن للموضع والموقع... لا شك أن فقدان اليمن لتلك التجارة الرئيسية قد قطع ورود الثروة إليها وبالتالي عزلها سياسياً واقتصادياً عن مراكز الحضارات الأخرى في حوض البحر المتوسط، ثم كنتيجة حتمية أفقدها حركة التواصل والتأثير والتأثر في الأفكار والقيم الحضارية المشتركة. لقد أهملت أعمال الري الرئيسة بسبب ما طرأ من تبدل وتفسخ على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إن التفسير المنطقي لانهيار السد هو التمزق في الحالة الاجتماعية الذي أعاق إجراء عملية الصيانة الضرورية. وهناك أيضاً العامل الديني الذي ساعد كثيراً وعجل الخطى للوصول إلى تلك الأوضاع المتردية.

وهكذا انهارت الدولة اليمنية، ولم يكن خوض ذو نواس بحصانه البحر حتى بلغ ضحضاحه (الطبري، 1978، جـ2، ص217-218) إلا الرمز القوي للدلالة عن قرص الشمس الذي نراه مع الغروب يغرب في البحر رويداً رويداً، فإذا الظلمة قد غمرت المكان، ومن يومها أصيبت المجموعة البشرية اليمنية داخلياً بالانقسام الأميبي حيث فقدت سيطرتها على الموضع والموقع معاً، وانعدمت أو شحت موارد الرزق، فلم يبق لليمني إلا أن يبحث خارجياً عن مورد للرزق... إن التراجيديا اليمنية ومفتاح الشخصية اليمنية ليتبدى منذ تلك اللحظة في صعود زمني ما زلنا نحياه حتى الآن، وحيث لم يعد بمقدور المقدرة الحربية أن تطوع الخارج لصالح الداخل، تحولت تلك المقدرة الحربية اليمنية إلى عملية توظيف دائم من الداخل لصالح الخارج...

قائمة المختصرات:

CIAS Corpus des inscriptions et antiquites sud- arabes

CIH Corpus 1889,1911,1929

GL مجموعة نقوش جلازر

Ir مجموعة نقوش الإرياني

Ja مجموعة نقوش جام

M Garbini 1974

Mafray Mission archeologiaue Francaise en R.A. du Yemen

Nami مجموعة نقوش نامي

RES

Ry نقوش ريكمانز

المصادر والمراجع العربية:

- إسماعيل، فاروق (2000) اللغة اليمنية القديمة، تعز.
- الأصطخري، ابي إسحاق إبراهيم (1961) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالله، القاهرة.
- الأنصاري، عبدالرحمن (1999) ماسل (مطبوعة علمية تصدرها لجنة دراسة الكتابات العربية القديمة في قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود) الرياض.
- بافقيه، روبان (1978) نقوش محرم بلقيس، مجلة ريدان، العدد1، ص11-56.
- البكري، أبو عبدالله (1945) معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة.
- باويرج، م.، وآخرون (1984) تاريخ اليمن القديم، ترجمة أسامة أحمد، عدن.
- بوركهارت، فوكت (2003) حضارات مجهولة سادت على خليج عدن: منذ حقبة الركام الصدفي في العصر الحجري حتى ظهور مدينة صبر في العصر البرونزي المتأخر، نشر في (25 عاماً حفريات وأبحاث في اليمن 1978-2003) المعهد الألماني/ قسم الشرق/مكتب صنعاء.
- بيستون أ (1992) قواعد العربية الجنوبية، ترجمة الدكتور/خالد إسماعيل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.

(1995) قواعد النقوش العربية الجنوبية، ترجم رفعت هزيم وآخرون، اربد، الأردن.

(1982) المعجم السبئي، لوفان/ بيروت.

- الحبيشي، حسين علي (1992) اليمن والبحر الأحمر، بيروت.
- حمدان، جمال (1981) شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، القاهرة، 4مجلدات.
- ابن حوقل، أبي القاسم (1938) كتاب صورة الأرض، ليدن، الطبعة الثانية/ القسم الثاني.
- ابن خلدون، عبدالرحمن(1957) كتاب العبر، الكويت.
- ابن خردانبة، أبو القاسم (1889) المسالك والممالك، باعتناء ذي غويه، ليدن.
- الدمشقي، شمس الدين (1865) كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطرسبورغ.
- دي ميجرت ، اليساندرو (1999) التنقيبات الإيطالية في يلا..... ترجمة منير عربش، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ومعهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي ، صنعاء/ إكس – إن – بروفانس.
- دينكن، ميشل (1981) معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد حسن، بيروت.
- ريكما نزجاك، وآخرون (1994) نقوش خشبية قديمة من اليمن، لوفان.
- الزمخشري، محمود بن عمر (1979) أساس البلاغة، بيروت.
- الطبري، محمد بن جرير (1987) تاريخ الرسل وا لملوك، بيروت.
- سليم، حسن (2000) موسوعة مصر القديمة، القاهرة.
- الشيبة، عبدالله حسن (1991) محاضرات في تاريخ العرب القديم، القاهرة.

(1999) دراسات في تاريخ اليمن القديم، تعز.

- الظفاري، جعفر (1971) مسألة الوجود الفارسي، عدن.
- عمر ، أحمد سلطان (1970) نظرة في تطور المجتمع اليمني، بيروت.
- العيسى، سليمان (1989) ترنيمة الشمس، صورة من الأدب في اليمن القديم، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.
- القزويني، زكريا بن يحيى (1960) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت.
- كريستوفر، أيينز (2001) جنوب شبه

الجزيرة العربية في العصر الجيولوجي الحديث (الهولوسين) : الاكتشافات الأثرية الأخيرة، نشر في (دراسات في الآثار اليمنية – من نتائج بعثات أمريكية وكندية) المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، صنعاء.

- كشار، عز الدين (1984) لمحات من تاريخ اليمن القديم، عدن.
- لقمان، حمزة (1972) تاريخ الجزر اليمنية، بيروت.
- ماكوريستون، جوى (2001) المستوطنات المبكرة في حضرموت، تقرير أولي عن مستوطنة من عصر ما قبل التاريخ في شعب منيدر، نشر في (دراسات في الآثار اليمنية – من نتائج بعثات أمريكية وكندية) المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، صنعاء.
- محسن، محمد صبري (1980) الجزر العربية الرئيسية في البحر الأحمر، مجلة المستقبل العربي، العدد 16، بيروت، ص112-118.
- المسعودي، أبي الحسن علي (1973) مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت.
- مقبل، سيف علي (1977) حول أسلوب الإنتاج في اليمن القديم، مجلة الحكمة، العدد 56، السنة السادسة، ص28-34.

(2003) الصراع السياسي في اليمن القديم، القرن الرابع- القرن السادس الميلادي، صنعاء.

- موسكاتي، سبتينو (1986) الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، بيروت.
- المقدسي، محمد بن أحمد (1906) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن.
- نشوان، بن سعيد الحميري (1378هـ) ملوك حمير واقيال اليمن، تحقيق علي المؤيد وإسماعيل الجرافي، القاهرة.
- ابن هشام (1936) السيرة النبوية، القاهرة.
- الهمداني، أبو محمد الحسن (1974) صفة جزيرة العرب، تحقيق القاضي محمد علي الأكوع، الرياض.

(1980) الإكليل، جـ2، تحقيق القاضي محمد علي الأكوع، بغداد.

- ويلكنسون، ج(2001) آثار المرتفعات اليمنية، تسلسل زمني تمهيدي، نشر في(دراسات في الآثار اليمنية من نتائج بعثات أمريكية وكندية) المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، صنعاء.
- ياقوت الحموي (1866) معجم البلدان، تحقيق فستنفلد، لايبرج.
- يحيى، جلال (1962) البحر الأحمر والاستعمار، القاهرة.
- اليعقوبي، شمس الدين (1860) كتاب البلدان، ليدن.

المراجع الأجنبية:

- Albright W.F.(1949)Von der steinzeit Zum Christentm.Bern.
- Anati E. (1968) Rock Art in Central Arabia (Bibliotheque du Museon, vol. 50, Louvain.
- Al-Sheiba A.H (1987) Die Ortonamen in den altsudarabischen Inschriften, Mainz.
- Altheim F.Stiehl R. (1964) Die Araber in der alten Welt, I, Berlin.
- (1965) Die Araber in der alten Welt, II, Berlin.
- (1966) Die Araber in der alten Welt, III, Berlin.
- (1967) Die Araber in der alten Welt,

التعليم في عدن

خلال مدة ما قبل الاستقلال من سنة 1839حتى 1967م

أ.د. بدر سعيد علي الأغبري
كلية التربية – جامعة صنعاء

أولاً: مدخل للموضوع:-

مدخل:-

الموقع / المساحة / السكان والتعليم :-

قبل التحدث عن التعليم في عدن ما قبل الاستقلال لابد لنا من نعطي لمحه قصيره عن موقع اليمن، لأن الموقع له اهمية كبيره من حيث التأثر بمناهج التعليم للبلدان المجاورة أو المستعمرة، فالتعليم الحكومي في عدن كان متأثراً بمناهج التعليم البريطاني ومناهج مستعمراتهم في الهند ومصر وغيرهما، وكذلك كانت بعثات الحكومه البريطانية الدراسية من عدن ترسل إلى مصر والسودان وسوريا وغيرهما أما التعليم في المدارس الأهلية في عدن فقد كان متأثراً بكل من مصر والأردن ولبنان والسودان وعلى ذلك تقع اليمن في جنوب شبة الجزيرة العربية يحدها من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الجنوب البحر العربي وخليج عدن ومن الشرق سلطنة عُمان ومن الغرب البحر الأحمر.

المساحة:- تبلغ مساحة اليمن حوالي 555.000كم دون الربع الخالي.

السكان:- وبخصوص عدد السكان فإن عددهم له دور كبير في عدد المدارس ونوع التعليم وانتشارة وأثره فقد بلغ عدد السكان فيما يسمى جنوب اليمن سابقاً ما بين مليون إلا ربع إلى مليون نسمة[1] وبلغ عدد السكان مابين اربعه ملايين إلى خمسه ملايين في الشمال وبلغ عدد السكان المقيمين في اليمن وفقاً للنتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن

(1) حسين الويسي، اليمن الكبرى، ص 10-15.

والمنشآت 2004م (19.721.643) نسمة يتوزعون على 20 محافظة اضافة إلى أمانة العاصمة ويبلغ عدد سكان عدن (وهي موضوع الدراسة) 590.413 نسمة عدد الذكور منهم 312.312 نسمة والإناث 278.101 نسمة وذلك وفقاً لاحصائيات 2004م.(1)

المؤشرات التعليمية :- (2)

- عدد المدارس قبل الاستقلال فيما يسمى الجنوب العربي لا يتعدى المئة مدرسة

- وعدد المدارس الأساسية

لعام2005/2004 11045

- عدد الطلاب قبل الاستقلال لا يتعدى بضعة الاف

- وعدد طلاب المرحلة الأساسية

لعام 2005/2004 4072294

ذكور 2.450272

إناث 1622022

- عدد المدارس الثانوية

لعام 2005/2004 307

- عدد طلاب المرحلة الثانوية

لعام 2005/2004 592427

ذكور 409031

إناث 183396

- عدد المدارس (أساسي + ثانوي)

لعام 2005/2004 3058

- عدد الجامعات الحكومية (7) جامعات

- عدد الطلاب بالجـــــامعات الحكومية 173247

ذكور 127167

إناث 46080

- عدد الجامعات الخاصة 10

عدد الطلاب بالجامعات الخاصة 23413

ذكور 18142

إناث 5271

ثانياً: أسئلة تطرح على المشاركين والمهتمين في تاريخ التعليم :-

يثير التربويون الكثير من الأسئلة التى تحدد الإجابة عنها مجالات النظام التعليمي والتربوي في عصر الحضارات اليمنية القديمة وما بعده وهذه الأسئلة أصبحت تتردد على ألسنة كثير من الباحثين والدارسين وطلاب كليات التربية والمهتمين تتطلب المزيد من البحث والاستقصاء والدراسة حولها فالاجابة عن هذه الاسئلة التي تدور في أذهاننا عن الواقع التربوي في العصر القديم والمتمثلة في:-

1. ما الفرض الذي كان ينشده الإنسان من التعليم أنذاك؟
2. وهل كان هناك تعليم؟ وما أهداف التعليم السائد في تلك الفترة؟ ما محتوى المناهج الدراسية ومدى مناسبتها للمتعلمين؟ وما هي الوسائل المستخدمة في التدريس؟ ومن يعمل على تدريسها في التعليم؟ وما هي الأعمار المناسبة للمحتويات المتاحة؟ وما محتوى المناهج في تلك الفترة؟ ومصادرها؟ وأين يتم التعليم (أي المكان والموقع)؟ هل يقتصرالتعليم على البيت والأسرة أم على المعبد أم يمتد التعليم ليشمل كل موقع في الحياة؟ اسئله كثيرة تحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء..

(1) الجهاز المركزي للإحصاء، كتاب الاحصاء السنوي لعام 2004م،ص30.

(2) راجع :-
- الجهاز المركزي للإحصاء، كتاب الإحصاء السنوي لعام 2004م، ص216.
- وزارة التربية والتعليم ،الإدارة العامة للتخطيط والإحصاء 2005/2004م.

ثالثاً: مقدمة لابد منها:-

التعليم الجيد يخلق حضارة جيدة وما صنع الحضارات إلا ناتج من نتاج التعليم فلو أنك أطلعت على ماكتبه الأجانب عن اليمن في العصور القديمة والعصور الوسطى والحديثة سوف تجد أو تلمس آيات الأعجاب والانبهار تحيط بكل كلمة يكتبونها عن اليمن وكأن كاتبها من أبناء اليمن ينبض قلبه حماساً وحُباً بل وأعجاباً كبيراً وعليه شهدت اليمن حضارتين اتسمتا بالمجد والخلود.[1]

الحضارة الأولى: الحضارة الانسانية.. حضارة اليمن القديم، حضارة الإبداع والفن والاقتصاد وفي التخطيط والحكم النيابي.

الحضارة الثانية: الحضارة الاسلامية حضارة العقيدة والعلم والفكر والإبداع العلمي وحكم الشورى.

ولهذا نحن نفخر بالحضارة اليمنية لإنها كانت البداية الأولى في تكوين الشخصية اليمنية واستطاعت عن طريقها أن تبنى حضارة تفيض بمختلف الكتابات في الشرق والغرب على السواء بالاشادة بها والاشارة إلى دورها المذهل في وضع الانسان على طريق التقدم والتحضر.

فالانسان ليس أبناً لأبويه فحسب، بل هو أبن لعصره وزمانه، إبن التاريخ والزمن الماضي، ولايستطيع الانسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضي؟ لأن معرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة والتأمل في الماضي يبعد الانسان عن ذاته فيرى مالايراه في نفسه من مزايا الغير وأخطائه ويجعله ذلك أقدر عن فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل[2] والحقيقة أن تناول التعليم قديما في عصور سابقة مهمة وضرورية للأجيال الحالية والصاعدة حيث أنها لم تعط لها الاهتمام والمناقشة والدراسة وكذلك مدن زبيد وجبلة وحجة وصعدة وحضرموت ...الخ ،حيث أن الكتابة في تناول موضوع حول تاريخ التربية والتعليم في اليمن في العصور القديمة وحضارات اليمن القديمة والعصور الوسطى يواجه الكثير من الصعوبات ولم يتجه الدارسون والباحثون إلى الدراسة والبحث والاستقصاء والخوض فيه وذلك لعاملين هما:-

العامل الأول: ندوة المراجع خلال هذه الفترة وصعوبة الحصول عليها.

العامل الآخر: تركيز كثير من المراجع والكتب والمخطوطات على النواحي السياسية وما يتعلق بها من حروب ومعارك وصراعات وكذلك في الجانب الاجتماعي والاقتصادي أما في الجانب التربوي فيكاد يكون مهملاً[3] وما هذا البحث إلا بمثابة المشهيات للباحثين للقيام بدراسات أكاديمية حول الواقع التعليمي والتربوي في اليمن في عصر الحضارات اليمنية القديمة وما بعدها أما الاهتمام بدراسة تاريخ التعليم في عهد ما قبل الثورة والاستقلال فإنه يساعد على الآخذ في الأتي:-

1. توفير قدر كبير من الحقائق والمعلومات التاريخية التي تساعد الدارس على الوصول إلى الفروض والنظريات والمسائل المتعلقة بالتعليم من خلال المنظور التاريخي.
2. مساعدة الباحث أو الدارس والمهتم بتاريخ التعليم على القيام بتفسير الحقائق المتصلة

---

(1) عبد الرحمن عبد الله الحضرمي، في الحضارة اليمنية ،مجلة الأكليل، العدد (26)،وزارة الثقافة ،2005م.

(2) سعد مرسي أحمد وآخرون تاريخ التربية، كلية التربية- جامعة عين شمس 1996م،ص9.

(3) هناك رسائل علمية تناولت الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت، إعداد فاطمة على باخشوين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 2002م. واليمن القديم في ضوء النقائش الحميرية، رسالة دكتوراه، إعداد الباحث عبد الله كرامة التميمي، جامعة تونس، 2004م.

بتطور الفكر التربوي وذلك بالاعتماد على المادة التاريخية.

3. إثراء القدرة على التذوق التاريخي وذلك بتتبع الأصول الأولى للظواهر المختلفة ومحاولة ربط الماضي بالحاضر فيما يتعلق بقضايا التربية والتعليم.

4. القدرة على اكتشاف العلاقة بين التربية وبين الجوانب الآخرى في تاريخ الحضارات مثل الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية ... الخ.

5. محاولة تفسير بعض مسائل التعليم المعاصر في ضوء التطور التاريخي لها وذلك بالتزود بقدر كاف من الخبرات والتطبيقات التربوية في الماضي وتفسير هذه الخبرات بما يفيد في توجيه العملية التربوية توجيهاً سليماً.

6. تنمية القدرة على اكتشاف العلاقة بين النظريات التربوية المختلفة، وبين التطبيقات العلمية لها داخل المدرسة، وإرجاع النظريات إلى إطارها الاجتماعي والثقافي الذي ولدت فيه.

7. تكوين مفهوم سليم لمعنى التطور وما يرتبط به من عناصر البطء والسرعة في حركة التاريخ وقيمة الذكاء الإنساني في صنع التقدم الاجتماعي وموقع التربية من هذا كله.

8. زيادة وعى المربي بالمشكلات التي يمكن أن تنشأ عند إدخال نظم يقتضيها التطور والإصلاح ولكنها قد تصطدم بالتقاليد والمعتقدات ذات الجذور التاريخية ولذا فإن دراستنا لتاريخ التعليم ليست مجرد سرد حوادث أو حقائق مجردة عن الماضي وإنما هي دراسة الفكر التربوي أرتبط بظروف معينة وله دلالة خاصة في زمن معين وعند تفسيرنا لهذه الحقائق لابد من ربطها بالظروف التي نشأت فيها.(1)

رابعاً: حدود الدراسة:-

يهدف هذا البحث إلى دراسة واقع التعليم في فترة 1839م1967-م حيث أن هذا الموضوع لم ينل حتى الآن الاهتمام الكافي من الباحثين الذين انصرفت دراساتهم لمعالجة تاريخ اليمن السياسي إلى جانب جهل كثير من الأجيال الحالية لما كان سائد في الماضي في الجانب التربوي وعليه أثرت على نفسي أن أتناول هذا الموضوع وأن كان فيه صعوبة بسبب قلة المصادر التي تناولت هذه الفترة وتكرار الموضوعات التي تناولت الفترة المذكورة (1839م ـ م1967).

خامساً: نظرة إلى المصادر:-

اعتمدت الدراسة على بعض المصادر المتعددة والمتنوعة التي وقعت في يد الباحث منها:-

1. أسماعيل الأكوع، المدارس الاسلامية في اليمن، منشورات جامعة صنعاء، 1980م.
2. أسمهان العلس، أوضاع المرأة اليمنية في ظل الإدارة البريطانية لعدن 1937 .1967م دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 2005م.
3. أعداد مختلفة من مجلة التربية الجديدة، مركز البحوث التربوية ،عدن.
4. أعداد مختلفة من مجلة الأكليل، وزارة الاعلام والثقافة، صنعاء.
5. التعليم في وادي حضرموت (النشأة والتطور 1905 .2005م).
6. أعداد من مجلة اليمن، مركز البحوث والدراسات اليمنية ـ جامعة عدن.
7. المدرسة الياقوتية في عدن ودور المدارس

(1) سيد إبراهيم الجبار، دراسات في تاريخ الفكر التربوي، القاهرة ،مكتبة غريب1977م، ص22.

الاسلامية في اليمن في نشر التعليم، وثائق ندوة الحياة العلمية في عصر الدولة الرسولية، دار جامعة عدن، أكتوبر 2001م.

8. جامعة عدن، الندوة العلمية الأولى حول عدن - ثغر اليمن - الماضي، الحاضر، المستقبل، مايو1999م.

9. جامعة عدن، الندوة العلمية حول اليمن وحدة الأرض والانسان عبر التاريخ فبراير 2001م.

10. على صلاح الأرضي (تاريخ التعليم في عدن 1839 - 1967م) جامعة عدن 2001م، علي صلاح الأرضي، التعليم إدارته وتمويله في اليمن، مجلة كليات التربية، العدد (7)، دار جامعة عدن، أغسطس 2005.

11. على هود باعباد، دراسة تحليلية لبعض مشكلات التعليم والمعلم في الجمهورية العربية اليمنية ،منشورات جامعة صنعاء، 1982م.

12. كرامة مبارك سليمان، التربية والتعليم في الشطر الجنوبي من اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، 1994م.

13. محمد أنعم غالب، عوائق التنمية في اليمن (دراسة لمهد ما قبل الثورة) ط3، فيسبادن، 1978م.

14. محمد سعيد مديحج، المدرسة الأم المدرسة الوسطى بغيل باوزير1940 -1965م دار جامعة عدن للطباعة والنشر 1998م.

15. مطهر على الإرياني، في تاريخ اليمن، مركز الدراسات اليمنية/ صنعاء، 1972م.

16. نبيل عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، دمشق، ط3، 1983م.

ومن خلال هذه المقدمة هناك أسئلة لابد من طرحها على الباحثين والمهتمين في تاريخ التربية والتعليم في اليمن حيث يشير التربويون إلى الكثير من الأسئلة التي تحدد الإجابة عنها مجالات النظام التعليمي والتربوي في عصر الحضارات اليمنية القديمة وما بعده. وهذه الأسئلة أصبحت تتردد على ألسنة كثير من الباحثين والدارسين وطلاب كليات التربية والمهتمين مما يتطلب المزيد من البحث والاستقصاء والدراسة حولها، فالاجابة عن هذه الأسئله التى تدور في أذهاننا وفي أذهان الكثير عن الواقع التربوي في العصر القديم وكيف شيدت حضارات اليمن القديم من حيث التخطيط والتنظيم العلمي؟ ومن هذه الأسئلة، ما النظام التعليمي السائد أنذاك؟ وما اهدافه وما محتواه ومستواه؟ وما الوسائل المستخدمة في التعليم؟ ومن يقوم بالتدريس؟ وما المستوى العلمي للمعلمين والدارسين؟ وما مستوى السن المناسب للتعليم؟ وأين يتم التعليم؟ اسئلة كثيرة تتطلب المزيد من البحث و الدراسة والتحليل والتفسير من الباحثين والمهتمين ،وقبل تناول موضوع التعليم في عدن خلال فترة (1839م - 1967م)يتطلب إعطاء صورة مبسطة لما كان سائداً في عصر الحضارات اليمنية القديمة.

سادساً: الفكر التربوي في اليمن في العصور القديمة:-

إن الدارس لتاريخ التربية يجد كثيراً ما كتب عن التربية في العصور القديمة في العصور الوسطى الأوربية وفي الحضارة الاسلامية، في عصر النهضة وأخيراً التربية في العصور الحديثة ولا نجد ما كتب عن التربية في حضارات اليمن القديمة (معين، حمير، سباء، حضرموت، قتبان، أوسان) وما بعدها[1]، وكأن حضارات اليمن قد وجدت وقامت على

(1) في الحقيقة التعليم في اليمن القديم والوسيط لم يلق اهتمام ما يستحقه من الدراسة من قبل الباحثين والمؤرخين المحدثين على الرغم من ازدهار حضارته وكثره الدول التي ظهرت في اليمن وحكمته.

أسس ابتعدت عن التربية والتعليم وما كانت في حاجه إلى نظم تعليمية، وهذا في حد ذاته يخالف الحقائق العلمية التي يؤكدها الفكر التربوي المعاصر[1] الذي يؤكد أن أي نمو حضاري لابد وأن تكون التربية هي مفتاحه ومدخله الرئيسي وبغير التربية لا يمكن أن تبنى حضارة أو يوجد بناء اجتماعي منظم. ويوضح أحد الباحثين[2] «أن اليمن لم تنل من الدراسات العلمية والاثرية والاكتشافات التاريخية ما نالته مواقع الحضارات القديمة الأخرى، بل أنها لم تنل ما تستحقه فعلاً إذ لم تكن اليمن في العصر الحديث في منطقة الضوء، كمصر والعراق وبلاد الشام والهند والصين وقد أعتاد الناس في العصر الحديث أن يتحدثوا عن حضارات الشرق القديمة مثل مصر وبلاد الرافدين وعن حضارات اليونان والرومان وقل أن يلتفت الباحث منهم إلى ذكر حضارات قامت في اليمن».

وقد اشتهرت اليمن في عالم التجارة قبل ظهور الإسلام كممر بحري مهم للمراكب التجارية المحملة بالبخور والتوابل، وأصبحت البلد الذي يستطيع نقل تجارة الشرق إلى الغرب والعكس، وذلك بحكم موقعها الاستراتيجي المتميز. وبواسطة هذه التجارة تعرفت على حضارة اليونان والرومان والبابليين والفينيقيين[3].وكانت عدن سوقاً وميناءً لكبار تجار اليونان والرومان، فكانوا يقصدونها في رحلات منتظمة من مصر، ولهم فيها جالية من صغار التجار سرعان ما أزدادت بمرور الزمن، كذلك كانت عدن مركزاً لتبادل السلع الأفريقية والهندية والمصرية، ومكاناً تبحر منه السفن إلى الهند[4].

وكان للعرب، قبل الإسلام أسواقهم المتعددة في أنحاء شبه الجزيرة العربية، وكانت تلك الأسواق حولية تقام مرة أو مرتين في السنة، اشتهر منها سوق عدن التي تقام بعد الفراغ من سوق الشحر في الأيام العشرة الأولى من شهر رمضان، ولا يحتاج قاصدها إلى حراسة، لقيام حكومة مركزية منظمة فيها، وتدفع عشور هذه السوق إلى ملكها من حمير.

وقد ظل ميناء عدن محتفظاً بمكانته في التجارة العالمية، بل تحول بعد الإسلام إلى مستودع ضخم للبضائع القادمة من مصر وشرق أفريقيا والهند، بعد أن اتخذه التجار الممر الرئيس لهم[5]. ويوضح أحد المصادر[6] أن عدن كغيرها من المؤاني القديمة والوسيطة والحديثة ملتقى لتجارة الشرق والغرب وقد كانت وسيطاً تجارياً وثقافياً ممتازاً لموقعها الاستراتيجي المهم، لأن التجارة من العوامل المهمة لنقل الثقافة وتبادل المعارف بين الشعوب.

وهذا ما أكده أحد الباحثين «في ان التجارة قد أسهمت من خلال مردودها المالي الوفير بقسط وآخر في انعاش الحياة العامة وازدهارها بمراكز الحضارة القديمة من مشرق اليمن وخاصة قلب تلك الحضارة في أرض سبأ وعاصمتها مأرب والتي شيد على مقربة منها وفي مضيق وادي أاذنه سد مارب العظيم أية ما وصل إليه السبيئون من رقى حضاري وكفاية اقتصادية ومهارة فنية في مجال السيطرة على المياه ودراسة وخبرة في مواجهة الظروف الطبيعية القاسية وحسن نظر وتدبير في

(1) محمود السيد سلطان، مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ، القاهرة، دار المعارف، 1979م، ص19.

(2) يوسف محمد عبدالله، سد مأرب والقرار التاريخي باعادة بنائه ، مجلة الاكليل، العدد الأول، السنة الثالثة، وزارة الاعلام والثقافة، صنعاء، 1985،ص21م.

(3) محمد كريم الشمري، تجارة عدن الخارجية في عصر بني زريع وبني أيوب، مجلة اليمن، العدد(22) مركز البحوث والدراسات اليمنية، جامعة عدن، 2005،ص52.

(4) المصدر نفسه ،ص52.

(5) المصدر نفسه،ص53.

(6) علي صلاح الأرضي، تاريخ التعليم في عدن (1839-1967)جامعة عدن، 2001م،ص13.

استغلال تربة الأرض الطيبة.[1]

وتوضح إحدى المراجع: أن التعليم في اليمن في العصور القديمة ارتبط بالأسرة التي كانت تتولى هذه المهمة حيث تعلم الطفل وتدريبه على مهنة أبيه والطفلة على مهنة امها ولهذا كانت المدرسة في ظروف الحياة الاجتماعية المختلفة بسيطة وبدائية في شكلها ومضمونها كما هو الحال عند الكتاتيب في العهد القبلي الذي عاشه مجتمعنا اليمني.[2]

وتجمع العديد من المصادر[3] أن المجتمعات البدائية القديمة ليس فيها تصور لنظام التعليم أو وجود شكل منظم من المعارف أو المواد الدراسية وانما السائد فيها طرق التربية السائدة لم تتعدد مرحلة التقليد الساذج اللاشعوري تحددها خصائص اجتماعية معينة فمطالب الفرد في المجتمعات البدائية تقتصر غالباً على اشباع حاجات الجسم من طعام وغذاء ومسكن وحماية نفسه من الحيوانات ولذا كانت مظاهر التربية تتركز في عمليتين رئيسيتين هما: [4]

الأولى:- الاعداد اللازم للحصول على ضروريات الحياة العملية بصورة آلية مباشرة ليس فيها تفكير أو تطوير لما هو موجود.

والثانية:- تدريب الفرد على الطرق والقيم المقبولة في الجماعة.

وعليه يمكن اجمال خصائص التربية في المجتمعات البدائية في الآتي :-

1. ليست هناك مؤسسات أو هيئات مسؤلة مسؤلية كاملة عن التعليم، وانما يقوم بها شيخ .
2. انها متدرجة مرحلية بشئ من التقليد والتعميم ومتدرجة حسب السن والنمو البدني
3. قائم على التقليد والممارسة دون تغيير.
4. ان التعليم فيها يتميز بالقابلية ليس فيها عنصر الفاعلية مع البيئة المحيطة وعليه تتصف التربية البدائية في المجتمعات القديمة بأنها لم تعرف المدرسة كمؤسسة متخصصة للتعليم وانما كانت من مسؤلية رب الأسرة في اكساب الأطفال عادات القبيله والقيم المقبولة لديها وفي بعض القبائل ظهر بعض الأفراد الذين كان لهم دور كبير في تنظيم حياة القبيله وصياغة أهدافها ومثلها وهؤلاء كانوا في الغالب من المشتغلين بالطب أو الكهنة أو الرواة أو المشايخ الطاعنين في السن[5].

ومن المهم يمكن القول أن دراسة التربية في المجتمعات البدائية تعطينا فكرة عن نوع الحياة في هذه المجتمعات واعتبارها نقطة البداية في تطور البشرية الطويل المعقد... فمع ظهور الحضارات المعروفة وتطور أساليب الحياة تغيرت النظم التربوية...من مجرد عملية عارضة إلى عملية منظمة مقصودة. ومن مجتمع ثابت إلى مجتمع متغير متطور، ثم ظهور الرموز وبدء عملية التسجيل واختراع الكتابة...والطباعة... إلخ..وهكذا فإن المجتمع البشري المعاصر لم يبدأ من نقطة الصفر كما فعل الإنسان البدائي، وإنما بدأ بما وقف عنده الأسلاف وخبرات اليوم هي استكمال لخبرات الماضي وبناء لخبرات المستقبل وهكذا.

وتشير إحدى المصادر[6] افي تللك الفترة كانت تسعى إلى إعداد الناشئة للحياة في

(1) يوسف محمد عبدالله سد مأرب والقرار التاريخي بإعادة بنائه مجلة الأكليل،السنه(3) العدد (الأول)، وزارة الإعلام والثقافة 1985،ص22.

(2) كرامة مبارك سليمان، التربية والتعليم في الشطر الجنوبي في اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، الجزء الأول صنعاء 1994م،ص 10-11.

(3) سيد ابراهيم الجبار،دراسات في تاريخ الفكر التربوي، القاهرة ،مكتبة غريب، 1977،ص 31-32.

(4) المصدر نفسه،ص31.

(5) المصدر نفسه ،ص31-32.

(6) سعد مرسى أحمد وأخرون، تاريخ التربية ،القاهرة ،سعد سمك 1996م،ص155.

بيئتهم بكل ظروفها ومن ثم يمكن القول أنها كانت متنوعة وأيضاً ذات أهداف علمية، ومن ثم فالطفل ينشأ وسط أهله يتعلم من سلوكهم فيسلك مسلكهم ويكتسب أخلاقهم وطريقة حياتهم ويشترك في الأعمال التي يقوم بها من هم أكبر منه سناً ولم تكن هناك ملامح واضحة لمؤسسة تعليمية كالتي نعرفها اليوم مثل المدرسة.

وفي العصر الإسلامي عندما كانت اوربا لا تزال غارقة في ظلام العصور الوسطى عندما خرج المسلمون على العالم بحضارتهم الزاهرة ونهضتهم الكبرى وأضافوا إلى تاريخ الفكر التربوي أضافات نوعية وقد تمثل المسلمون في نظامهم التربوي ما خلفته الثقافة القديمة من تجارب وأضافوا اليها الكثير من تعاليمهم وفلسفتهم وطريقة حياتهم التي رسمها الدين الجديد[1] ومن بين هذه المصادر: الفلسفة الكلاسيكية وعلوم الأغريق في الرياضيات والطب والعلوم الطبيعية وأخذوا عن الثقافة الهندية الرياضيات والطب والأدب، كما تأثروا بالتراث الفارسي وخرجوا من كل هذا بلون جديد أصيل من الثقافة العربية الاسلامية.

وقد تمثلت اتجاهات التربية الاسلامية في العصور الوسطى في الأتي:-[2]

1. امتزاج العلم بالعقيدة: وذلك حتى يكون العلم نافعاً وموجها لفعل الخير.
2. ربط العلم بحاجات البشر: من أجل إشباع الهدف الديني والدنيوي في آن واحد.
3. الإشادة بالعقل: لأنه وسيلة العلم والمعرفة والأداة الرئيسية لبلوغها.
4. الاعتراف بالفردية: مع تأكيد أهمية خصائص النمو المختلفة في العملية التربوية.
5. الاهتمام بعلوم الدين والدنيا: مع ترجيح كفة العلوم الدينية على العلوم الدنيوية.

مراحل التعليم:- ليس من المتصور بطبيعة الحال وفي هذه الفترة التاريخية المبكرة ان نجد صورة مماثلة لما نراه اليوم من أنقسام التعليم إلى مراحل نظامية محددة ومن هنا فإننا نشير هنا إلى صورة تقريبية أو قريبة مع الأخذ بعين الاعتبار هذا التحفظ الذي بدأنا به والصورة التقريبية وبخصوص التنظيم المدرسي السائد في العصر الاسلامي يمكن تناوله من خلال استخدام لغة العصر الحديث في اعطائه بنية السلم التعليمي في الأتي:-[3]

1. **المرحلة الأولى:-** كانت تقدم في الكتاب من سن 6-14 تقريباً وكان الكتاب يوجد غالباً خارج المسجد في منزل الفقيه (المعلم) او في الحوانيت أو بما يسمى بالمعلامة.
2. **المرحلة الثانوية:-** أو المتوسطة، وكانت مدارس هذه المرحلة تعرف باسم مدرسة المسجد أو الحلقة او المدرسة، ويتراوح سن التلاميذ فيها من 14 إلى 18سنة.
3. **مرحلة التعليم العالي:** تبدأ بعد انتهاء التلميذ من حفظ القرآن الكريم، وكانت توجد في إحدى المؤسسات التالية: دار الحكمة - المكتبات - والصالونات الأدبية - ودور العلماء - والمساجد الكبيرة، مثل الأزهر الشريف وغيره.

وقد كان التعليم الأول عاما للجميع، وخاصة في عصر الدولة العباسية التي تبنى فيها الخلفاء العلم والعلماء وأبدوا اهتماما كبيراً بالتعليم والمتعلمين فعملوا على توفير فرص التعليم الأولى لكل طفل وألحقوا بكل مسجد مدرسة لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم العامة، بالاضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم.[4]

بعد هذا المدخل المبسط للواقع التربوي قديماً الذي مازال يحتاج إلى مزيد من البحث

(1) المصدر نفسه، ص 119.
(2) المصدر نفسه ص125.
(3) المصدر نفسه ،ص126.
(4) المصدر نفسه ص127.

والاستقصاء والدراسة، فالمكتبة اليمنية والعربية فقيرة جداً في تناول تاريخ التعليم في العصور القديمة والوسطى في اليمن وذلك لصعوبة الحصول على الوثائق أو الآثار والمخطوطات والشواهد التي خلفها أفكار السلف وأفعالهم، والحقيقة أن تناول تاريخ التربية في اليمن قديماً لا يمكن أن يتم فعلاً إلا على أساس من الوثائق والمصادر المتعددة لذا يتطلب من الباحثين والمهتمين أن يجمعوا كل ما يمكن جمعه من الوثائق المتعلقة بعصر من العصور أى كان نوع هذه الوثائق وأن يحدد لها مكاناً واحداً مثل (متحف التعليم) وهذا يتطلب تهيئة المكتبات والمتاحف ودور المحفوظات لكي يتم ضم أشتات مختلفة من الشواهد العلمية والتربوية السائدة قديماً وإذا استعرضنا واقع التعليم في فترة ما قبل استقلال عدن خلال (م1839 .1967م) فقد أشارت كثير من المراجع والمصادر إلى وضع التعليم في عدن في تلك الفترة[1] ويمكننا تناول واقع التعليم في عدن قبل الاستقلال من خلال العناصر الآتية:

سابعاً: التعليم في مستعمرة عدن:

1. تأسيس التعليم وبناء المدارس:-

تمثل بداية التعليم في عدن في المعلامة التي ظهرت في فترة ما قبل الاستقلال وهي بمثابة تعليم تقليدي بدائي من خلال قيام المعلم (الفقيه) بتدريس القرآن الكريم والقراءة والكتابة وقد عرفت عدن المعلامة وهي أكثر مؤسسات التعليم التقليدي انتشاراً ،إذ لم تعرف عدن ما عرفته بعض المدن اليمنية الأخرى من مؤسسات كالأربطة والمراكز الدينية التي وجدت في زبيد وبيت الفقيه وسيئون وتريم، حيث كانت المعلامة هي الوسيلة الوحيدة للتعليم في عدن قبل ظهور التعليم النظامي[2].

وبدأ التعليم النظامي الحكومي في عدن في أثناء احتلال بريطانيا لعدن عام 1839 حيث تم فتح اول مدرسة حكومية عام 1856م أى بعد مرور17 عاماً من الاحتلال وهنا يجب أن نتساءل عن السبب الذي جعل الإنجليز يقدمون على فتح المدارس في عدن منذ قدومهم إليها، هل من أجل تعليم أبناء عدن اللغة الانجليزية من أجل استخدامهم في الترجمة وفي الوظائف الحكومية أو تعليمهم العلوم حسب المنهج الانجليزي أو من أجل تعليم أبناء الانجليز الموجودين في عدن ومن يعمل معهم، أم الأمرين معاً ؟وكما هو واضح أن التركيز الأكثر أنذاك من فتح المدارس كان لأبناء الانجليز ومن يعمل معهم. والتركيز الأقل لأبناء عدن وذلك لعدم استجابة أهل عدن للتعامل مع الانجليز في البداية ولكن هذا الموقف تغير

(1) من المصادر التي تطرقت إلى واقع التعليم في عدن في فترة ما قبل الاستقلال على سبيل المثال لا الحصر هي:-
- سلطان ناجي،الحالتان التعليمية والثقافية في عدن خلال فترة تبعيتها للهند،مجلة الاكليل، العدد الأول، السنة (2)،وزارة الاعلام والثقافة، صنعاء، 1982م.
- علوي عبدالله طاهر، واقع التعليم في اليمن قبل ثورة 26سبتمبر 1962،مجلة الاكليل، العدد الأول، السنة (الخامسة)،وزارة الاعلام والثقافة،صنعاء،1987.
- كرامة مبارك سليمان، التربية والتعليم في الشطر الجنوبي من اليمن(جزان)مركز الدراسات والبحوث اليمني،صنعاء، 1994م.
- علي صلاح الأرضي، تاريخ التعليم في عدن (1839-1967)،جامعة عدن،2001م.
- جامعة عدن، الندوة العلمية حول اليمن وحدة الأرض والانسان عبر التاريخ، فبراير،2001م.
- علي صلاح الأرضي، التعليم إدارته وتمويله في اليمن، مجلة كليات التربية، العدد (7)،جامعة عدن،أغسطس 2005م.

(2) طه علي أحمد، دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية في مقاومة عملية التغريب الثقافي قبل الاستقلال الوطني في مدينة عدن، الندوة العلمية الأولى حول عدن ثغر اليمن، جامعة عدن، 1999م،ص274.

فيما بعد فأصبح التركيز في التعليم لأبناء عدن هي الأكثر قبولاً وانتشاراً وخلال فترة ما بين عام 1866 وحتى عام 1900 من القرن الماضي لم يفتح الانجليز غير مدرستين اثنتين الأولى في منطقة المعلا عام 1879 والثانية في التواهي عام 1880 إلى جانب فتح مدرستين كاثوليكيتين[1] وبعض المدارس للجاليات الأخرى، الهنود والصومال واليهود[2] وكان عدد المدارس في منتصف الثلاثينات أي قبل انظمام عدن إلى وزارة المستعمرات البريطانية وبعد مضي مائة عام على الاحتلال والتبعية للهند انها قليلة للغاية فالمدارس الحكومية في المستعمرة لم تزد عن أربع مدارس أما الابتدائية المعانة فكانت ست مدارس فقط[3] وإلى جانب التعليم الحكومي فقد وجد في عدن أنذاك تعليم أهلي وقد أتصفت مؤسسات التعليم الأهلي في عدن قبل الاستقلال والتي كانت قائمة أنذاك فهي:-

أ) الكتاتيب

ب) الأربطة وهو التعليم القديم.

وعلى ذلك فالمدارس تتمثل: المدارس الأهلية الوطنية - والمدارس الحكومية - والمدارس التبشيرية - ومدارس الجاليات الأجنبية، وللتفصيل أكثر راجع ما كتب حول ذلك.[4]

2. التلاميذ و جنسياتهم:-

أشارت إحدى المصادر إلى أن توزيع التلاميذ في مدارس عدن كانت على النحو التالي: [5]

فرنسي	1
بانيان	8
خوجة	2
مهمن	7
بهرى	5
يهود	3
عرب	5
مسلمون آخرون	15
مسيحيون محليون	6
المجموع	60

وفي فترة عام 1897م أوضحت إحدى المصادر أن المدارس الحكومية والتبشيرية والخاصة تضم (1768) تلميذاً موزعين على النحو التالي: [6]

- 256 تلميذاً في المدارس الابتدائية العربية .
- 88 تلميذاً في المدارس الانجليزية الحكومية من بينهم 16 تلميذاً يمنياً فقط .
- 1424 تلميذاً في المدارس التبشيرية والخاصة.

(1) سلطان ناجي، الحالتان التعليمية والثقافية في عدن خلال فترة تبعيتها للهند، الاكليل العدد الأول، السنه (2) وزارة الاعلام والثقافة، صنعاء، 1982، ص99.

(2) علوي عبدالله طاهر، واقع التعليم في اليمن قبل ثورة 26سبتمبر عام1962، مجلة الاكليل، العدد الأول، السنة الخامسة، وزارة الاعلام والثاقفة، صنعاء، 1987، ص17.

(3) سلطان ناجي، مرجع سابق، ص116.

(4) كرامة سليمان، التربية والتعليم في الشطر الجنوبي من اليمن، الجزء الأول، (1930-1970) مركز الدراسات والبحوث اليمن، صنعاء، 1994، ص 48-80.

(5) سلطان ناجي، مصدر سابق، ص97.

(6) كرامة سليمان، مرجع سابق.

3. الهدف من التعليم :-

اتبعت بريطانيا سياسة تعليمية محدودة اقتصرت على المستوى المتوسط الغرض من ذلك ايجاد كتبة وتلبية الحاجة من الموظفين والمستخدمين من الذين يجيدون اللغة الانجليزية وذلك لشغل الوظائف الإدارية في مؤسساتها الحكومية والاقتصادية ولم تعمل بريطانيا على الارتقاء بالتعليم إلى المستوى الجامعي، وفي هذا الصدد يرى علوي طاهر «أن هدف الانجليز من فتح أي مدرسة لتلبية حاجته من الموظفين والمستخدمين الذين يجيدون اللغة الانجليزية ليتمكن من التفاهم معهم ويستطيع بواسطتهم تسير اعماله وتنفيذ مخططاته.[1]

4. السلم التعليمي:-

كانت هناك المرحلة الابتدائية وتتراوح مدة الدراسة فيها ما بين 5.4 سنوات والمرحلة الثانوية الدراسة فيها تستغرق ما بين 6.5 سنوات[2].ثم تطور بعد ذلك لتصبح المدارس الابتدائية مدة الدراسة فيها 4 سنوات والمدارس المتوسطة 3 سنوات للبنين و 4 سنوات للبنات (زيدت سنة كتجربة) والمدارس الثانوية 4 سنوات[3] وفي هذا الصدد يوضح إحد المصادر[4] أن السلم التعليمي في عدن كان مكوناً من :

1. المرحلة الابتدائية وسنوات القبول بها في سن 7.6سنوات .
2. المرحلة المتوسطة ويلتحق بها التلاميذ الناجحون من المرحلة الابتدائية في سن 11 سنة.
3. المرحلة الثانوية: ويلتحق بها الطلاب الذين اجتازوا بنجاح امتحانات التنافس للقبول في الثانوية في سن نحو 15 سنة.

(1) علوي طاهر،مصدر سابق،ص16.
(2) نفس المصدر،ص101.
(3) علي صلاح الأرضي، مصدر سابق، ص167.
(4) كرامة سليمان، مرجع سابق، ص240م.

أما في المحميات الشرقية فقد سار النظام التعليمي فيها على وفق النظام التعليمي السوداني[5] وقسمت المراحل التعليمية إلى :

- المرحلة الابتدائية ومدة الدراسة فيها (4) سنوات
- المرحلة المتوسطة ومدة الدراسة فيها (4) سنوات
- المرحلة الثانوية ومدة الدراسة فيها (4) سنوات .

وفي المحميات الغربية لم يتعد السلم التعليمي المرحلة الابتدائية ولكن في تطور بعد ذلك في اثناء استحداث وظيفة ضابط معارف في إدارة معارف عدن للاشراف على التعليم في المحميات الغربية.

5. في مجال البعثات الدراسية:[6]

لم تهتم الحكومة الانجليزية في تعليم أبناء اليمن ومواصلة دراستهم في الخارج ولم يكن لهم نصيب في هذا المجال، وكان الأمر متروكاً للنوادي الثقافية والجمعيات الأهلية والاصلاحية والأباء الذين أنشأؤا الجمعيات والنوادي الثقافية في مستعمرة عدن بعد الحرب العالمية الأولى[7] حيث أنتشرت البعثات العلمية العدنية بين لبنان ومصر وبريطانيا والهند والعراق والسودان[8] وذلك في مطلع الثلاثينات من القرن الماضي وكان من أوائل المبعوثين محمد عبده غانم إلى انجلترا وإلى القاهرة في الأزهر الشريف بعثة مكونة من محمد بن سالم البيحاني، وأحمد محمد نعمان، وعلى محمد الهتارى، وعلوي حسين باهارون وغيرهم.[9]

(5) كرامة سليمان ،مرجع سابق، ص161م.
(6) لمعرفة عدد الطلاب الذين أرسلوا للدراسة في الخارج :ـ راجع :سلطان ناجي، مصدر سابق ،ص (127-129).
(7) سلطان ناجي ،مصدر سابق، ص 107.
(8) علوي طاهر، مرجع سابق، ص 18.
(9) كرامة سليمان، مرجع سابق، ص83.

6. مناهج الدراسة:-

كانت المناهج والدروس التي تعطى للطلاب لا تتعدى اللغة الإنجليزية والحساب و قليل من الجغرافيا السياسية وتاريخ الهند السياسي وتاريخ الامبراطورية ولم تكن للثقافة العامة ولا لتنمية الذكاء والشعور بالحس بين أبناء المدارس وذلك عن طريق تدريس الآداب والفنون إلا قليلا[1] إلى جانب تدريس تاريخ أوربا وجغرافية الجزر البريطانية، وكانت طريقة الحفظ هي السائدة في طريقة التدريس والترديد لما استوعب منه، وكانت المناهج الدراسية تعكس الأهداف الاستعمارية التي وضعت من أجل خدمته خلال فترة احتلاله لعدن.

7. وضع التعليم في المحميات :-

يقصد بذلك المناطق والسلطنات والمشخيات التي أرتبطت في مستعمرة عدن، والتعليم فيها كان لا يتعدى مستوى التعليم الابتدائي في أحسن الأحوال وقد وصف أحد الباحثين حال التعليم فيها في الأتي:[2]

- في لحج مثلا كان يوجد 29مدرسة ابتدائية للبنين والبنات، كما وجدت فيها مدرستان متوسطتان في كل من الحوطة والوهط، ووجدت ايضا مدرسة ثانوية في الحوطة وكان يدرس في تلك المدرسة مدرسون محليون وسودانيون. كما كان يدرس فيها بعض المدرسين المصريين.
- وفي الضالع كان عدد المدارس الابتدائية ثلاث عشرة مدرسة للبنين والبنات، ومدرسة متوسطة فيها قسم داخلي لأبناء ردفان وحالمين والشعار، كما يدرس فيها طلبة من الشعيب والمفلحي وجحاف وحرير.. وكان فيها ايضا مدرسة ابتدائية فيها قسم داخلي من ردفان وزبيد والخوارج والشعار.
- وفي المسيمير وجدت مدرسة ابتدائية ومدرسة أخرى في حول مدرم وثالثة في المحلاح. كما بنيت مدرسة ابتدائية في المسيمير واخرى بالراحة وثالثة بالحرور، وبنيت مدرستان كل منهما من فصلين في مريب وعقان.
- وفي الشعيب وجدت مدرسة ابتدائية واحدة كما بنيت اربع مدارس في كل من قرية (القزعة) وقرية (الرباط) وقرية (المضو) وقرية (بخال) كما بني قسم داخل في العوابل وبنيت مدرسة في حرير وأخرى في بني مسلم وثالثة في أرحب ورابعة في شكع وخامسة في خلة.
- وفي بير أحمد وجدت مدرسة ابتدائية واحدة.
- أما في أبين، فقد كان عدد المدارس فيها ستا وثلاثين مدرسة ابتدائية للبنين والبنات في زنجبار إلى جانب مدرسة اهلية في زنجبار ايضا.
- وفي جعار وجدت مدرسة متوسطة إلى جانب عدد من المدارس الابتدائية في باتيس والحصين والورو، كما كان في جعار ايضا مدرستان ابتدائيتان للبنات .
- وكانت هناك اربع مدارس ابتدائية في أحور ومدرسة واحدة للبنات .
- وفي مودية وجدت عشر مدارس ابتدائية واحدة للبنات ومدرسة أخرى متوسطة فيها قسم داخلي.
- أما في شبوة، فقد وجدت خمس مدارس ابتدائية في نصاب و12 مدرسة ابتدائية في الصعيد إلى جانب مدرسة متوسطة وبنيت مدرسة متوسطة في ميفعة بها قسم داخلي كما شيد معهد ديني في حبان .

ومن ذلك يلاحظ أن تلك المدارس التي ورد ذكرها وجدت في بعض المحميات وكانت صغيرة وقد أطلق عليها مدارس وهي في الحقيقة عبارة عن كتاتيب لا تعلم غير القراءة والكتابة

(1) طه علي أحمد، مصدر سابق ،ص 275،276.
(2) علوي طاهر،مرجع سابق،ص 24.

وبعض المواد الأولية.

ومن هنا ندرك أن التعليم في تلك المحميات كان متدنيا جدا، بل ومتخلفا إلى أقصى درجات التخلف، ولم تكن المدارس. إن صح أن نسميها كذلك. إلا «ذر رماد في العيون» وذلك لا يهام، وهي في لواقع لا يمكن تسميتها بالمدارس لأنها لاتمت إلى التعليم بصلة، فهي لا تمتلك اية خاصية من خصائص المدارس لأفتقارها إلى أبسط مقومات التعليم من تجهيزات وكتب ومعدات دراسية ومقاعد للدراسة... الخ. ولقد كانت اقرب إلى الكتاتيب منها إلى المدارس.

8. التعليم الأهلي:-

نظراً إلى السياسة البريطانية التي سعت إلى اغلاق الأبواب أمام أبناء الشمال وأبناء المحميات في التعليم وعدم السماح لهم الالتحاق بالمدارس الحكومية الانجليزية فقد ظل أبناء الريف وأبناء الشمال اليمني محرومين من التعليم مما حدا بالمواطنين الخيرين إلى بناء بعض المدارس لتستوعب جميع الأبناء الذين لم يتاح لهم فرصة الالتحاق في المدارس الانجليزية وقد أدى التعليم الأهلي الحديث في عدن دوراً بارزاً في تعليم أبناء ما كان يعرف في شمال اليمن الذين أستوطنوا عدن وكان لهؤلاء دور كبير في المساهمة في مناصرة الثورتين 26 سبتمبر و 14 أكتوبر في الكثير من المواقع العسكرية والمدنية وبرز من هؤلاء الكثير من الأسماء. ومن هذه المدارس الأهلية التى انشئت أنذاك:[1]

1. مدرسة بازرعة الخيرية الاسلامية أنشئت عام 1912م ومؤسسها محمد عمر بازرعة في مدينة كريتر.
2. المعهد التجاري العدني، أسس عام 1927م ومؤسسه ياسين محمد راجمنار في مدينة كريتر وكان يقوم بتدريس الشباب الطباعة على الأله الكاتبة باللغة الانجليزية وأعمال السكرتارية واللغة الانجليزية والمواد التجارية.
3. مدرسة النهضة العربية أنشئت عام 1948م في منطقة الشيخ عثمان بتمويل من الاستاذ/ عبده حسين الأدهل وتولى إدارتها الاستاذ إدريس حنبلة.
4. المدرسة الأهلية بالتواهي أنشئت عام 1949م في منطقة التواهي وذلك من خلال تبرعات الأهالي ورسوم الدارسين فيها.
5. مدرسة الكاف بتريم أنشئت في مطلع الثلاثينات بمساعدة اسرة أل الكاف وأقتصر التدريس فيها على علوم اللغة العربية والدين والحساب. وهناك مدارس أخرى أنشئت في حضرموت مثل مدرسة دوعن ومدرسة الغرفة و مدرسة الأخوة ومدرسة النهضة الابتدائية للبنات.
6. المعهد العلمي الاسلامي أنشئ في مطلع عام 1957.56م في كريتر على يد الشيخ محمد بن سالم البيحاني.
7. كلية بلقيس أنشئت عام 1961 في منطقة الشيخ عثمان من قبل هيئة التربية والتعليم اليمنية وتولى التدريس والاشراف عليها أساتذة منهم:
   - حسين علي الحبيشي
   - علي عوض بامطرف
   - محمد أنعم غالب
   - عبدالعزيز عبدالغني
   - أحمد عمر بن سليمان
   - عبدالله عبدالرزاق باذيب وغيرهم.

إدارة المعارف: سعت الإدارة البريطانية إلى تأسيس إدارة المعارف عام 1938م بهدف الإشراف على نظام التعليم في مستعمرة عدن وقد شمل هيكلها الإداري من مدير المعارف،

(1) للتفصيل لكثر، راجع:
- علي صلاح الأرضي، مرجع سابق.
- كرامة سليمان، مرجع سابق.

كبير الكتبة، مساعد ضابط، تعليم، مساعدة ضابط تعليم البنات إلى جانب ذلك تشكلت لجنتين الأولى مهمتها استشارية اجتماعية في قضايا التعليم الأهلي والحكومي والثانية مختصة في البعثات الدراسية.[1]

وفي نهاية الخمسينات من القرن الماضي أصبح إدارة المعارف هيكل تنظيمي وتولى رئاسة هذه الإدارة آحد أبناء عدن الاستاذ/محمد عبده غالنم، وبعده الاستاذ عبدالرحمن جرجرة في مطلع الستينات والشكل التالي يوضح الهيكل التنظيمي لإدارة عدن[2].

تعليم الفتاة:

سعت بريطانيا من خلال اصدارها لقانون التعليم أثناء فترة احتلالها لعدن من التحاق الطفل بالمجارس الحكومية بسبع سنوات مع اثبات ذلك بشهادة الميلاد (مخلقة) التي تمنح من مكتب البلدية وسطة ضواحي عدن في الشيخ عثمان أي أنه من مواليد (مخاليق) مستعمرة عدن وكان الهدف من ذلك حرمان أبناء اليمن من التعليم وبقائهم في جهل وتخلف ذكوراً وأناثاً.

ويوضح أحد المصادر أن هناك معوقات اعاقت تعليم الفتاة وقلة إنخراطها في الالتحاق بالمدارس لمحدوديتها والافتقار إلى المعلمات المؤهلات وقد وصل عدد البنات المقيدات في المدارس الحكومية عام 1938م إلى173.[3]

وقد أخذت الفتاة العدنية تقبل على التعليم حيث تشير الاحصاءات لعام 1947م إلى أن عدد التلميذات المقيدات في المدارس الابتدائية والثانوية والكتاتيب بحدود 1166 تلميذة[4] ووصل عددهن في عام 1950م ب 1297 تلميذة[5] وفي عام 1960م ب 4775 تلميذة[6] وعدد المدارس الخاصة بهن (11) مدرسة. وكان تعليمها يقتصر على مادة القراءة والكتابة والحصول على مؤهل متوسط ولم يتحمس المحُتل لتعليم المرأة وحصولها على مؤهل عالي يمكنها المشاركة في الحياة العملية.

مما سبق يتضح أن تعليم الفتاة في مستعمرة عدن قد تأخر ولم يبدأ الا في العقود الثلاثة الآخيرة من الاحتلال البريطاني وكان من وجهة نظر المستعمر أن تعليم الفتاة مطلب ثانوي وليس أساسي[7] والتركيز بدرجة أساسية على مصالحها الخاصة وما تتطلبه المرحلة في تلك الفترة.

9. ملامح من أعلام التربية في اليمن:-

كان يتطلب في هذه الدراسة استعراض أو تناول نخبة متميزة لها باع في التربية في العصر الحديث ولهم اسهامات تربوية من خلال أعمالهم ومؤلفاتهم ولكن لشحة المعلومات وقلتها فقد اغفلنا عنها وهذا مقترح لدراسات أخرى مستقبلاً والحقيقة من خلال معايشتي للواقع التربوي والتعليمي واهتمامي الكبير به وجدت بأنه آن الأوان القيام بدراسات وبحوث تربوية من قبل باحثين وطلاب الدراسات العليا تتناول الفكر التربوي في اليمن قديماً وفي العصر الحديث وكذلك تتناول سير بعض المفكرين والمربين اليمنيين الذين لهم مساهمات علمية

(1) اسمهان العلس، أضاع المرأة اليمنية في ظل الإدارة البريطانية لعدن 1937م- 1967م، دار جامعة عدن، 2005م، ص62.
(2) كرامة سليمان، مرجع سابق، ص266.
(3) لمعرفة المزيد من الاحصاءات الخاصة بتعليم الفتاة ، راجع كرامة سليمان ص(149-155).
(4) اسمهان العلس ،ص60.
(5) كرامة سليمان ، مرجع سابق ،ص149.
(6) نفس المصدر ، ص151.
(7) للاستزادة اكثر، راجع اسمهان العلس، أوضاع المرأة اليمنية في ظل الإدراة البريطانية لعدن 1937م / 1967م، جامعة عدن،2005م.

وتربوية من خلال تتبع حياتهم الفكرية ونشأتهم وأعمالهم وجهودهم التربوية والظروف التاريخية التي نشأوا فيها أمثال: الأستاذ المرحوم قاسم غالب أحمد، وسلطان ناجي، د/محمد عبده غانم، ولطفي جعفر أمان، وجعفر ظفاري، وعبدالله فارع فاضل، وحُسين على حبيشي، وعبدالرحيم الأهدل ومحمد محمود الزبيري، وسعيد عبدالخير النوبان، والشيخ محمد بن سالم البيحاني[1] وغيرهم ولابد من العناية بدراسة أفكارهم ومآثرهم التربوية مثلما نعنى في تناول عددا من الشخصيات العربية والأجنبية التي حظيت كل منها برسالة خاصة سواء على مستوى الماجستير أو الدكتوراه مثل طه حسين، واسماعيل القباني، ورفاعة الطهطاوي، الغزالي، وابن خلدون، وساطع الحصري، وعبدالحميد بن باديس، ومحمد بن علي الشوكاني[2]، وجون لوك، وفروبل، وسبنسر، وياستا لوتزي، وجون ديوي.... الخ.

ونحن لا نزعم أن لدينا أمثال هيجل وكانط وديكادريت وجون ديوي... الخ ولكننا بالتأكيد نملك فكراً ومفكرين يمنيين كما سبقت الاشارة اليهم (جرادة، والنوبان، وأمان، وغانم، وقاسم غالب...الخ).

ثامناً: الخلاصة:

من خلال العرض لواقع التعليم في فترة ماقبل الاستقلال فإن التعليم قد أنتشر نسبياً في عهد الاحتلال الانجليزي لعدن ووجد بذوراً وضعت في تلك الفترة من التعليم الحكومي والتعليم الأهلي هيأ لقبول ونمو مفاهيم جديدة في التعليم فيما بعد من خلال كتابات وخطب بعض المفكرين والمثقفين والمصلحين أمثال محمد بن سالم البيحاني ومحمد علي لقمان وباحميش وغيرهم، مع تلاقح الثقافة الانجليزية مع الثقافة اليمنية من خلال تدريس اللغة الانجليزية في المدارس الحكومية والأهلية ولعل مما يميز التعليم في عهد الاحتلال الانجليزي لعدن جعله تعليماً مميزاً لبعض الفئات مما دفع ذلك إلى ان تشارك الجمعيات والنوادي الاصلاحية والخيرية في الاهتمام بالتعليم وأن تأخذ على عاتقها بناء المدارس وتمويلها وتوفير كل المتطلبات لابناء اليمن في المحميات المرتبطة بالإدارة البريطانية والوافدين من شمال اليمن في اتاحه الفرصة امامهم للتعليم وربطهم بالثقافة العربية الاسلامية وتوجيه التعليم وجهة اسلامية واجتماعية بحيث يستمد سماته ومقوماته من متطلبات المجتمع اليمني وأهدافه وليس لتحقيق هدف الانجليز أو الطبقة الارستقراطية من المشايخ والسلاطين.

---

(1) هناك دراسات تناولت الشيخ العلامة محمد بن سالم البيحاني : فكره التربوي رسالة ماجستير للطالب شرف الشهاري، الجامعة الأردنية، 1993م والبيحاني حياته وعصره وشعره نشره ودعوته وآثاره، رسالة دكتوراه للباحث أحمد هجوان، باكستان، 1988م.

(2) هنالك دراسة تناولت الشوكاني وفكره التربوي، رسالة دكتوراه للباحث عبدالغني قاسم غالب جمهورية مصر العربية، 1985م.

دلالية مقارنة – مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء العدد 12 لعام 1991

(23) الطبري ،محمد بن جرير، تاريخ الطبري – دار الكتب العلمية بيروت رقم الطبعة 1 (قرص مضغوط) جـ 2

(24) عبد الله ،يوسف،مدونة النقوش اليمنية القديمة – مجلة دراسات يمنية العدد 3 لعام 1979

(25) عبد الله ،يوسف محمد، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره – دار الفكر المعاصر بيروت 1990

(56) الفيروز أبادي ،محمد بن يعقوب ،القاموس المحيط – دار الفكر بيروت 1995

(27) العنزي ، ناصر بن محمد : التنوين في أسماء الأعلام العربية قبل الإسلام (نصوص المسند) الرياض 2002

(28) مكياش،عبد الله أحمد ،نقوش عربية جنوبية من اليمن دراسة مقارنة أطروحة مقدمة إلى مجلس كلية اللغات في جامعة بغداد لنيل درجة الدكتوراه 2002 لم تنشر

(29) الهمداني، الحسن بن احمد بن يعقوب، الإكليل جـ 2 – تحقيق محمد من علي الأكوع – وزارة الثقافة والسياحة صنعاء 2004

(30) الهمداني، الحسن بن أحمد ،صفة جزيرة العرب – تحقيق محمد بن علي الأكوع – مركز الدراسات والبحوث صنعاء ط- 3 1983

(31) الهمداني، الحسن بن أحمد الإكليل جـ 8 – وزارة الثقافة والسياحة صنعاء 2004

(32) اليعقوبي،أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر،تاريخ اليعقوبي – دارصادر بيروت(قرص مضغوط) جـ 1

المراجع الأجنبية :-

- Abdallh, Yusuf: Die Personannamen In Al- Hamdāni,>s Al- Aiklil UndIhre Parallelen In Den A Hsudarabischen Inschriften- Doktor der Philosophie- Túbingen 1975

- Beeston,A.F.L;EpigraphicSouth Arabian Calendars and dating London 1956-

- Christian Robin Himyar Au ive Sicele De L,Ere chretienne Archaologisnhe Berichte Aus Dem Yemen – Band x 2005

- Gajda,Iwona :The earliest monotheistic south Arabian Inscription, Archaologische Berichte aus Dem Yemen, Band X 2005

- Jamme,W.F.;The AL-Uqlah Texts The Catholic University of America Press Washington 1963

Jamme..:Sabaean Inscription from Mahram Bilqis London- 1962

Ricks.Stephen D;Lexicon of Inscriptional Qatabanian Roma 1989, P.44

Robin, Christian & Ueli Brunner: Map of Ancient Yemen 1997

نقش إهدائي على كف إنسان مقدم للمعبود تألب ريام
(دراسة في ضوء النقوش والآثار)

د/ محمد سعد عبده القحطاني
أستاذ الآثار اليمنية القديمة المشارك
بقسم الآثار كلية الآداب جامعة صنعاء

مقدمة:

يعد تقديم القرابين للآلهة في اليمن القديم من أهم الطقوس الدينية التي كان يقومون بها اليمنيون القدماء، تجاه معبوداتهم سواءً الرئيسة منها أو الاقليمة. ويعتبر القربان من أهم الشعائر الدينية وأبرزها التي كانوا يؤدونها في حياتهم الدينية في الحقب التاريخية القديمة، وكانت تمارس في معظم الأديان، وشعيرة القربان والنذور كانت تؤدى لدفع خطر متوقع أو تحرص على حدوث ما هو متوقع أو غير متوقع، ولعل أهم تطور حضاري كان بالنسبة لمفهوم الأضحية البشرية هي الأضحية البديلة حيث أصبحت بمثابة رمزية ، وهو ما يعرف بالامتداد الإلهي في تاريخ البشرية، وهي فكرة كانت على ما يبدو تأخذ في كل مرحلة من مراحل التاريخ الحضاري وصيغة معينة خاصة بها تنسجم مع مستوى التطور العقائدي بشكل عام ومع خصوصية بعض جوانبه في كل بيئة مخصوصة من البيئات المتحضرة الكائنة في نطاق جغرافي محدد بشكل خاص.

ومن خلال دراسة محتويات نقوش نذور القرابين نجد أنها كانت نتيجة حاجة ملحة في حياة اليمني القديم ، فتصور بأنه يمكنه التأثير على آلهته بتلك النذور القربانية التي كان يقدمها لها في معظم المناسبات والمواسم الدينية وغير الدينية، ليعبر بها عن شدة تقواه وتقديسه لها لينال رضاها وينال الحظوة والرضا عند سادتهم. وكان اليمني القديم يقدم تلك النذور والقرابين أيضاً للآلهة من أجل أن تمنحه البركة وتمن عليه بالخيرات الوفيرة والمستمرة وتهبه الأولاد الذكور الأصحاء ، وتقف إلى جانبه في الشدة والحروب، وعندما تتأزم أمورهم أو تشتد ذروتها

أكثر بين مملكة وأخرى.

وكانت تصاحب تلك القرابين أداء الابتهالات والتراتيل الدينية وإقامة الصلوات والتسابيح والدعاء وغيرها من الطقوس والشعائر الدينية الأخرى. كما نجد أن النقوش تتضمن ذكر أسماء أصحابها وأسماء الآلهة والمعابد التي كانت تقدم فيها تلك النذور والقرابين ونوعية التقدمة وسبب التقدمة وغالباً ما كانت تختم النقوش بصيغة الدعاء وهي بمثابة تضرع وتوسل إلى الآلهة طالبين منها أن تحقق لهم ما يعولون عليها من آمال ورغبات وأماني يتمنونها مستقبلا وبذلك فهم يتوسلون لها بغية أن يكون جزاؤهم من الآلهة هو المن عليهم وعلى ساداتهم وضمان بالسلامة وطول الحياة والحماية من أي مكروه قد يصيبهم أو كوارث طبيعية قد تحل بهم والحظوة والرضوة عند سادتهم وكبار قومهم.

اليَدُ : أي الكَفُّ أو من أطْراف الأصابِع إلى الكَتف أصْلُها يَدْيٌ ج : أيْد ويُدِيٌّ ج : أيادٍ . واليَدَى كَالفَتَى : بمعناها كاليَدَةِ واليَدُ مُشددَةً وهُما يَدانِ . واليَدُ : الجاهُ والوَقارُ والحَجْرُ على مَنْ يَسْتحِقّهُ ومَنْعُ الظُلْمِ والطَريقُ وبِلادُ اليَمَنِ والقُوّةُ والقُدْرَةُ والسُلْطانُ والمِلْكُ بكسر الميم والجَماعَةُ والأكْلُ والنَدَمُ والغِياثُ والاسْتِلامَ والذُلُ والنِعمَةُ والاحْسانُ تَصْطَنِعُه اليَدُ(1)

الإله تألب:

كان الإله تألب المعبود الرئيسي والإقليمي لمنطقة كيان التحالف القبلي السياسي الكائن في منطقة أرحب وهي المنطقة التي كانت تعد مركزاً رئيسيا لذلك التحالف، والذي قام أساسا على أثر مملكة سمعي وعرف باتحاد سمعي في بداية الأمر، حيث حل الإله تألب فيما بعد محل الإله (س م ع) في نفس المكانة تقريباً ليصبح على ما يبدو في الفترة التالية بمثابة الوريث الشرعي في العبادة والمعابد التي أقيمت لعبادته وكان يعبد فيها سواء في معابده الرئيسة والكائنة في نطاق الموقع الجغرافي لمنطقة أرحب وما جاورها من المناطق المحيطة بها، أو في الأماكن الأخرى الواقعة خارج هذا النطاق الجغرافي لها، حيث انتشرت عبادته فيما بعد في أماكن ومناطق أخرى. كما انتشرت عبادته كذلك خارج اليمن القديم، لنجد أنه كان معبوداً في بلاد ارض الحبشة، كما دلت على ذلك النقوش التي تم العثور عليها هناك ودلت على عبادته، وتقديم النذور والقرابين له. وقد قام اليمني القديم ببناء العديد من المعابد له في عدد من الأماكن والمناطق وقدم له البعض منها كتقدمات نذرية كما دلت على ذلك النقوش النذرية، والإله تألب يعد صورة من صور الإله القمر، لذلك قدمت له بعض المنشآت المعمارية وأعطيت له العطايا النفيسة ونذرت له النذور النقشية والعشر من منتجات محاصيل الأثمار الزراعية والسلع التجارية والقرابين والمذابح والمباخر الخاصة بحرق البخور وغيرها، ورمزت له برموز حيوانية وهندسية وغيرها من الرموز التي تتناسب وتتطابق مع خصوصياته وسماته المثالية من حيث وظائفه التي يقدمها وتكمن فيها القوى الغيبية التي تصوروا وجودها فيه، وقد رمزوا له بعدد من الرموز الدينية مثال الثور والوعل وأجزاء من جسم الإنسان ومنها الكف الذي نحن بصدد دراسة النقش المدون عليه والمقدم للإله تألب و يعد النقش الوحيد من النقوش المعروفة حتى الآن والذي جاء مدوناً على ظهر الكف الأيمن مما يؤكد على رمزيته للإله تألب ريام، وهو بذلك يمثل رمزاً مشتركاً للإله ود حيث جاء مصاحباً للنقوش المقدمة له وقد صور ونحت عليها بأشكال مختلفة منها المستقيمة إلى الأعلى ومنها المقلوبة إلى الأسفل وقد تكون منفردة لوحدها وقد تمثل اليدان مع بعضها ومصورة مع رمزيات أخرى ونجد أنامل الأصابع ايضاً ممثلة على اللوحات النقشية أو التصويرية أو التماثيل المصنوعة في أوضاع مختلفة منها المنفردة وغير مشبوكة

الأصابع وغير متراصة ، وأحياناً في وضع ملفوفة وآخر منها مشتبكة الأصابع وهي ممثلة إلى الأعلى والمقلوبة منها إلى الأسفل أيضاً، وقد يصاحبها بعض الكتابات وقد تخلو بعضها من أي تدوين عليها . كما كانت رمزا من رمزيات الإلهة شمس حيث جاءت ممثلة على النقوش النذرية المقدمة لهذه الإلهة وصور ونحت على عدد من النقوش المقدمة لها كما نحت وصور أيضا على اللوحات التصويرية التي وجدت في معابدها ونقشت على إحدى واجهات الأعمدة القائمة في معابدها، وخاصة الوقعة منها في معابدها الكائنة في مدينة هرم وكتل الجوف بمملكة معين. وقد مثلت ونحتت وصورت هذه الأيدي بأنواع وإحجام مختلفة الأشكال والتي تم التعرف عليها وغالبيتها خالية من النقوش الكتابية وقدمت في المعابد للآلهة كرمزيات بديلة عن الأيدي الطبيعة للإنسان ، وجاءت بأيدي مقطومة الأذرع ومنها مسندة بالأذرع الممتدة إلى الساعد من الكتف لجسم الانسان .ومن تلك التقدمات والهدايا التي قدمت للإله تألب ريام الممثلة لبعض من أعضاء الجسد المصاحبة للنقوش رمزية الكف ومنها كما ذكرنا من قبل ما نجده في النقش : (RDBN1- YM.1997)-p62.98. .

نقل النقش بالخط المسند:

1_𐩥𐩠𐩨 | 𐩩𐩱𐩡𐩨 | 𐩨𐩬 |

2_𐩢𐩮𐩣𐩬 | 𐩺𐩧𐩪𐩣𐩺𐩬 | 𐩲𐩨𐩵 |

3_𐩨𐩬𐩺 | 𐩪𐩭𐩣𐩣 | 𐩠𐩤𐩬𐩺 | 𐩦

4+𐩺𐩣𐩠𐩣𐩥 | 𐩩𐩱𐩡𐩨 | 𐩧𐩺𐩣 | 𐩺𐩣

5_𐩬𐩬𐩣 | 𐩲𐩵𐩺 | 𐩤𐩺𐩰𐩠𐩥 | 𐩹𐩤𐩨𐩧𐩩 |

6_𐩨𐩠𐩴𐩧𐩬 | 𐩼𐩰𐩧 | 𐩡𐩥𐩰𐩺𐩬𐩠𐩣𐩥).

نقل النقش بالخط العربي:

1 - (و هـ ب / ت ا ل ب / ب ن /

2 - ح ص م ن / ي ر س م ي ن / ع ب د /

3 - ب ن ي / س خ م م / هـ ق ن ي / ش

4 - ي م هـ م و / ت ا ل ب / ر ي م / ي م

5 - ن ن م / ع د ي / ق ي ف هـ و / ذ ق ب ر ت /

6 - ب هـ ج ر ن / ظ ف ر / ل و ف ي ن هـ م و) .

المعنى العام للنقش:

أن صاحب النقش المسمى وهب تألب بن حصمان اليرسُمي عبد بني سخيم قدم لحاميهم الإله تألب ريام الكف الأيمن في المكان المخصص لعبادته والمسمى (قيف) الكائن في الموضع المسمى قبرة في مدينة ظفار من اجل سلامتهم) .

دراسة النقش في ضوء دلالته اللغوية والدينية:

يفهم من ذلك بأن صاحب النقش وهب تألب بن حصمان اليرسمي. التابع لبني سخيم قدم لتألب ريام (يمنن) الكف الأيمن المصنوع من مادة البرونز، ودون على ظهرها الخلفي هذا النقش وذلك في مكان القيف الذي نصب له في الموضع المسمى (قبرت) بمدينة ظفار. ومن الملاحظ هنا أن صاحب النقش كان قد استوطن في مدينة ظفار وأقيم للإله تألب ريام معبد هناك، وأما أنه كان قد قام بمهمة خاصة أو رسمية إلى هناك أسبابها غير معروفة ،ولم يرد ذكرها في النقش. والمرجح لدينا قد تكون ظفار هي ظفار ذيبين الواقعة بمنطقة ريدة بمحافظة عمران وليست ظفار ريدان الواقعة اليوم في منطقة منكث شرقي مدينة يريم بمحافظة اب.

وهب تألب: (و هـ ب / ت ا ل ب) وهو يقابلنا في السطر الأول في النقش المذكور

اسم العلم وهو (و هـ ب ت ا ل ب) المذكور في عدد من النقوش السبئية التي تعود إلى فترة المكاربة على وجه التقريب. ويتألف من جزء ين، يدل أحدهما على واحد من آلهة اليمن القديم أو على واحدة من صفاته، والجزء الآخر يكمل العلم المركب هذا، وضبط قراءته يساعد على محاولة تقديم تفسير له. وقد تبرك بالإله كما هي الحال في الديانات القديمة مثل وهب أوام وهب شمس ووهب عثت ووهب ذي سماوي، وفي دول شمال الجزيرة العربية القديمة وجد باسم وهب اللات. وهو اسم علم مركب من جزء ين، الجزء الأول وهو الاسم الأول منه خاص بالأشخاص والجزء الآخر هو اسم الإله الذي عادة ما يأتي تابعاً للاسم.

فاللفظ (و هـ ب) غالباً ما يرد ذكره في النقوش اليمنية القديمة وخاصة منها في ما يتعلق بالأسماء الخاصة بأعلام الناس المركبة وهو فعل ماضي ،أما اللفظ (ت ا ل ب) فيرد في النقوش السبئية والمعينية والقتبانية والحبشية أيضا كاسم فقط ويعني (اسم من أسماء الإله القمر).

أما الاسم (ت أ ل ب) فيعني في رأي هوفنر("الوعل"[1]، كما هو عليه في اللغة العربية[2] و(التألب الوعل والأنثى تألبة) . وهناك نوع من الأشجار عُرف في اليمن باسم (التألب) اتخذوا منه القسي[3] . ونتساءل هنا عن العلاقة بين هذا النوع من الأشجار الذي اتخذت منه القسي وبين اسم الإله من حيث علاقته بالقتال بواسطة القسي كوظيفة من وظائفه . وتألب سميت به أيضاً قرية تألب في بني مطر[4] . وورد تألب اسماً لجبل في منطقة ضوران ذمار[5].

ومن المحتمل أن يكون الاسم (ت أ ل ب) مرتبطاً من الناحية اللغوية بالفعل (ألب) والذي يعني (جمّع) ، الأمر الذي يجعلنا نذهب إلى أن يكون معنى هذا الاسم هو (التوحيد، أو التأليف بين القبائل وتوحيدها). أو ربما يكون اسم الإله تألب يرتبط بالقسي المتخذة من هذا النوع من الأشجار كصفة من صفاته (المحارب) . أو كما تقول هوفنر أنه (إله القوس)(6) .

وأما اللفظ بن: (ب ن) فهي تعني ابن .

واللفظ حصمان: (ح ص م ن) وهو اسم صاحب النقش الذي ينتمي إلى قبيلة يرسم عبد بني سخيم التي تنسل شجرتها من قبيلة يرسم الواقعة في مدينة شبام الغراس .

وأما اللفظ يرسميان (ي ر س م ي ن) فكان واحداً من التكتل السياسي الثلاثي الذي وجد مركزه في منطقة الرحبة وامتدت رقعة حكمه من منطقة خولان إلى مدينة صعدة ككيان سياسي تشكل من عدة تحالفات قبلية لهذه المنطقة . وبذلك فإن القبيلة الرئيسية التي تعد أساسا لهذا التحالف والمكونة للثلث ذهجرم ، هي قبيلة يرسم، وكانت أسرة بني سخيم هم الأقيال والعمود الأساسي للحلف المكون للثلث ذهجرم ، وهي من قبيلة يرسم ، كما تدلنا على ذلك النقوش المعروفة التي يرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي، على أن يرسم كانت من ضمن مملكة سخيم ، كما يذكر النقش(CIH37) سمعي كمملكة. وهو أول ذكر يرد فيه اسم يرسم، وهذا النقش يعود إلى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . ويرسم ورد ذكرها في هذا النقش كقيالة مستقلة في ظل وجود مملكة سمعي ومملكة سبأ، ويشير إلى أن(عم شبن بن سروم قول يرسم) في محتوى النقش المشار إليه، أي قيل قيالة بني سخيم ليرسم في الثلث ذهجرم[7] ، وفي هذا الصدد يرى بافقية أن هذا النقش (CIH37) الذي ذكر فيه يرسم بقوله بإنه يعد من أقدم النقوش التي ورد فيها ذكر(قول) وجمعه (أقول) أي قيل وأقيال[8]. كما يرى أيضاً بأن قيالة بني سخيم ليرسم إنما كانت في فترة ملوك سبأ وذي ريدان ويصف بني سخيم أنهم سلالة جديدة حملت هذا الاسم [9] .

ويرسم عرفت في المصادر العربية والتاريخية باسم قبيلة كما جاء ذكرها عند

الهمداني بقوله: (...يرسم جماعة وهي ثلاث عشرة بيتاً ترسمت على يرسم من كثير وعلى بقية يرسم الأولى ... ، ويرسم ثلاث آبيات وهم العميرات من حردي سخيم بيتان آخران من يرسم القدم من حميرا .... وفي يرسم الاذواد من الأبناء وأبيات من همدان من حاشد)[10].

وفي موضع آخر يذكر المهداني : ويرسم الكبرى بطن خولان [11]. كما أن قبيلة يرسم التي ورد ذكرها في النقش (CIH37) ، والذي يعود إلى عهد كرب ال وتر بن تبع آمر بين) كان بداية القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً .

أي أن يرسم ؛ وهي القبيلة المذكور اسمهاً في النقوش المعروفة. يرجح أنها كانت قد قامت في إطار الإقليم الجغرافي الذي عرف باسم (ثلث ذهجرم) أي الثلث من ذهجرم، كما يحتمل أن يكون قد اتخذوها حاضرة لهم، ومركزاً رئيسياً لهم في تلك الفترة، وربما كانت مدينة شبام سخيم التي لم تذكر في النقش المشار إليه سابقاً.

و يرسم: تعد في الأصل قبيلة بني سخيم هذه المذكورة في مؤلفات الهمداني و قد سكنت صعدة حاضرة خولان الشام (قضاعة) بعد أن كانت تسكن الثلث (ذهجرم) والتي اختفى ذكرها في العصور الإسلامية .

وأما اللفظ سخيم (س خ ي م) فقد ورد ذكره في العدد يد من النقوش كعشيرة كبيرة وخاصة في القرون الأولى وحتى الثالث الميلادي تقريباً ، كما جاء ذكرها في المصادر التاريخية وتنسب ككنية أو أسرة لعدد من الأشخاص وكانت تتمركز في شبام الغراس وخولان وفي صعدة أيضاً ..

وتتأكد علاقة بني سخيم أنهم من قبيلة يرسم كما جاء ذكرها في بعض النقوش المعروفة حتى الآن والتي منها النقش : (RES 4649، ويرد فيه (بني سخيم وشعبهم يرسم). وكذلك النقش إرياني (رقم 18) والذي يرد فيه أن (بدرم وأخيه سعد عثتر) من بني سخيم أقيل الشعب أي شعب سمعي المكون لثلث هجرم ...). والنقش: (RY 538)، وأصحابه كانوا جماعة تنتسب لبني سخيم، وهم أسياد البيت أو (القصر) المعروف باسم ريمان وأقيال قبيلة يرسم ذ سمعي المكونة للثلث ذي هجرم [12]. ويتصل ذكر بني سخيم بشعب يرسم في النقش : (GL25)). ويتضح مدى تلك العلاقة المناطة بها لبني سخيم كلقب سياسي على قبيلة يرسم التي هي ضمن مملكة سمعي وذلك في الثلث ذهجرم [13].

وتطلعنا النقوش أن اسم بني سخيم قد ارتبط بمدينة شبام وبقبيلتهم يرسم كما دلت على ذلك النقوش وذكرته، لكن من الواضح أنه لم يحدد حتى الآن نوعية هذا الارتباط وأسبابه. ومما هو جدير بالذكر بهذا الخصوص فإن النقوش المعروفة التي يرد فيها ذكر لحكم أو قيالة بني سخيم منذ أواخر القرن الأول الميلادي وحتى منتصف القرن الثالث الميلادي تقريباً ، وذلك بالصيغة التالية:(أ ق و ل / ش ع ب ن / س م ع ي / ث ل ث ن / ذ هـ ج رم). وقد جاء أقدم ذكر لمدينة شبام في النقش: ((RES 3990، الذي يرجع إلى نهاية القرن الأول الميلادي، لربما أنها كانت قائمة خلال القرن الثالث قبل الميلاد، وآخر ذكر لها ورد في النقوش المعروفة التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي[14] .

وعلى كل حال فإن مدينة شبام سخيم ظلت حاضرة لبني سخيم ومركزاً سياسياً واقتصادياً ودينياً لهم ، وهم أقيال بني يرسم أيضاً، كما يذكر في النقوش المعروفة حتى الوقت الحاضر، حيث كان لموقعها المعروف أهمية كبيرة جعلها تستمر في أداء دورها التاريخي والسياسي والديني والثقافي طيلة قرون عدة [15].

وقد ورد في بعض النقوش اليمنية القديمة التي يرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي، أن عهد مملكة سمعي كانت تتألف من اتحاد ثلاثي قبلي قسم على النحو الآتي:

أولاً ثلث ذهجرم وأقياله من بني سخيم وهم من يرسم . ثانياً ثلث حاشد وأقياله من بني همدان . ثالثا ثلث حملان وأقياله من بني تبع[16].

أما اسم قبيلة بني سخيم فقد جعل منها المؤرخ المشهور بلسان اليمن ابو محمد الهمداني الذي يرد متبوعاً بعد اسم مدينة شبام مرتبطاً بسخيم فيقول: (إلى سخيم بن يدع ينسب شبام سخيم، وهو من ممالك اليمن [17]. وبذلك تعد مدينة شبام سخيم عاصمة للثلث (ذهجرم) من قبيلة (يرسم) واقيالهم بنو سخيم وطبيعة (الاتحاد سمعي) المملكة والقيالة. والتي ارتبط تاريخها قديماً بمملكة سبأ[18].

و من الملاحظ أن النقوش المعروفة لبني سخيم تكاد جميعها تذكر علاقة مستمرة لأولئك الاقيال الجدد التي تبدأ في النقوش المعروفة بالحملة التي كافأهم بها الملك وتر يهامن التي ورد ذكرها في النقشين: (JA 601،602)، ويرجع الهمداني أشعب بني سخيم إلى بني مالك بن سهل بن زيد ....) [19] . كما ينسب السخيميين إلى مشارق خولان والمحاجر ورحابة وأنهم من بني ذي خولان [20].

إلا انه بالرغم من ذلك ، فإن بني سخيم هم الذين أصبحوا في نهاية المطاف اقيالاً لخولان إضافة إلى يرسم التي ورد ذكرها في النقش: (JA 671) [21]، وعلى كل فان أبناء قبيلة بني سخيم قد أصبحوا في نهاية الأمر أقيالا لخولان الجديدة بالإضافة إلى شعبهم يرسم. وكان نسب بني سخيم قد ظل معروفاً حتى القرن الرابع الهجري كما جاء ذكره عند الهمداني في بطون مؤلفاته في كتاب الصفة وأجزاء الإكليل ويرتبط هذا النسب بخولان التي تقع ارض سخيم فيها.

وهناك كانت توجد علاقة تاريخية بين بني سخيم وخولان الأجدود وهم بنو خولان الشام (قضاعة)، وتظهر تلك العلاقة من خلال نفوذ بني سخيم على خولان الاجدود، و تولى الأقيال منهم إخماد تلك الحالات التي نشبت بالتمرد على ملوك سبأ وذي ريدان. وكان لبني سخيم عند أتباعهم حظوة ومكانة اجتماعية خاصة تتسم بالولاء لهم والتبعية بحكم النفوذ السياسي والاقتصادي الذي كان سائداً في تلك الحقب التاريخية من تاريخ اليمن القديم [22].

هقني: (هـ ق ن ي) بمعنى قدم وتقرب وهو الفعل الدال على التعبير للتقدمة النذرية ،وذلك بمعنى قدم قرب إهداء كذا وكذا للإله أو المعبود أو الرب أو السيد وغيره .

شيمهمو: (ش ي م هـ م و) وتعني حاميهم أي إلههم الحامي والحافظ لهم من كل مكروه .

تألب ريام يمنن: (ت أ ل ب / ر ي م / ي م ن ن) جاء ذكر الإله (ت أ ل ب) في عدد كبير من النقوش اليمنية القديمة منعوتاً باللقب (ر ي م م) منها :

(Gl، 1359، 1909، 1910، CiH 203، 315، 330،RES338،4711).

وريام اسم معبد وكما يذكر بأنه كان كما يبدو لتألب معبد على جبل ريام في أرحب منذ زمن قديم يجاور حجر أرحب الذي يحتوي على معبد عثتر ذيبان . وريام هذه كانت نقطة الانطلاق لعبادة تألب إذ أن الإله فيما بعد صار يسمى دائماً تألب ريام[م] (ت أ ل ب / ر ي م)[23].

وأول ذكر له كما يبدو في النقشين (Gl 1209، 1210)، وتمثل أقدم النقوش التي يحمل فيها هذا الإله تألب اللقب (ر ي م م) الذي دخل في تركيب الألقاب الأخرى ، ولكن كما يبدو فإن الاسم (ريام) خاص بإله المعبد الكائن في قمة جبل ريام حيث كان له مكان خاص للكاهن المتنبئ[24].

ونجد أن المعبد الأول للإله تألب على سفح جبل ريام كان هو المعروف باسم (ضبيان)، ثم أقيم له فيما بعد معبدٌ آخر على قمته وشاركه في العبادة فيه الإله عثتر وذلك في وجوده في

المنطقة. ونجد في فترة لاحقة معبداً في موضع آخر من سفح جبل ريام ويسمى (ترعت) وقد صار لقباً له ونعت به. ويؤكد ابن الكلبي على أن من بيوت الأصنام أشهرها بيت رئام أو ريام الذي كان لحمير في اليمن وكانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[25]. ويشاركه الهمداني بقوله: (وريام فإنه بيت كان متسكا تتنسك عنده، ويحج إليه وهو في رأس جبل أتوه من بلد همدان. وحوله مواضع كانت الوفود تحل منها حُرمة والرقاب والموقف)[26].

ويذكر (يوسف محمد عبد الله): (ما زالت آثار ذلك البيت إلى اليوم قائمة، وهو المعبد المعروف في النقوش «تألب ريام». ويقع اليوم في أرحب شمال شرق صنعاء)[27].

ويفهم من اللقب (تألب ريام) أن هذا الإله كان الإله الرئيسي في ريام. وترى (مارية هوفنر) أن اللفظ (ريام) يدل على معنى (عالٍ) أو بمعنى أدق»الموقع العالي«، ويقع المعبد فعلاً على قمة جبل، أو بمعنى»عظيم، سامي«[28]. والواقع أن الاسم (ريِام) مشتق من الجذر (ر ي مَ) بمعنى (علا، أشرف، أو أطل على)[29]. وهناك أكثر من موضع في اليمن يحمل أسماء مشتقة من هذا الجذر منها (ريمان) و(ريمة) و(يريم) و(تريم) و(مريمة) وكلها مواقع مرتفعة عن سطح الأرض، ومعاني أسمائها تدل على ذلك. وجبل ريام معروف في منطقة أرحب حتى اليوم. ودلالة الارتفاع أو العلو ليست صفة للإله (تألب) وإنما هي صفة ذات صلة بالتضاريس للموقع نفسه أو لعلو الجبل المسمى بهذا الاسم. وبهذا الخصوص يؤكد (فون فيسمان)، بأن ريام كان معبداً للإله تألب والذي يقع إلى جانب معبده المسمى «أتوه» على قمة جبل ريام[30]. وأتوه اسم مشتق من الفعل «أتى» بمعنى «قدم» في لغة النقوش اليمنية القديمة[31]. وبذلك يعني اسم هذا المعبد المكان المقدس الذي يأتي إليه القصاد لأداء مراسيم الشعائر والطقوس الدينية فيه للإله تألب.

وهذا اللقب ريام الذي اتخذ للإله تألب ونعت به كما يبدو أنه كان غير مألوف في الفترة التي تعود للقرن الثالث قبل الميلاد أي حوالي (260 قبل الميلاد) ويظهر ذلك جلياً من خلال النقش: ((GL1210، الذي جاء فيه أن على شعب(سمعي) تقديم القرابين والنذور للإله المقة في مدينة مأرب، ثم تأتي بعد ذلك طلبات الإله تألب نفسه وبالأحرى معبده المسمى ترعت[32].

وأما لفظة يمنن: (ي م ن ن) فقد جاءت في اللقب التابع للإله (ت أ ل ب / ر ي م م / ي م ن ن) الوارد في النقش: (Robin 1)، و (ي م ن ن) هو أسم على صيغة الفعل المضارع من الفعل الماضي (م ن ن) أي (مَنّ) في اللغة العربية[33]. لذا فاللقب (ت أ ل ب / ر ي م م / ي م ن ن) يعني (الإله تألب الخاص بجبل ريام المنّان) أي الإله تألب المنان بالخيرات على البشر.

وبذلك يكون اللقب (تألب ريام) بمعنى الإله (تألب الخاص بجبل ريام). واستخدام هذا اللقب للإله تألب على أنه الإله الرئيسي في الموقع المذكور في فترة لاحقة لظهور معبد ترعت، كما سيتبين ذلك من خلال الألقاب الكثيرة لهذا الإله الوارد ذكرها في عدد من النقوش اليمنية القديمة، والمتضمنة أسماء عدد من المعابد التي تدخل في تركيبها إلى جانب الاسم ريام أو بدونه.

أما بالنسبة للفظ عدي: (ع د ي): بمعنى حتى، في.

واللفظ قيفهو (ق ي ف هـ و): فتعني النصب المقام لهذا الإله، والقيف ذكر في أكثر من نقش ونعت به الآلهة الرئيسة والإقليمية في أماكن مختلفة من المناطق اليمنية القديمة، وجاء ذكر القيف أيضاً كاسم حملته قرى وجبال في أكثر من مكان في اليمن القديم، ولا زالت تلك التسميات مستمرة الذكر حتى اليوم وأوردت ذكره بعض من المصادر التاريخية ومنها صفة الجزيرة لصاحبها لسان اليمن أبو

محمد الهمداني

وأما اللفظة قبر بهجرن ظفار: (ذ ب ق ب ر/ هـ ج ر ن/ ظ ف ر): وتعني المقبرة الوقعة في مدينة ظفار . وهجر تعني مدينة في اللغة اليمنية القديمة، و كانت تعرف المدينة اليمنية القديمة في نقوش المسند باسم (هجرم) أي الهجر، والهجر عند الهمداني تعني القرية بلغة حمير والعرب العاربة ومنها عرفت عدة مدن وحملت اللقب نفسه لتعني اسم مدينة مثل هجر البحرين وهجر نجران وغيرها[34].

وكانت تتبع أنماط المدينة اليمنية القديمة حسب ما تقوم به كأي مدينة من دور سياسي أو اقتصادي أو ديني و تلك الأنماط هي :

المدينة عاصمة الدولة التي فيها مقر الحكم ، وهي بذلك تعرف بالحاضرة السياسية للدولة أو المملكة سواء في الدولة القديمة أو الدولة الإسلامية .

والنمط الآخر هو :المدينة عاصمة الإقليم المخلا ف يكون فيها مقر الكبير أو القيل[35].

واللفظ لوفينهمو: (ل و ف ي ن هـ م و): أي من أجل سلامتهم أي من اجل سلامة صاحب النقش وأسرته وعشيرته.

والنقش مدون على كف مصنوع من البرونز المقطوم من أسفل الساعد ،

أو بما يسمى بذراع اليد، والذي جاء على ظهر الكف المنقوش ليزينها بطريقة الخط المحزوز، الذي يبدأ سطره الأول عند نهاية أصابع اليد المنتصبة أناملها إلى الأعلى، وكأنها بمثابة الدعاء والابتهال الروحي للآلهة، لينتهي سطره الأخير عند بداية ساق اليد أو ذراع اليد المقطوم . ومن الملاحظ أن اليد البرونزية قد مثلت تمثيلاً بديعاً في غاية التقنية المستخدمة فيها ،وذلك بطريقة تنفيذ القالب المضغوط في صناعة التماثيل البرونزية والفخارية بواسطة أفران الحرق الخاصة بذلك ، وقد جاءت النسب التشريحة لهيكلية اليد بشكلها الطبيعي ليد الإنسان الطبيعية ومطابقة لها من حيث النسب والتفاصيل والحجم ، وحددت مفاصل أنامل أصابع اليد بخطوط أفقية تحدد مفاصلها العظمية وكذا أظافر اليد وكأنها مقلمة عند نهايتها ونفذها الفنان بشكلها الطبيعي وأظهرها بشكلها الهلالي المحزوز إلى الداخل بشكل غائر، والذي يمثل رمزاً من رمزيات الإله القمر، والذي يعد الإله تألب صورة من صوره ، كما عبر عن أنامل أصابع اليد بفواصل عن طريق خطوط أفقية محزوزة أيضاً وأظهر أناملها بشكل بارز إلى الخارج، وأضفى عليها فناً جمالياً وشكلها على هيئة سنام الجمل ، كما نجد أنه قد عبر عن ثنايا الجلد بخطوط أفقية ومحزوزة بشكل غائر إلى الداخل ، وهنا نجد أن الفنان قد أبدع فيها وأتقن ومثلها تمثيلا فنياً رائعاً وأصبغ عليها آية من آيات الفن البديع تبرز تقنياتها المتطورة وشكلها تشكيلا دقيقاً لافتاً للنظر بديمومة الحركة الطبيعة ليد الإنسان وكأنها في حركة عمل[36].

ولما كانت الحكمة الإلهية قد اقتضت أن النفس الإنسانية تدرك بالحواس ما ينفعها وما يؤذيها من قوام البدن خلقت لها آلة لتتناول فيها ما ينفعها وتبعد عنها ما يضرها وهي اليد[37] . وهي عضو عجيب من جسد الإنسان تستقر فيه تقريباً كل قواه العضلية وقواه الحسية والقدرة على حاسة اللمس[38] . واليد تعني : الكف ، وهي الراحة مع الأصابع[39] . إن ما تمتعت به اليد من قدرة فعالة على كثير من الأعمال المختلفة المناطة بأدائها جعلت من الإنسان القديم أن يتخذ منها رمزاً دينياً يرتبط بمعتقداته .

ففي مصر القديمة اعتقد المصريون بأن الإله أتوم أوجد ذاته من أصابعه[40] . لذلك صور إله أتوم ن آمون بأيدٍ لا تكاد تنفصل عن الجسد . وفي مركب الإله رع المقدس صور قرص الشمس يتنقل بين القارب النهاري والقارب الليلي مرفوعاً بأذرع آلهة الشرق دافعة

به إلى أيدي آلهة الغرب التي تجلس في القارب الليلي[41].

وفي عهد اخناتون صور الإله آتون كجوهر سماوي في شكل قرص الشمس تخرج منه الأشعة منتهية بأيدي بشرية تحمل كل يد منها العلامة الهيروغليفية الدالة على علامة الحياة[42].

وفي اليمن القديم نال رمز الكف قدراً من الأهمية لما تتميز به اليد من صفات تتناسب مع معبوداته فاتخذها اليمني القديم رمزاً لها فصورها ورسمها على الصخور السطحية وعلى جدران المعابد ودوّن بجانبها نقوشاً نذرية مقدمة للإله، وعلى جدران المنشآت العامة لا تصاحب معها أي من الكتابات النقشية ، وعلى الكهوف الصخرية واللوحات التصويرية وغيرها ومثلها على هيئة تماثيل وتمائم وتعاويذ للحماية من الحسد والمرض والعين الشريرة وغيرها من معتقداته الدينية .

ويأتي رمز الكف في النقوش النذرية المقدمة إلى الآلهة إما منفرداً أو بجانب صور لرموز أخرى . أو قد يأتي وحده بشكل متكرر، ومن تلك الآلهة التي اتخذ رمزاً لها منها الإله ود والإلهة شمس ولإله عثتر حيث جاء مصاحباً لعدد من النقوش التي قدمت لهما فقد صور ونحت على تلك النقوش إما في أعلاها أو في أسفلها أو بأحد جانبيها، وقد جاء فيها بأشكال متعددة في تلك النقوش المعروفة حتى الآن .كما جاء في البعض منها ملصق الأنامل والبعض الآخر منفصل أنامل أصابع الأيدي وهي في حاله تمعن في الإجلال والتقديس والابتهال الإلهي. وقد قدمت هنا للإله تألب ريام في محل إقامة مناسك الشعائر والطقوس الدينية التي كانوا يؤدونها آنذاك وذلك في المكان الكائن بمدينة ظفار والمسمى بمقبرة حيث النصب القائم الذي تم إقامة نصبه فيها.

وهذا النوع من التقدمات والنذور تدل دلاله واضحة على شدة تقوى أصحابها ومدى ارتباطهم بمعبوداتهم، وتبرز أهمية التقديس نحوها ، ويستدل من تلك النقوش على أن تقدمات أعضاء الجسد على هيئة تماثيل مصنوعة من البرونز كقرابين للمعبودات ليس إلا رمزا فقط كبدائل لأعضاء أجسادهم التي قد تعاني من آلام شديدة فعبر عنها بالجزء الخاص بها ، وهذا لا يعني أن أصحاب تلك النقوش يضعون أعضاء أجسادهم وممتلكاتهم في المعابد وإنما يقدمونها رمزا لتكون دائماً تحت حماية تلك المعبودات إذ كانوا يقدمون قرابين رمزية تقابلها كبدائل عنها، كأن يقدموا تماثيل ذكور مثلاً مقابل البنين وتماثيل إناث مقابل البنات وهكذا.

وهذا العضو الجسدي من التقدمة ممثل بالأيدي ما هي إلا رموز كانت تصنع من البرونز وقد تكون من مواد أخرى، إلا أنها كانت بعد أن تقدم كتماثيل بديلة عنها ، وهناك العديد من هذه التماثيل بأشكال وأنواع مختلفة الأحجام تم تقدمتها للآلهة ووضعها في معابد وقد عرف منها الكثير إلا أنها تكاد تخلو من أي نقوش نذرية مدونة عليها .

الهوامش والمراجع:

1 - Hofner, M., in "Gotter und Mythen im Vorderen Orient", Stuttgart, 1965,S.256.; Grohmann, A., "Kulturgeschichte des Alten Oriens (III, 4) Unterabschnitt ,dans Handbich der Altertumswissenschaft , Muennchen 1963,S.245.; Von Wissmann, V. H., "Zur Geschichte und Landesunde von Alt_Sud_Arabien (SEG III-OAMSB 246) wien 1964. S. 293.

2 -ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (ألب) ؛ الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ،

ج 1 ، دار القاموس الحديث ، بيروت لبنان ، (بدون تاريخ) ص 148 .

3- Al_Selwi.Ibrahim. Jemenitische Worter in den Worken Von al Hamdani und Naswan und Ihre parallelen in den semitischen .sprachen. Berlin, 1987. S. 24

4 - عنان ، زيد بن علي ، تاريخ حضارة اليمن القديم ، المطبعة السلفية ، ط 1 ، 1396هـ / 1976م ، ص 264 .

5 - صدقة ،إبراهيم صالح عامر، آلهة كما ترد في نقوش محرم بلقيس، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الآثار والأنثربولوجيا، جامعة اليرموك، 1994م ، ص48.

6_ Hofner, M.: in "Gotter und Mythen im Vorderen Orient"_ Stuttgart, 1965.S. 483552_S,542.

7 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، ، رسالة ماجستير ، مؤسسة العفيف الثقافية ، جامعة صنعاء ، 1990م ، ص 29.

8 - بافقيه، محمد عبد القادر، مملكة مآذن شواهد وفرضيات ، مجلة دراسات يمنية، العدد الرابع والثلاثون ، أكتوبر نوفمبر ديسمبر ، 1988م.

9 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف، الإكليل الجزء الأول ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، منشورات المدينة ، الطبعة الثالثة ، 1986م ، ص388.

10 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف الإكليل الجزء الثاني ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، منشورات المدينة ، الطبعة الثالثة ، 1986م ، ص256.

11- باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص29.

12 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص30.

13 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص203.

14 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص16.

15 باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص194، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني ، دار العلم للملايين ، بيروت ، بغداد ، الطبعة الأولى، 1969م، ص 295، وما بعدها.

16 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص26.

17 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف، الإكليل الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص 235، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني ، دار العلم للملايين ، بيروت ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ص 325.

18 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص23.

19 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف، الإكليل الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص325.

20 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف، الإكليل الجزء الثامن تحقيق نبيه أمين فارس ، دار العودة بيروت ، دار الحكمة ، صنعاء، (بدون تاريخ)، ص150.

21 - - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص204.

22 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص28.

23_Hofner, M.,in "Die Religionen Altsyriens, Altarabiens und der Mandaer" Stuttgart, Berlin_Koln, ;Mainz, 1970 S265

القحطاني ، محمد سعد عبده- آلهة اليمن القديم الرئيسة ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي

. دراسة آثارية تاريخية . رسالة دكتوراه غير منشورة . جامعة صنعاء ،1418هـ-1997م، ص 59-81.

24 - ابن الكلبي ، هشام بن محمد السائب ، كتاب الأصنام ، تحقيق محمد زكي ، القاهرة ، 1924م1965-م، ص 9 ، 10 ، 13 .

25 - بافقيه، محمد عبد القادر ،وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، 1985م، 132-134.

26 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف، الإكليل الجزء الثامن تحقيق نبيه أمين فارس ، ص 66 ،الصلوي ، إبراهيم؛ نقش جديد من وادي ورور ، دراسة في دلالاته اللغوية والدينية ، كلية الآداب جامعة صنعاء ، عدد 19 ، 1996م، ص 22-62.

27 - عبد الله ، يوسف محمد ، عم تتحدث النقوش اليمنية القديمة ، الأسبوع الثقافي اليمني الأول بالكويت ، 1980م، ص 29 ، 30 .

28 - Hofner, Die religionen. S. 256.

29 - Beeston, A, F, L,et al , SabaicDictionary,University of Sanaa 1982,S,120.

30 - Von, Wissmann, Zur geschichte, S. 303-30.

31 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ، الطبعة الثالثة ، 1402هـ 1998-م ، 62، 167.

32 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس، المرجع السابق ، ص 62.

33 - Beeston, A, F, L,et al , SabaicDictionary,S, 9.33

34 - Hofner, Die religionen, s. 255.

344.

35 - YEMENaupaysdelareiedeSabaExpositionpresenteeal> Institutdumondearabedu25octobre 1997aufevrier 1998.INSTITUT DU MONDE ARABE.p.26.

36 - الدميري، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ، ج 1 ، 2 ، دار القاموس الحديث بيروت (بدون تاريخ)ج ، ج2 ، ص 112 ، 113 ، 114 .

37 - سيرنج فيليب ، الرموز في الفن ، الأديان ، الحياة ، ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق ، سورية ، ط 1 ، 1992م ، ص 273. القحطاني ، محمد سعد عبده، آلهة اليمن القديم الرئيسة ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي ،المرجع السابق ،ص 215-218.

38 - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين ، لسان العرب ، ج 1 ، 2 ، 3 ، دار التراث العربي ، بيروت ، 1988م ، مادة (كفف) ، معجم الوجيز في اللغة ، المعجم الوجيز في اللغة العربية ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) ، ص 684 ، 685 .

39 - تشرني ، ياروسلاف ، الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدري ، مراجعة محمود ماهر طه ، دار الشروق ، ط 1 ، 1416-1996م ، ص 33 ، 50 ، 54 .

40 - تشرني ، ياروسلاف ، الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدري ، مراجعة محمود ماهر طه ،المرجع السابق ، ص 44 .

41 - تشرني ، ياروسلاف ، الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدري ، مراجعة محمود ماهر طه ،المرجع السابق ، ص 82 ، 223 .

42 - ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (متن).

المراجع باللغة العربية :

1 - ابن الكلبي ، هشام بن محمد السائب . كتاب الأصنام ، تحقيق محمد زكي ، القاهرة ، 1924م1965-م.

2 - -ابن منظور ، لسان العرب ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين - لسان العرب ، ج 1 ، 2 ، 3 ، دار التراث العربي ، بيروت ، 1988م .

3 - - الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ، ج 1 ، 2 ، دار القاموس الحديث بيروت (بدون تاريخ) .

4 - الصلوي ، إبراهيم، نقش جديد من وادي ورور ، دراسة في دلالاته اللغوية والدينية ، كلية الآداب، جامعة صنعاء ، عدد 19 ، 1996م.

5 - القحطاني ، محمد سعد عبده- آلهة اليمن القديم الرئيسة ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي ، دراسة آثارية تاريخية ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة صنعاء ،1418هـ- 1997م.

6 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ، الطبعة الثالثة ، 1402هـ 19982-م.

7 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف الإكليل الجزء الأول ، تحقيق محمد علي بن الاكوع، منشورات المدينة ، الطبعة الثالثة ، 1986م.

8 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف الإكليل الجزء الثاني ، تحقيق محمد بن علي الاكوع، منشورات المدينة ، الطبعة الثالثة ، 1986م.

9 - الهمداني ، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف الإكليل الجزء الثامن تحقيق نبيه أمين فارس ، دار العودة بيروت ، دار الحكمة ، صنعاء (بدون تاريخ).

10 - باسلامة ، محمد عبد الله ، شبام الغراس ، رسالة ماجستير ، مؤسسة العفيف الثقافية ، جامعة صنعاء ، 1990م.

11 - بافقيه، محمد عبد القادر، مملكة مآذن شواهد وفرضيات ، مجلة دراسات يمنية، العدد الرابع والثلاثون ، أكتوبر نوفمبر ديسمبر ، 1988م.

12 - بافقيه، محمد عبد القادر ،وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس، 1985م.

13 -تشرني ، ياروسلاف ، الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدري ، مراجعة محمود ماهر طه ، دار الشروق ، ط 1 ، -1416 1996م .

14 - سيرنج فيليب ، الرموز في الفن ، الأديان ، الحياة ، ترجمة عبد الهادي عباس ، دار دمشق ، سورية ، ط 1 ، 1992م .

15 - صدقة ،إبراهيم صالح عامر، آلهة كما ترد في نقوش محرم بلقيس، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الآثار والأنثربولوجيا، جامعة اليرموك، 1994م .

16 - عبد الله ، يوسف محمد ، عم تتحدث النقوش اليمنية القديمة ، الأسبوع الثقافي اليمني الأول بالكويت ، 1980م .

17 - جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني ، دار العلم للملايين ، بيروت ، بغدد ، الطبعة الأولى، 1969م.

18 - عنان ، زيد بن علي ، تاريخ حضارة اليمن القديم ، المطبعة السلفية ، ط 1 ، 1396هـ / 1976م .

19 - المعجم الوجيز في اللغة العربية ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) .

المرجع باللغة الأجنبية :

1. Grohmann. A., "Kulturgeschichte des Alten Oriens (III, 4) Unterabschnitt .dans Handbich der Altertumswissenschaft . Muennchen 1963.

2. Hofner. M.: in "Gotter und Mythen im Vorderen Orient", Stuttgart, 1965.S. 483552-

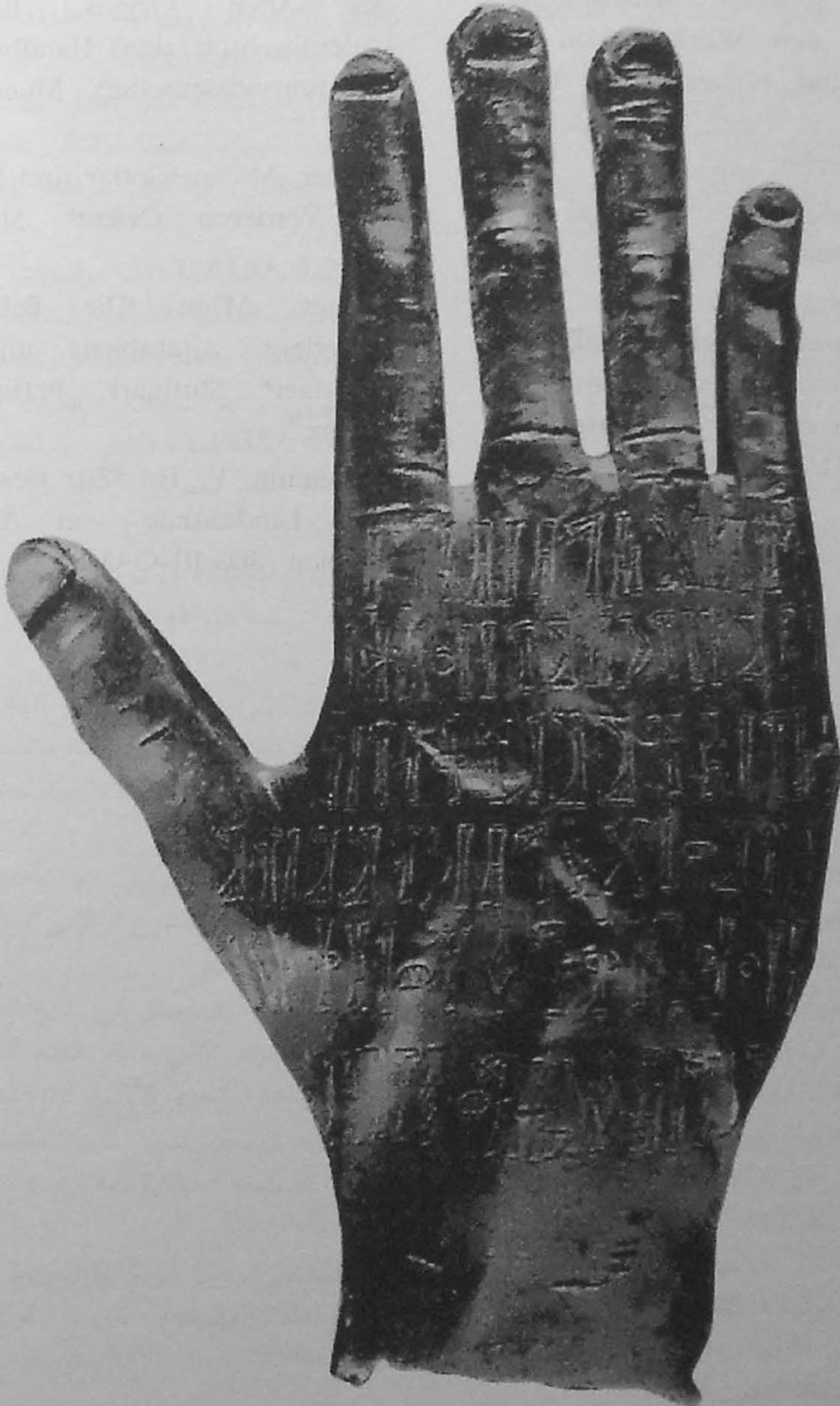
3. Hofner. M.:in "Die Religionen Altsyriens. Altarabiens und der Mandaer" Stuttgart. Berlin_Koln, Mainz. 1970.

4. Wissmann. V. H.: "Zur Geschichte und Landesunde von Alt_Sud_ Arabien (SEG III-OAMSB 246) wien 1964.

5. _Al_Selwi. Ibrahim. Jemenitische Worter in den Worken Von al Hamdani und Naswan und Ihre parallelen in den semitischen sprachen. Berlin. 1987.

6. Beeston. A. F. L.et al . SabaicDictionary.University of Sanaa_ 1982.

7. YEMENaupaysdelareiedeSabaExpositionpresenteeal>_Institutdumonde arabe du 25 octobre 1997aufevrier 1998 INSTITUT DU MONDE ARABE.



مـديـنـة مـلـحـظ

«ذمار الصغرى»
مـركـز حـكـم ولايـة الـيـمـن

في عهد الوالي العثماني بهرام باشا (978 - 983هـ /1570 - 1575م)

إعداد / أحمد صالح عبدربه المصري
مدرس مساعد - قسم التاريخ- جامعة ذمار
a.s.m73@hotmail.com

توطئة:

شهدت مرحلة الحكم العثماني الأول لليمن 945 - 1045هـ / 1538 - 1635م صراعاً سياسياً وعسكرياً بين السلطة العثمانية وأئمة الزيدية، إلا أن ذلك لم يكن السمة الغالبة لها، فقد تخللتها فترات هدوء نسبي، كما أن دور الولاة العثمانيين خلال تلك المرحلة لم يقتصر على النواحي العسكرية والسياسية فحسب، بل اهتموا بالجوانب الحضارية والاجتماعية وبمظاهر الحياة الدينية، فأقاموا المنشآت الخيرية العامة كبناء المساجد والمدارس والطرق والسدود، وأحيوا المناسبات الدينية مثل المولد النبوي الشريف، واهتموا بمحامل الحج، كل ذلك بهدف تخليد ذكرهم، وتنفيذاً لسياسة السلاطين الذين أوصوهم بضرورة مراعاة تلك الجوانب للتقرب من الأهالي والتخفيف تذمرهم، ولتفويت فرصة إعلان الثورات.

وقد تولى حكم اليمن خلال تلك المرحلة اثنان وعشرون والياً عثمانياً، حظي العديد منهم باهتمام المؤرخين اليمنيين الذين دوّنوا سيرهم إما في مؤلفات تاريخية خاصة بهم، أو ضمن مؤلفات تناولت تاريخ اليمن خلال تلك المرحلة، فنقلت إلينا معلومات دقيقة عن أعمالهم ومنجزاتهم، خاصة في تلك المؤلفات التاريخية التي أنحاز مؤلفوها إلى جانب العثمانيين، وعلى الرغم من المبالغة والهالة العظيمة التي أُحيطت بها أعمال الولاة فيها، إلا أن تلك المؤلفات ـ التي لا يزال الكثير منها مخطوطاً ـ تعد من أهم المصادر الأساسية في الدراسات التاريخية سواء من النواحي السياسية أو الحضارية، وخاصة تلك التي دونت أحداث الفترة التي عاصرها مؤلفوها، وذلك لتفرد الكثير منها بأخبار ومعلومات

مفصلة دون غيرها من المصادر عن حوادث معينة، إما لقرب مؤلفيها من موقع الحدث أو تعمدهم إبراز هذه الحوادث لأي سبب من الأسباب، لذلك فإن مسألة تحقيقها يعد من القضايا المهمة، فإلى جانب ما توفره المخطوطات من مادة علمية، فإن عملية تحقيقها يأتي من باب الإسهام في نشر التراث.

ولعل خير مثال على ذلك مخطوطة (بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام)[1] للمؤرخ محمد بن يحيى المطيب الزبيدي[2]، التي اعتنى فيها بتسجيل أحداث فترة مهمة من تاريخ الحكم العثماني لليمن وهي فترة حكم الوالي بهرام باشا[3] (978 ـ 983هـ /1570ـ 1575) فإلى جانب اهتمام

---

(1) هو الكتاب الذي ألفه المؤرخ المطيب الزبيدي خدمة للدولة العثمانية حيث أكد ذلك بقوله «ألف هذا الكتاب خدمة للحضرة الشريفة والمكارم العلية المنيفة من خصها الله تعالى بالرياسة الأنسية بالاستحقاق، والنفس القدسية الحاوية لمحاسن الأخلاق»(. ولذكر بعض أيامها في اليمن في عهد بهرام باشا «جمعت فيه بعض تاريخ بعض أيام الدولة العثمانية باليمن المعمور، وما وقع في تلك الأيام من الفتح المشهور، المنصورة بنيابة مولانا [...] بهرام باشا» وقد قسم المؤلف كتابه إلى ستة ابواب، كما رتب أحداث كتابه بطريقة الحوليات، فقد دون أحداث ست سنوات، وقد اجمعت كل المصادر والمراجع، على ذكر نسخة وحيدة للمخطوطة وهي النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس، وصورتها الموجودة في الخزانة التيمورية بدار الكتب في القاهرة وهي صورة منسوخة من ميكروفيلم للنسخة الأصلية.(سالم ، المؤرخون اليمنيون ، صـ 52.للمزيد من التفاصيل عن المخطوطة انظر المصري ، موقف المؤرخين اليمنيين: صـ191ـ 193)

(2) هو محمد بن يحيى المطيب الزبيدي الحنفي أحد أشهر المؤرخين اليمنيين في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وممن عايشوا أحداث تلك الفترة، فقد أرخ لبعض مجريات تلك الأحداث (فترة حكم بهرام باشا 977ـ 983هـ /1569 ـ 1575م)، وكان من أشد المؤرخين تحيزاً إلى جانب العثمانيين، حظي بشهرة علمية كبيره في مدينة زبيد، وصفه الرحالة الجابري في كتابه(سفينة السفر) ، حين زار مدينة زبيد سنة 996هـ / 1588م والتقى به في مسجد الأشاعر بقوله «الشيخ الإمام سيبويه اليمن وبهجة الزمن شيخ العربية، ورافع علمها الخافق وناشرها، وجامع أدواتها المتفرقة وحاشرها جمال الدين محمد بن يحيى المطيب الحنفي، طيب الله أنفاسه وحلا بثمار الفرايد غراسه، إمام برع في هذا الفن وأعرب عن مخابئه وأتقن» وقال عنه أيضا «وحضرت مراراً مجالس تدريسه فما رأيت أفصح من منطقه وترسله للقراءة في الإملاء للتفسير وغيره، مع اللهجة البارعة المعجمة، والألفاظ المطيعة له في حال الإملاء «. وقال أيضا «وكان باذلاً نفسه للإقراء، ولنفع المسلمين من الطلاب وحلقته مشحونة بالصغير والكبير والشريف والحقير، مع لطافة الأخلاق [...] وكفاه شرفاً أن صيته بلغ الأفاق، وانه بهذا الفن وتفرده بالعربية حصل له الاتفاق [...] وجميع فضلاء زبيد الآن وكتابها، وفضلائها وأدبائها يحفوا في هذا الفن عليه وهو شيخ ملقح، قل من قرأ عليه إلا ونجب» شغل المطيب منصب القضاء والإفتاء في زبيد على المذهب الحنفي و تولى التدريس في مدارسها كالمدرسة الفاتنية كما تولى إمامة جامع الأشاعرة والتدريس فيه إلى جانب التدريس في الجامع الكبير الظافري. و تتلمذ على يديه مجموعة من علماء تهامة عامةً، وزبيد خاصة. لا يُعرف على وجه الدقة متى كانت وفاته، إذ لا تتوفر معلومات في المصادر التي بين أيدينا حول ذلك سوى ما ذكره العلامة الحضرمي في كتابة (جامعة الأشاعرة) حيث حدد تاريخين مختلفين لوفاته بقوله «العلامة محمد بن يحيى المطيب المتوفى سنة 1007هـ [1599م] وقيل سنة 1028هـ [1618م] «. ولا نعرف المصادر التي اعتمد عليها الحضرمي في تحديده لهذه التواريخ، واعتماداً على ما ذكره العلامة الحضرمي فإن التاريخ الأقرب إلى الدقة لوفاة المؤرخ المطيب هو عام 1007هـ / 1559م. لأن الفتوى على المذهب الحنفي في زبيد كانت من الوظائف التي شغلها المؤرخ، وانتقلت هذه الوظيفة إلى ابنه أحمد المتوفى سنة 1027هـ / 1617م. فإذا اعتبرنا أن وفاة المؤرخ كانت سنة 1028هـ / 1618م، فكيف تؤول وظيفة الفتوى إلى ابنه وهو مازال على قيد الحياة. كما أن وفاة أحمد بن محمد المطيب وهو ابن المؤرخ كانت سنة 1027هـ / 1617م ، ومن الطبيعي والمألوف ـ ليست قاعدة ـ أن تكون وفاة والده قبل هذا التاريخ لوجود فارق زمني بين الأب والابن، لذلك فربما يكون المؤرخ المطيب قد توفى عام 1007هـ / 1559م هو التاريخ الأكثر دقة لذلك.

(3) بهرام باشا هو ابن مصطفى باشا قرة شاهين ، تولى بكلربيكية اليمن سنة 977هـ/ 1569م ، وهو من

المؤرخ بإبراز النواحي العسكرية في سيرة بهرام باشا، فإن الجوانب الحضارية في سيرة هذا الوالي قد حظيت بالحجم الكبير من اهتمامه أيضا، إلا أن المعلومات التي ذكرها المؤرخ المطيب عن مدينة ملحظ التاريخية ربما كانت أهم ما ورد في المخطوطة، فلا تكاد تخلو ورقة من أوراقها إلا وفيها ذكر أو إشارة للمدينة.

وقد توقفت كثيراً عند تلك المعلومات وتُقتُ إلى معرفة المزيد عن المدينة، وما دفعني إلى ذلك هو غياب ذكرها في المعاجم الجغرافية اليمنية التي اطلعت عليها، و هذا الأمر حفزني؛ لإعداد هذه الدراسة بما توفر من معلومات عن المدينة سواء لدى المؤرخ المطيب، أو في ثنايا المخطوطات التاريخية المعاصرة لفترة الحكم العثماني الأول، أم لدى المؤرخين المتأخرين، لتكون اللبنة الأولى لاعداد دراسة عميقة و متخصصة، للتعريف بهذه المدينة التاريخية، لما يمثله ذلك من أهمية تاريخية وسياسية، وعمرانية لتاريخ مدينة ذمار، خاصة واليمن عامة في العهد العثماني الأول، إذ ليس من السهل بمكان أن تندثر مدينة، أو تمحى معالمها، ويُغفل ذكرها، خاصة وأنها قريبة العهد.

وصول العثمانيين إلى اليمن

كان وصول العثمانيين إلى اليمن وفقاً للخطة التي تبنتها دولتهم، لمواصلة المسار الذي انتهجه المماليك في مواجهة خطر التوسعات البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وقد وصلت أولى الحملات العسكرية العثمانية إلى السواحل اليمنية سنة 945هـ / 1538م بقيادة سليمان باشا الخادم[1]، ولم يقتصر الوجود العثماني على السواحل فقط، بل توغل في مناطق اليمن الداخلية لإخضاعها،

أسرة لها باع طويل في حكم اليمن ، فوالده مصطفى باشا قرة شاهين تولى بكلربيكية اليمن خلال الفترة 964-968هـ / 1556-1560م، و أخوه ورضوان باشا تولى بكلربكية اليمن أيضاً خلال الفترة 972-974هـ / 1564 - 1566م . اختلفت روايات المؤرخين حول شخصيته فقد وصفه المؤرخ الموزعي بحسن السياسة ورفع المظالم عن الناس، وأنه خفف على الرعية ثلث المظالم ولم يفعل ذلك أحد قبله ووصفه المؤرخ المطيب بقوله « وكان مشتمل على جمله من المحاسن منها العلم . والفهم وحسن التصور والرأي الصائب في السياسة واليد الطولي في علم الرقم والحساب »، في حين وصفه المؤرخ عيسى بن لطف الله بالشدة والقسوة في التعامل مع المعارضين له والتنكيل بهم، فقال عنه « ثم أن بهرام باشا شهر سيفه على قبائل اليمن، ولظهر ما في صدره عليهم من الضغائن والإحن، وقتلهم غيلة وخفية قتلاً جاوز الحد » . ومن مآثره لختطاط مدينة ملحظ خارج مدينة نمار وذلك سنة 978هـ / 1570م ، وضرب السكة فيها والتي عرفت بالملحظية، انتهت ولايته سنة983 هـ/1575م، وغادر اليمن متوجهَ إلى مكة لأداء فريضة الحج، وحين وصل إلى الباب العالي واجه شكوى من أهل الدفتردار الذي قتله في اليمن، وحبس بسبب ذلك. (الموزعي: الإحسان، صـ35،33؛ المطيب ، بلوغ المرام، صـ 289 ؛ لطف الله ؛ روح الروح، صـ 183، 191؛الكبسي ، اللطائف السنية ص189؛ بن داعر ، الفتوحات المرادية، جـ 1، قـ 214).

(1) سليمان باشا: من خواص السلطان سليم بن بايزيد تتولى عدة مناصب منها رئاسة الوزارة « الصدارة العظمى »عزل عنها بعد أن فشل في القضاء على البرتغاليين في البحر الأحمر في حملته المشهورة سنة 945 هـ/ 1538م، انسحب من الحياة السياسية وقضى بقية حياته في إقطاعه الخاص حتى وفاته سنة 960 هـ \ 1553 م اشتهر عنه حبه لسفك الدماء حيث قتل الكثير من أمراء العرب منهم الأمير حاتم الحمزاوي في مصر، والأمير عامر بن داود صاحب عدن . (سالم، الفتح العثماني ،هـ ،صـ 167 ، 168 ؛ النهروالي ؛ البرق اليماني ، صـ 70 ، 77 ، 80).

ومثّلت حملة أويس باشا[1] 952هـ/ 1546م أولى الحملات العسكرية لتحقيق ذلك.

عقب تلك الحملة دخل العثمانيون في صراع مرير مع أئمة الزيدية من آل شرف الدين، وتمكن الأمير المطهر بن شرف الدين[2] من هزيمتهم، وحصر وجودهم في منطقة زبيد[3] خلال الفترة 963ـ975هـ / 1556ـ1568م. الأمر الذي دفع الدولة العثمانية إلى إرسال حملة كبيرة بقيادة سنان باشا[4] سنة 976هـ / 1568م والذي من استعادة السيطرة على معظم أقاليم بلاد اليمن، حيث أخضع في بداية حملته المناطق الوسطى والجنوبية حتى عدن، ثم تقدم إلى المناطق الشمالية، فسيطر على صنعاء، ووصل بحملته إلى معاقل الأمراء الزيديين في ثلا[5] وكوكبان[6]، وتوصل إلى عقد صلح مع الأمير المطهر منتصف ذي الحجة سنة 977هـ/ 1570م[7]. أصبحت بموجبه معظم المناطق الواقعة إلى الشمال من صنعاء تحت سلطة آل شرف الدين على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان

---

(1) اويس باشا ، من مماليك السلطان سليم تولى حكم اليمن سنة 952 هـ/ 1546م خلفا للوالي مصطفى باشا النشار ، قتل في المناطق الوسطى من اليمن إثناء تقدمه إلى صنعاء على يد بعض رجاله وعلى رأسهم حسن بهلوان سنة 954هـ/ 1548 . (النهروالي: نفس المصدر ، صـ 95).

(2) الأمير المطهر بن شرف الدين: هو الأمير المطهر بن الإمام يحيى شرف الدين، عُرف بالشجاعة والإقدام والحزم والسياسية، دخل في صراع مع أخوته ووالده بعد أن استبعد عن ولاية العهد، لعرج في إحدى قدميه، وهذا يخالف شروط الإمامة في المذهب الزيدي. وحين تقدم العثمانيين نحو مناطق الإمام شرف الدين تولى قيادة القوة الزيدية في حروبها ضدهم، وألحق بهم خسائر كبيرة، ثم دخل في صلح معهم، كانت وفاته سنة 980 هـ / 1572م. (الإمام الشوكاني: البدر الطالع، جـ2، صـ 309 ـ 310؛ الشلي: السناء الباهر، صـ 583 ـ539).

(3) زبيد : كانت تعرف قديماً بالحصيب وهي مدينة في وادي زبيد المشهور واطلق اسم الوادي على المدينة وتقع بين بلدة بيت الفقيه ومدينة حيس في تهامة. ويقال أن محمد بن زياد مؤسس الدولة بني زياد هو الذي أختطها في القرن الثالث الهجري. (الحجري، مجموع بلدان اليمن، صـ 733؛ المقحفي : معجم البلدان، جـ 1، صـ 733).

(4) سنان باشا ، تربى في السراي السلطاني في عهد السلطان سليمان القانوني ، صار أمير في سناجق ملاطية وقسطلوني في الأناضول، ثم في غزة وطرابلس ، ثم اصبح بكلربيكياً لولايات أرض روم وحلب ومصر ، ثم قاد حملة اليمن سنة =976 هـ / 1568م ، وتولى مصر ثانية بعد ذلك، وقاد الحملة التي استعادت تونس سنة 980هـ / 1573م . عاد إلى الأستانة وأصبح وزيراً، وفي عهد السلطان مراد الثالث ثم تولى الصدارة العظمى بعد عودته من حملة بلاد فارس ، ومنذ ذلك الوقت حتى وفاته سنة 1004هـ / 1595م تولى الصدارة العظمى خمس مرات ، كما تولى قيادة الجيوش العثمانية خمس مرات أيضا، نال شهرة كبيرة حتى قيل انه ثالث الصدرين العظيمين إلى جانب رستم باشا و محمد باشا الصوقللي. (سالم ، المرجع سابق، هـ ، صـ299 ـ 300، نقلاً عن كاتب جلبي ، فذلكة التواريخ ، باللغة التركية ،جـ1 ، صـ76 ، 77 ؛ المحبي ؛ خلاصةالأثر، جـ 2، 214، 215).

(5) ثلا ، بلدة مشهورة من نواحي صنعاء إلى الغرب الشمالي منها بحوالي 45 كم ، وهي من البلدان الحميرية القديمة، اتخذها المطهر مقراً له في حربه مع العثمانيين لشدة حصانتها ووعورة طرقها. (الحجري ، المصدر سابق، جـ1 صـ 166، إبراهيم المقحفي ، المرجع سابق، جـ1 صـ 259).

(6) كوكبان: حصن شهير إلى الغرب الشمالي من صنعاء ويرتفع حوالي 3000 متر عن مستوى سطح البحر. (المقحفي، المرجع نفسه،جـ2، صـ 1375).

(7) سالم، المصدر سابق ، صـ113، 114، 184، 245، 251، 284، 293 .

العثماني، في حين بقيت صنعاء وبعض المناطق الواقعة شمالها، ومعظم المناطق الواقعة جنوبها تحت الحكم العثماني المباشر، كما تضمنت بنود الصلح التزام المطهر بعدم مساعدة أخيه الأمير علي الذي كان متحصناً في حصن حب.[1] والذي تمكن في السنة نفسها من فك الحصار، وإنزال الهزيمة بالعثمانيين في تلك الجهات، وفي الوقت نفسه وصل إلى اليمن الوالي بهرام باشا؛ بهدف تعزيز حملة سنان باشا، وكانت المهمة الرئيسة التي كُلف بها بعد وصوله إلى اليمن هي الاستيلاء على حصن حب، والقضاء على الأمير علي بن الإمام شرف الدين[2]، وقد شرع في تنفيذ مهمته، حيث بدأ بقتال القبائل الموالية للأمير علي في تلك الجهات، من ثم توجه لمحاصرة الحصن، واستولى عليه في رجب 978هـ / 1570م[3].

استثمر بهرام باشا حالة الاستقرار السياسي الذي عاشته السلطة العثمانية في اليمن، نتيجة لحملة سنان باشا، وعقد الصلح مع الأمير المطهر بن شرف الدين من ناحية، وموت الأمير علي بن شرف الدين، والاستيلاء على حصن حب من ناحية ثانية، حيث استقر في منطقة ذمار[4] واتخذ منها مركزاً لحكمه، فأقام مخيمه خارج المدينة متبعاً بذلك نظاماً سار عليه قادة الحملات العثمانية حيث عملوا على اقامة المعسكرات (المخيمات) خارج المدن الرئيسة، واتخذوا منها مقراً مؤقتاً لحكمهم أثناء تحركاتهم، وتنقلاتهم في الأقاليم اليمنية[5].

وعمل على توطيد حكمه في المناطق التي سبق وأن بسط العثمانيون نفوذهم عليها، وتمكن من القضاء على التمردات القبلية التي اندلعت فيها[6]، كما شجعته تلك الظروف على القيام بتوسيع ممتلكات الدولة العثمانية في مناطق لم تخضع من قبل لسلطتها، حيث تركزت توسعاته العسكرية في مخلاف جعفر[7]، والمنطقة الواقعة جنوب غرب صنعاء إلى شمال غرب ذمار، حتى حدود تهامة وهي

---

(1) النهروالي: المصدر سابق، صـ 430، 431، 404، 433، 438، (حصن حَبّ :حصن في أعلى جبل بعدان في محافظة إب ويعتبر من أمنع حصون اليمن ويبلغ إرتفاعه حوالي 2200م عن سطح البحر. الحجري، المصدر سابق ، جـ2، صـ 266؛ المقحفي : المرجع، سابق جـ1، صـ400).

(2) النهروالي: المصدر سابق، صـ438

(3) النهروالي: المصدر سابق صـ 439.

(4) ذمار: مدينة تقع جنوب صنعاء بمسافة 95 كم، يعود تاريخها إلى بداية القرن الأول الميلادي واشتهرت كواحدة من مراكز الإشعاع العلمي. (الحجري: المصدر سابق، جـ 2، صـ 341؛ المقحفي: المرجع سابق، جـ 1، صـ 694).

(5) الأكوع: عوامل مقاومة أهل اليمن للحكم العثماني، مجلة الإكليل، صـ 31.

(6) ومن تلك التمردات تمرد المنتصر العلاف في قفر حاشد من بلاد يريم جنوب مدينة ذمار، وتمرد المويه في جبلة جنوب غرب مدينة إب، تمرد الشيخ العواضي صاحب حصن يفوز بمنطقة عراس جنوب مدينة يريم، وتمرد أهالي منطقة جبن جنوب غرب مدينة رداع بزعامة الشيخ عمرالذرحاني. (المطيب : المصدر سابق ؛ صـ 245، 246، 258، 272)

(7) المطيب ، نفس المصدر، صـ 236 (مخلاف جعفر :وهو ما يعرف اليوم بالعدين، إب المنيخرة، السحول، وقيل أنه عرف، بذلك نسبة إلى الجعافر وهم ملوك تلك المنطقة قبل الإسلام.المقحفي: المرجع سابق، جـ2، صـ337).

مناطق تتميز بخصوبتها الزراعية، وشدة وعُورتها[1].

كانت تلك هي الظروف السياسية التي جعلت بهرام باشا يتخذ من منطقة ذمار مركزاً لحكمه، ويختط بها مدينة ملحظ لتكون مقراً لإدارة أمور ولاية اليمن خلال فترة حكمه التي استمرت ست سنوات 978-983هـ/ 1570-1575م. فلعبت المدينة بذلك دوراً مهماً في النواحي السياسية، كما مثّل بناؤها نموذجاً للسياسة الإدارية التي اتبعها الولاة العثمانيون في إقامة المنشاءات العمرانية، والخدمية، والتجارية، والاقتصادية في اليمن.

وعلى الرغم من تناثر ذكر مدينة ملحظ في العديد من المصادر التاريخية، سواءً منها التي عاصرت الفترة التاريخية التي انشئت المدينة فيها، أم الفترات اللاحقة، خاصة عند الحديث عن فترة ولاية بهرام باشا 978. 983هـ/ 1570 .1583م، إلا أن تلك المصادر لم تورد معلومات متكاملة، ومُفصلة عن تاريخ المدينة منذ نشأتها، وحتى خرابها، وهو ما جعل الغموض يكتنف تاريخها، ولعل محاولة تتبع ما ورد لدى المؤرخين من معلومات عنها والربط بينها ومقارنتها يعدّ اللبنة الأولى لرسم صورة أولية عن تاريخ المدينة.

مدينة ملحظ عند المؤرخ المطيب

تعد مخطوطة «بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام» للمؤرخ محمد بن يحيى المطيب الزبيد من أهم المصادر التاريخية التي وردت فيها معلومات دقيقة عن مدينة ملحظ كونها دونت سيرة بهرام باشا مؤسس المدينة.

الموقع والتأسيس والتسمية

لم يحدد المؤرخ المطيب موقع المدينة بشكل دقيق، وكلّ ما ذكره حول ذلك بأنها بُنيت خارج مدينة ذمار، مُبيناً أهمية اختيار موقعها لتوسطه «بين صنعاء وتعز وعدن وبعدان وزبيد و التهائم وما والاها إلى جازان».[2]وهي أهم مناطق النفوذ العثماني بموجب صلح سنة(977هـ/ 1570م) بين سنان باشا و الأمير المطهر.

وذكر المؤرخ أن تأسيس المدينة كان في10 رمضان سنة 978هـ / 7 فبراير 1570م بقوله «وفي العاشر من رمضان المبارك منها [يقصد سنة978هـ] أختط مولانا أسعده الله تعالى مدينة ملحظ حرسها الله تعالى، وأمد أهلها من الخيرات بأوفر نصيب وحظ، ونقل ركابه السعيد من مخيمه الأول إلى المدينة، لازال الظفر حالاً ببقعتها المشهورة»[3].

وكان المؤرخ قد ذكر أن بهرام دخل مدينة ذمار نهار الجمعة 15 شعبان سنة 978هـ / 13 ديسمبر 1570م[4].وأنه اجتمع مع سنان باشا في ذمار، وأشار - أيضا - إلى أن بهرام باشا أقام مخيمه

---

(1) وتشمل حصون دنوه ريمة بلاد الجمعة السلفية سماه عتمة . يفعان (المطيب ، المصدر السابق، صـ248، 266، 272،271).

(2) المطيب نفس المصدر . صـ 243.

(3) نفس المصدر: صـ242.

(4) نفس المصدر: صـ 240.

السلطاني بها، وذلك في سياق حديثه عن خروج الموبه[1] على سلطة الدولة العثمانية في الوقت الذي كان فيه بهرام في ذمار، وأن بهرام جرد حملة عسكرية تمكنت من القضاء عليه وقطع مجموعة من رؤوس أنصاره وإيصالها إلى المخيم السلطاني في ذمار.[2] ويُلاحظ من خلال ما ورد عند المؤرخ أن بهرام باشا لم يقم في معسكره الأول في ذمار سوى خمسة وعشرين يوماً فقط، وأنه أنتقل إلى ملحظ، وعلى الرغم من أن المؤرخ قد ذكر أن بهرام أنتقل إلى مدينة ملحظ، إلا أن ذلك لا يعني وجود المدينة بالفعل عند انتقاله، لأنه من غير المعقول أن تُبنى مدينة خلال خمسة وعشرين يوماً. وسنتناول هذه القضية في نهاية الدراسة.

وعلل المطيب تسميتها بملحظ بقوله « وكان في تسمية المدينة بالاسم المذكور تفاؤلاً بأن تكون ملحظاً للخير والبركة والنصر»[3]، مبيناً أيضاً أن عدد حروف أسمها قد وافق تاريخ بنائها بحساب الجمّل [4]بقوله «وعدد حروف الاسم بالجمّل تاريخها، فكانت والله كذلك فطابق الاسم المقصود، وأجتمع في ربعها الخيرات والسعود، و رخصت بها الأسعار، وجلبت اليها البضائع من جميع الأقطار، حتى صارت محط أمن للوافدين، وملجأ خير للقاصدين، ومريحاً للغادين والرائحين، وفي تسميتها يُستنبط تاريخ اختطاطها من عدد حروفها»[5] ، مؤكداً أن بهرام باشا قد فضل السكن في ملحظ بدلاً عن ذمار بقوله:

أشرق الكون واستطار سناهُ •• وغـــدا الليل البهيم نهـــارا
حّلت الشمسُ بُرجها فهو سعدُ •• شامل من دنى ومن قد توارى
لحظ الطرف ملحظ الخير داراً•• فارتضـاها لنزلهِ لا ذمـارا[6]

المنشآت العمرانية

. الجامع

أورد المؤرخ معلومات حول جامع ملحظ، وحدد تاريخ الانتهاء من تعميره بشعبان من سنة 980 هـ / ديسمبر 1572م، بقوله « وفي شعبان من السنة المذكورة، عمّر مولانا وفقه الله تعالى جامعاً بمدينة ملحظ، وأكده وأحكم عمارته وشيده، ووقفه ورتب فيه إماماً ومؤذناً ومقيماً، وأقام به جمعة في غرة رمضان منها (أي من السنة نفسها) وكان من المشاعر المحضورة، وأماكن الفضل المشهورة، ومحل

(1) لم اعثر له على ترجمة ويبدو انه احد مشائخ جبلة جنوب غرب مدينة إب.

(2) نفس المصدر، صـ 242.

(3) نفس المصدر،صـ 242.

(4) المدينة بنيت سنة 978هـ ، وبحساب الجمّـل نجد ان اسمها فعلاً يطابق تاريخ بناؤها، لان حرف م = 40، وحرف ل= 30، وحرف ح = 8، وحرف ظ = 900 ومجموع هذه الحروف يساوي 978، وهو نفس تاريخ تأسيسها. (المشوخي ، المخطوطات العربية ، صـ50).

(5) المطيب المصدر سابق صـ 243.

(6) نفس المصدر،صـ 244.

إجابة الدعوات، ومهبط لأهل الصلاح والخيرات»[1]. دون أن يذكر تاريخ تأسيسه، إلا أنه يمكن القول إن تأسيس الجامع كان في عام 978هـ / 1570م وهو العام الذي اختطت فيه المدينة على اعتباره من المرافق الرئيسة لتكوين المدينة وأن افتتاحه كان بعد مرور سنتين من استقرار بهرام في ملحظ.

و قد وصف المؤرخ المطيب جامع ملحظ بقوله:

زادها الجامع الكريم فخارا •• محكم الصنع لا تبارى شيارا

شاده صاحب السعادة قربى•• لكريم جزاه عدناً قــــرارا

زاده الله رفعة واقتدارا •• وتعالى جلاله أن يبــــــارى[2]

القصر والمباني

ومن المنشاءات العمرانية التي وردت عند المؤرخ قصر ملحظ، فقد ذكره في أكثر من مناسبة، فعلى سبيل المثال: ورد ذكر القصر عند حديث المؤرخ عن فتنة الدفتردار[3] سنة 983هـ/1575م. بقوله «وصلت عروض الأمير علي بك بذمار، ومن معه من الأمراء، والأغوات، تتضمن أن جماعة من العسكر المفسدين صاروا يسعون بالفساد، وينهبون في الطرقات[...] وأنهم قصدوا الأمير علي بك، والأمراء الذين معه إلى القصر [...] وحاصروهم من الصباح إلى المساء، [...] فلما كان نصف الليل بعد ذلك اليوم، خرج الأمير علي بك من القصر من محروس مدينة ملحظ، إلى خارج مدينة ذمار»[4] وقدم المؤرخ المطيب وصفاً للمدينة وقصرها بقوله:

فعلت في الوجود قدراً وأدرت •• بالذي شاد قبل كسرى ودارا

كل قصرٍ بها ينير افتخارا •• أخجل البــدرُ فاستجن سرارا

مثل دار النعيم بالحور •• والولدان أجــــرت في الدنا أنهارا

ما رات ضرة لها العين أصلا •• بل ولا دونها تــــداني اقتدارا[5]

أشار المؤرخ في تلك الأبيات إلى وجود القصور، والمباني الفخمة، وهذه المعلومات تشير إلى التطور العمراني في مدينة ملحظ في عهد بهرام باشا.

مدينة ملحظ مركز حكم ولاية اليمن

أصبحت مدينة ملحظ بعد أن استقر فيها بهرام باشا مركزاً لحكم ولاية اليمن، فقد أدار منها جميع شؤون الولاية خلال فترة حكمه. وقد أشار المطيب إلى أهمية المدينة، وأنها أصبحت جديرة بأن تصبح مقراً لوالي اليمن بقوله «وهي مدينة ... جديرة بأن تصير تحت المملكة العثمانية، ومقراً لباشا

---

(1) نفس المصدر:صـ 254.

(2) نفس المصدر: صـ 244

(3) الدفتردار : لقب عثماني يعني رئيس موظفي الواردات والخزينة في الولاية ، ومن مهامه الإشراف على تنفيذ الأحكام الواردة في الميزانية السنوية ،وعلى التشكيلات المالية الموجودة في الولاية. النهروالي: نفس المصدر، صـ 77.

(4) المطيب: المصدر السابق،صـ 281 .

(5) نفس المصدر: صـ 244.

الجهات اليمانية».[1] ولعل ما ورد عند المؤرخ المطيب من معلومات عن الأحداث السياسية التي شهدتها مدينة ملحظ في عهد بهرام باشا يؤكد ذلك ومنها.

. وصول الوفود:

ذكر المؤرخ المطيب وصول العديد من وفادات مشائخ القبائل اليمنية إلى بهرام باشا، ومن تلك الوفادات وفادة الشيخ أحمد الحُجري شيخ منطقة الحُجرية « وفي جمادى الأولى من السنة المذكورة [980هـ/ 1572م] قدم على مولانا نصره الله تعالى الأمير أحمد الحجري بمدينة ملحظ المعمورة، وكان قد طلبه قبل ذلك مولانا الوزير سنان، وتأخر عن الوصول إليه، غير مُظهر للعصيان عليه [...] فأقام بمدينة ملحظ شهرين، لم يعتره بها ضرر ولا شين، تحت نظر مولانا»[2].

كما ذكر أيضاً وصول الشيخ أحمد النواري شيخ منطقة سماه إلى ملحظ، بعد أن سقط حصنه بأيدي العساكر العثمانيين، وطلب الأمان له ولأولاده « وفي شهر ربيع الآخر منه [982هـ/1584م]، بعد أن حصل على الشيخ احمد النواري صاحب حصن سماه غاية الضيق والشدة، من الحرب في تلك المدة، أجاب بالسمع والطاعة، وبرز على قدم الاستطاعة [...] إلى مدينة ملحظ فدخلها يوم الثلاثاء، وواجه مولانا صاحب السعادة في يومه ذلك، فقابله بالأمن والأمان [...] وكساه وولده وأصحابه، وأحسن إليهم غاية الإحسان».[3]

. تنفيذ العقوبات:

ذكر المؤرخ أيضاً تنفيذ العقوبات في الخارجين عن سلطة الدولة العثمانية في مدينة ملحظ وهذا النوع من العقوبات أو الإجراءات عادة ما يكون في المدن باعتبار أن تنفيذها يكون بهدف التشهير لردع الآخرين، ولأخذ العظة والعبرة. وأهم ما ذكره المؤرخ في هذا الخصوص هو معاقبة بهرام لمشائخ بني مطر[4]«ثم في ثالث جمادى الأولى من السنة المذكورة، [980هـ/ 1572م] أمر مولانا أعزه الله تعالى بالتجهيز على طائفة تدعى بني مطر، فمكنه الله تعالى منهم ونصر وقبض قلاعهم وكانت أربع قلاع [...] وأوثق خمسة من أشياخهم وأسر، فسلخت جلودهم وحشيت بالتبن والحشر،[5] وجعل المذكورين عبره لمن اعتبر، و أركبوا تلك السلوخ المحشية ظهور الحمُر، وصيح عليهم بمدينة ملحظ يا من قد رأى، وحضر هذا جزاء من عصى مولانا السلطان وضر. أيد الله مولانا بالنصر والتمكين، وفتح له الفتح المبين»[6].

---

(1) نفس المصدر، صـ243 .

(2) نفس المصدر، صـ 251 .

(3) نفس المصدر، صـ 263.

(4) بني مطر: قبيلة مشهورة غربي صنعاء كانت تعرف ببلاد البستان. المقحفي.المرجع السابق. جـ2. صـ1556

(5) الحشر : هي القشرة التي تلي الحبة « حبة الشعير أو القمح ». ابن منظور: لسان العرب. جـ1. صـ 642

(6) المطيب. المصدر السابق. صـ 252- 253 .

. محمل الحج[1] :

رصد المؤرخ المطيب وصول وخروج محامل الحج من وإلى مدينة ملحظ، و كان أولها هو محمل سنة 980هـ / 1572م، الذي وصل إلى ملحظ بعد عودته من موسم الحج بإمرة الأمير محمد آغا «وفي هذه السنة كسا المحمل الشريف كسوة جديدة، منسوجة بأنواع من الإبريسم[2] والذهب عديدة، فالبس المحمل السعيد ذلك الكساء الجديد، وفي السنة المذكورة طلع أمير الحج المذكور محمد أغا بالمحمل الشريف، بعد عودة من الحج، وكان طلوعه من مدينة زبيد إلى مدينة ملحظ بأمر مولانا أيده الله، فلم يزل الأغا محمد المذكور، يسير بالمحمل السعيد في السهل والوعر، يدبّر السفر بهِ في ذلك بألطف أمر، وصحبته الرتبة المعنية من أعيان العسكر[...] فدخل المحمل الشريف مدينة ملحظ، وكل واحد متعجب منه، والية بنظره يلحظ»[3].

كما رصد خروج محملي حج من ملحظ، أولهما كان سنة 981 هـ / 1573م بإمرة الأمير محمد آغا « وفي هذه السنة نزل بالمحمل السعيد، بأمر مولانا من مدينة ملحظ إلي مدينة زبيد محمد آغا أمير الحج لقصد السفر به، فوصل به إلى المدينة المذكورة[يقصد ملحظ]، وقرر على إمارة الحج فيها، فصار في تلك السنة على جاري عادته القديمة، وكان الأمير المذكور حسن السيرة، صافي السريرة[...] وأمنت السفارة بصحبته على أموالهم، ولم يخافوا ما يحذرونه من تشتيت أحوالهم، فأمن الناس به في ذلك السفر، حتى وصلوا إلى أوطانهم، وكانوا في سفرهم وكأنهم مقيمون بمكانهم»[4]. وثانيهما سنة 982هـ / 1574م بإمرة الأمير محمد قزلباش «وفي شهر شعبان المعظم منها، جهز مولانا أمير الحج بالمحمل الشريف السلطاني من القطر اليماني، وهو الأمير الكبير الرئيس الشهير أمير اللواء الشريف محمد قزلباش ، نزل من مدينة ملحظ المعمور، إلى مدينة زبيد ومعه عصبة من العسكر المنصور، فوصل إليها وأقام بها إلى شهر شوال، هو ومن معه من صناديد الأبطال، فصار بعد ذلك بالحاج القاصد لبيت الله الحرام، صحبة المحمل الشريف على أحسن حال، وأكمل نظام مطمئنين غير خائفين على أمتعتهم وأموالهم «[5].

إن رصد المؤرخ لهذه المحامل يشير إلى أن ملحظاً أصبحت مركزاً لتوافد حجاج اليمن ليسيروا مع المحمل إلى بيت الله الحرام، وهو من الشعائر الدينية التي حرص الولاة العثمانيون على إقامتها واستمرارها.

. الأحداث العسكرية:

كانت ملحظ مقراً للجيش العثماني خلال فترة حكم بهرام باشا، حيث تطالعنا مخطوطة المؤرخ المطيب بأخبار خروج الحملات العسكرية من المدينة لإخضاع التمرد في المناطق المختلفة. ومن ذلك

---

(1) رصد المؤرخ المطيب محملين للحج الأول سنة 978هـ/ 1571م و الثاني 979هـ/ 1572م، دون أن يشير إلى مكان خروجهما أو وصولهما أو من تولى إمارتهما. نفس المصدر صـ 245، 247.

(2) الابريسيم ، كلمة فارسية وأصلها إبريشيم وتعني الحرير. التوينجي، المعجم الذهبي، صـ 56.

(3) نفس المصدر، صـ 255- 256.

(4) نفس المصدر، صـ 260.

(5) نفس المصدر، صـ 270

خروج حملة بقيادة الشيخ أحمد الحُجري لإخضاع مناطق الحُجرية بقوله «ثم نزل الأمير احمد المذكور من المدينة المذكورة [يقصد ملحظ] ثاني يوم من شهر رجب الحرام [سنة 980هـ/ 1572م] ناشراً الرايات والأعلام[...] فخيم بجهات الحجرية، ثم قبضوا بسعد مولانا تلك البلاد، وحصل غاية القصد والمراد، وأذعن جميع أهلها بالطاعة والانقياد»[1]

وورد في المخطوطة تفاصيل وقوع فتنة العسكر الأولى في مدينة ملحظ منتصف ذي القعدة سنة 982هـ/ أواخر فبراير 1574م، والتي عمل الدفتردار على إثارتها . وفق ما ورد عند المؤرخ . وذلك حين حرض العسكر على المطالبة بحقوقهم المالية من بهرام باشا «وظهر من الدفتردار المذكور لكافة العسكر العثماني، إني قد جئتكم بمرسوم شريف سلطاني . محتوٍ على ما فيه لكم من الكفاية، بقبض ما تطيب به قلوبكم من العليق[2] والجراية[3]، فاجتمع جمعُ العسكر العظيم [...] وطلبوا من مولانا المشمول بعين الرعاية والتوفيق، معلوم خمسة أعوام من العليق[...] وظهر منهم الخلاف العظيم، يرمون بالبنادق النيرانية المحرقة، يسلون سيوفهم عن إغمادها [...] حتى وصلوا إلى جامع ملحظ وهم كذلك رامون، ولمخالفة أمره أعزه الله تعالى قاصدون، وبدر منهم هذا الأمر الشديد، وتتابع عنهم الخلاف حتى فعل كل منهم ما يريد»[4]

وورد عنده أيضاً أخبار فتنة العسكر الثانية في ملحظ في أوائل شهر ربيع آخر 983هـ / يوليو 1575م، وذلك حين قام العسكر بحصار علي بك نائب بهرام باشا في مدينة ملحظ وطلبوا منه التذاكر[5]بالترقي.» أن جماعة من العسكر المفسدين صاروا يسعون بالفساد، وينهبون في الطرقات[...] أنهم قصدوا الأمير علي بك، والأمراء الذين معه إلى القصر [...] ورموه بالبنادق، فقتل من أصحابه جماعة من البُندُق، بعد أن كسروا الأبواب، وحاصروهم من الصباح إلى المساء، وحبسوا أغا الجشاريان[6] فائق أغا، وبعد ذلك وقع الاتفاق بينهم على أن الأمير علي بك يعطيهم تذاكر بالترقي، فأعطاهم ذلك بسبب؛ المداراة لهم ودفعاً لشرهم[...] فلما كان نصف الليل بعد ذلك اليوم، خرج الأمير علي بك من القصر من محروس مدينة ملحظ، إلى خارج مدينة ذمار، ونصب خيامه خارج المدينة فلما أصبح الصباح، وصل إليه الأمراء، والأغوات، وأعيان العسكر، وقالوا له ما السبب لخروجك من المدينة، فقال لهم السبب ما فعله العسكر بالأمس»[7].

وكان أن بهرام باشا حين غادر ملحظ عقب صدور قرار عزله قد أمر نائبه علي بك بالبقاء في

---

(1) نفس المصدر، صـ251.

(2) العليق : يطلق على مخصصات الجنود والعساكر والضباط من القمح . سهيل صابان : المعجم الموسوعي . صـ 156.

(3) الجراية : الراتب، التونجي، المعجم الذهبي . صـ 202.

(4) المطيب، المصدر السابق. صـ 271.

(5) التذاكر: ما يكتب فيها للجنود من ادوات سلطانية وجوامك شريفة ، وتكون مقررة من الديوان. (صالحية ، وثائق جديدة . هـ . صـ 60).

(6) يبدو انه اسم لإحدى الفرق العسكرية العثمانية.

(7) المطيب، المصدر سابق صـ281.

ملحظ لضبط البلاد والعسكر[1].

كانت تلك هي أهم المعلومات التي وردت عند المؤرخ المطيب الزبيدي حول مدينة ملحظ.

ملحظ عند المؤرخ عبدالله بن داعر

(كان حياً إلى سنة 1030هـ /1620م)[2].

قدمّ المؤرخ ابن داعر معلومات قيمة حول مدينة ملحظ، فهو المؤرخ الوحيد - حسب علمي - الذي بين بشكل واضح ومنطقي مراحل تطورها، وتحولها من معسكر إلى مدينة، بقوله «وطال مقامه على ذلك [يقصد بهرام باشا] بظاهر ذمار، حتى صار ذلك المعسكر مدينة ذات دور، ودواوير وحمامات، وجامع يصلى فيه مدى الأيام والشهور، وطويت الخيام، واستغنى عنها في غالب الأمر بالمنازل والبيوت، واستطاب هنالك المقام، وسمى تلك المحلة ملحظاً، ونقش اسمها على السكة السلطانية في سلف من أيام إقامته هنالك ومضى»[3].

إن ما أشار إليه المؤرخ ابن داعر يبين تطور مدينة ملحظ فهي في الأصل معسكر للجيش العثماني، فقد أشتهر العثمانيون بأنهم كانوا يفضلون البقاء في معسكرات خارج المدن، وبيّن أن طول بقاء بهرام في معسكر ملحظ هو ما حوله إلى مدينة. فقد استبدل الناس أو الجند الخيام بالبيوت، والدور والدواوير، ومن ثم تم بناء الجامع، وضرب العملة الملحظية. كما انفرد المؤرخ ابن داعر بذكر وجود حمامات في مدينة ملحظ، وهي معلومة لم ترد عند غير من المؤرخين. وإلى جانب ما قدمه المؤرخ ابن داعر من معلومات عن تسمية المدينة بملحظ كما ذكرنا سابقاً، فإنه أشار أن تسميتها كانت بعدد سنوات ابتداء حكم بهرام باشا بقوله «وكانت مدة ولايته ست سنوات، إذ السنة التي تولى فيها ممالك اليمن هي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، لذلك سميت البقعة التي عسكر بها خارج ظاهر ذمار ملحظ حيث كان هذا الاسم جامعاً لعدد سنوات تاريخ ابتداء ولايته»[4].

ملحظ عند المؤرخ عبد الصمد الموزعي

(كان حياً إلى سنة 1031هـ/1621م).

ذكر المؤرخ عبد الصمد الموزعي مدينة ملحظ عند حديثه عن ولاية بهرام باشا، حيث أشار إلى موقع المدينة، وضرب العملة المعروفة بالملحظية، وبناء الجامع والعمارات، فقد حدد موقع المدينة بأنها تقع إلى الجنوب من مدينة ذمار بقوله «ثم طلع إلى اليمن الأعلى [يقصد بهرام باشا] وأحب السكون في ذمار، فأقام هناك، وكان مقامه نازحاً منها مما يلي اليمن الأسفل في محل يقال له ملحظ، فأقام هناك قريباً من خمس سنين»[5]وأشار إلى ضرب العملة الملحظية بقوله «وضرب السكة المشهورة

---

(1) نفس المصدر، صـ 277.

(2) للمزيد من المعلومات عن المؤرخ عبدالله بن داعر أنظر المصري، المرجع السابق، صـ 62-65.

(3) ابن داعر، عبدالله، الفتوحات المرادية، ق 214 .

(4) نفس المصدر، ق215.

(5) الموزعي، المرجع سابق، صـ 47

الباقية مع الناس المسماة بالملحظية»[1] والجدير بالذكر أن المؤرخ الموزعي دون هذه الأخبار بعد مرور ما يقارب خمسين عاماً على رحيل بهرام باشا من اليمن، والإشارة في قوله الباقية مع الناس تدل على أن تلك العملة كانت متداولة في عهد المؤرخ، ومما ورد عند المؤرخ أيضاً ذكر بناء الجامع فقد اشار إلى ذلك بقوله «وابتنى هناك جامعاً عظيماً، وهو باقٍ إلى الآن»[2] فمن خلال النص السابق يتضح الآتي: أن الجامع الذي أتم بناءه بهرام باشا سنة 980هـ/ 1572م ظل قائماً حتى عصر المؤرخ الموزعي أي بعد مرور خمسين عاماً، ليس هذا فحسب بل إن وصف المؤرخ له بكلمة عظيم دليل على المكانة التي ظل الجامع يحتلها في ذمار، بالنسبة إلى بقية الجوامع. كما أشار المؤرخ إلى التطور العمراني في مدينة ملحظ، وكيف أصبحت مدينة مستقلة بعد أن أقدم الأمراء والأكابر على ابتناء عمارات فيها بقوله «ومحل إقامته هناك عمارات ابتناها الأمراء والأكابر الذين كانوا معه فصارت وكأنها مدينة مستقلة ».[3]كل ذلك يبين أن مدينة ملحظ حتى عهد المؤرخ الموزعي ظلت باقية ولم تندثر أو يعتريها أي خراب أو دمار.

ملحظ عند المؤرخ عيسى بن لطف الله

(توفى سنة 1048هـ/ 1638م).

ورد ذكر مدينة ملحظ عند المؤرخ عيسى بن لطف الله في حديثه عن أهم حوادث سنة 978هـ / 1570م فذكر اختطاط المدينة وموقعها وتسميتها بقوله «وفيها [أي في هذه السنة] اختط بهرام باشا المدينة التي خارج ذمار، وسماها ملحظ، واسمها بعدد تاريخ عمارتها»[4]. والجدير بالإشارة أن المؤرخ عيسى اتفق مع المؤرخين المطيب وابن داعر حول سبب تسمية المدينة، حيث أكدوا أن تسمية المدينة كانت نسبة إلى تاريخ بنائها (وفق حساب الجمّل).

إلا أن أهم ما ورد عند المؤرخ عيسى حول المدينة ذكره لسوقها في حديثه عن فتنة الجند التي وقعت في ملحظ في عهد بهرام سنة 982هـ / 1574م، فقد أشار إلى قيام الجند بنهب سوق المدينة بقوله «تحزبت العساكر السلطانية على بهرام باشا، وعاثوا الأنام، ونهبوا سوق ملحظ، وكثر الخوف منهم»[5]. وترجع أهمية هذه المعلومات إلى أنها تبين أن ملحظ قد اصبح لها سوق منفرد أو خاص، وهو بالتأكيد غير سوق ذمار، وهذه المعلومات لم ترد عند المؤرخ المطيب عند حديثه عن فتنة الجند.

(1) نفس المصدر، صـ 47

(2) نفس المصدر، صـ 47

(3) نفس المصدر، صـ 47.

(4) لطف الله، المصدر سابق، صـ191.

(5) نفس المصدر، صـ 203.

ملحظ عند المؤرخ المطهر الجرموزي

(توفى سنة 1077هـ / 1666م).

ظل اسم ملحظ هو الاسم المتعارف عليه للمدينة التي بناها بهرام باشا، إلا أن المؤرخ المطهر الجرموزي يورد تسمية أخرى للمدينة، حيث أطلق عليها، أو بمعنى أصح وردت عنده باسم «ذمار الصغرى»، فقد ذكر هذا الاسم في حديثه عمن تولى اليمن من الأمراء العثمانيين بقوله «ثم بهرام باشا ولي على صنعاء، وبقي في ذمار الصغرى، واقطع كبار العجم البلاد، فغلبوه عليها»[1] وهذا الاختلاف في التسمية يضع تساؤلاً حول سبب تغيير اسم المدينة وهو ما سنحاول الإجابة عليه في نهاية الدراسة.

ملحظ عند المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسي

(توفى سنة 1308هـ / 1890م).

انفرد المؤرخ الكبسي بذكر معلومات حول مدينة ملحظ لم ترد عند غيره من المؤرخين، فهو المؤرخ الوحيد الذي حدد موقع المدينة وسوقها بشكل دقيق بقوله «سوق ملحظة قبلي قرن ذمار، وعدني مدينة ذمار»[2] فهو بذلك حدد موقع المدينة بأنها تقع بجوار السوق، الذي يقع شمال قرن ذمار وجنوب مدينة ذمار، كما يتفق مع المؤرخ عيسى بن لطف الله حول وجود سوق خاص بمدينة ملحظ.

ولعل أهم ما ورد عند المؤرخ الكبسي بخصوص المدينة هو ذكره لخرابها بقوله «والمدينة حق ملحظة بجوار السوق وقد خربت»[3] وعلى الرغم من أن المؤرخ لم يعط تفاصيل حول أسباب خرابها، ولا تاريخ هذا الخراب، إلا أنه كان أول مؤرخ - حسب علمي - يذكر ذلك دون غيره، ولا يستبعد أن يكون قد شاهد ما تخرب من المدينة.

مدينة ملحظ من المصادر التاريخية:

رأينا فيما سبق كيف أن الظروف السياسية جعلت بهرام باشا، يتخذ من منطقة ذمار مركزاً لحكمه خلال فترة ولايته التي استمرت خمس سنوات، وان اختيار هذا الموقع كان نتيجة للوضع السياسي الذي كانت تمر به السلطة العثمانية في اليمن، إذ قصد بهرام باشا الإقامة في مكان

---

(1) الجرموزي، النبذة المشيرة . تحقيق عبدالحكيم الهجري، ص 363.

(2) الكبسي، المصدر سابق .هـ .ص 192

(3) نفس المصدر، هـ . ص192. ورد ذكر هذه المعلومة في حاشية الكتاب وقد وضعها المؤرخ الكبسي نفسه في أصل الكتاب.

يتوسط مناطق النفوذ العثماني التي أقرها صلح سنة (977هـ/ 1570م) بين السلطة العثمانية و المطهر بن شرف الدين، لذلك اختار منطقة ذمار لتحقق ذلك الفرض واختط بها مدينة ملحظ لتكون مقراً لإدارة أمور ولاية اليمن، وان المدينة تقع بين مدينتي ذمار و قرن ذمار وهذه المنطقة حالياً تعرف باسم المنزل.

أما ما يتعلق بتأسيس المدينة فيبدو أنها حالة متطورة للمعسكرات التي كان ينشئها الولاة العثمانيون خارج المدن، فقد ذكر المؤرخ المطيب ان بهرام باشا وصل إلى ذمار نهار الجمعة 15 شعبان سنة 978هـ / 13 ديسمبر 1570م، وأقام معسكره هناك، ثم ذكر أن بهرام أختط مدينة ملحظ في العاشر من رمضان سنة 978هـ / 1570م. أي أن فترة إقامته في المعسكر الأول لم تدم سوى خمسة وعشرين يوماً، وبالتدقيق فيما ورد عند المطيب نجد أن انتقال بهرام كان من معسكر إلى معسكر وليس إلى مدينة لأن المدينة لم تكتمل أركانها بعد، ويمكن تفسير ما ورد عند المؤرخ من أن بهرام انتقل إلى مدينة ملحظ أن المقصود بالمدينة هنا موقع المدينة فقط، فبهرام بعد أن أعلن عزمه تأسيس ملحظ نقل معسكره من ذمار إلى الموقع الجديد، وشرع بعد ذلك بتأسيس المدينة و بناء مرافقها مثل الجامع و القصر وغير ذلك، وان عملية تطور المعسكر إلى المدينة قد استغرقت فترة زمنية تقارب العامين، فقد ذكر المطيب أن بهرام باشا افتتح جامع ملحظ سنة 980هـ/ 1572م، أي بعد حوالي عامين من إعلان تأسيسها. ، وهذا التفسير يتفق مع ما ورد عند المؤرخ ابن داعر حيث أشار إلى أن المدينة هي حالة متطورة للمعسكر الذي أقامه بهرام خارج ذمار، وأن تحول المعسكر إلى مدينة كان نتيجة طول بقاء بهرام في مدينة ذمار حيث حول الجند سكنهم من خيام إلى بيوت. وأن تطور المدينة استمر فيما بعد، فقد ذكر المؤرخ الموزعي أن بعض الناس نقلوا سكنهم من ذمار إلى ملحظ وخاصة أكابر القوم.

أما بخصوص تسمية المدينة فقد أشار كل من المطيب و عيسى بن لطف الله أن التسمية كانت وفق حساب الجمل دون ذكر تعليل آخر لسبب التسمية، في حين بيّن الموزعي أن المدينة بُنيت في المحل المعروف بملحظ أي أن المنطقة كان أسمها في الأصل ملحظاً، في حين ذكر المؤرخ ابن داعر أن أسم المدينة كان جامعاً لعدد سنوات ابتداء حكم بهرام «وفق حساب الجمل» وأشار قبل ذلك إلى أن المكان الذي أقام عليه بهرام معسكره سمي ملحظاً دون الإشارة إلى أن المكان كان يحمل هذا الاسم من قبل.

ومما سبق يمكن القول إن تسمية المدينة كانت وفق حساب الجمل، أما تسميتها بذمار الصغرى كما ورد عند المؤرخ الجرموزي فيصعب الخوض في الموضوع لقلة المادة التاريخية حول مدينة ملحظ - كما أشرنا سابقاً - إلا أن ثمة احتمالاً لا ضير من ذكره، لإمكانية تعلق سبب تغير التسمية به:

فربما أن اسم ذمار الصغرى قد طغى على اسم مدينة ملحظ عند المؤرخ الجرموزي الذي توفى بعد مرور قرن على تأسيس المدينة، ويرجع ذلك إلى حدوث تغير في التسمية خلال تلك الفترة الزمنية الفاصلة ما بين تأسيس المدينة ووفاة المؤرخ. ويبدو أن ملحظ بعد رحيل بهرام باشا فقدت دورها السياسي، وهي الميزة التي ميزتها عن ذمار وأعطتها نوعاً من الاستقلالية هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية يبدو أن التوسع العمراني في مدينتي ذمار وملحظ قد جعل اسم ذمار يطغى على المدينتين، وأن التقارب بينهما قد جعل الناس يسمونها ذمار الصغرى تمييزاً لها عن مدينة ذمار.

وبالنسبة للمرافق العامة للمدينة مثل السوق والقصر والجامع و الحمامات المباني وغير ذلك فقد أشار إليها معظم المؤرخين الذين ذكروا مدينة ملحظ، وأما العملة التي ضربها بهرام باشا في ملحظ وأشار إليها بعض المؤرخين باسم الملحظية، فيبدو أنها نفس العملة التي صدرت إليه التوجيهات

السلطانية بضربها على نفس المعيار الذي ضربت به في عهد سنان باشا[1] وتمييزاً لها أطلق عليها اسم الملحظية. ولا يوجد تفسير لتجاهل المؤرخ المطيب ذكر ضرب العملة الملحظية، وهو الذي دوّن أدق التفاصيل عن أعمال بهرام باشا، وألبسها هالة من التعظيم ،على اعتبار أن ضرب العملة أو تجديد ضرب العملة من الأعمال التي عادة ما يقوم الولاة بإنجازها، والتي لا يُغفل ذكرها لدى المؤرخين.

وهكذا بدا واضحاً الدور السياسي الذي لعبته ملحظ في تاريخ اليمن، حيث كانت مركزاً لولاية اليمن خلال فترة حكم الوالي العثماني بهرام باشا، وأن الغرض من بنائها كان غرضاً سياسياً لتكون مقراً للحاكم العثماني بعيداً من مساكن العامة في ذمار، وأن ملحظاً قد أجتمعت فيها عناصر المدينة (الجامع، دار الحكم، دار الضرب، الأحياء، السوق)، فهي بذلك تتشابه - إلى حد كبير - مع حيّ بئر العزب في صنعاء الذي أختط في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[2] وربما تكون مدينة ملحظ الأقدم من حيث التأسيس، وظهور هذا النوع من المدن في اليمن خلال العهد العثماني، فحي بئر العزب لم يشتهر وتنتقل إليه الطبقات الحاكمة إلا في فترة متأخرة، ولم يرد ذكر الحي في المصادر التاريخية المدونة في القرن العاشر الهجري، كما لم أعثر على معلومات تحدد تاريخ بنائه، أو انتقال العثمانيون إليه، ليكون مقراً للحكم، في حين تردد ذكر الحي في المصادر التاريخية في العهد القاسمي، والعهد العثماني الثاني.

وعلى الرغم مما أشرنا إليه سابقاً إلا أن التساؤل عن سبب خرابها يظل قائماً ؟

---

(1) صالحية، المرجع سابق . صـ 84

(2) يسر، الموروث الحضاري لصنعاء القديمة . صـ116 .

قائمة المصادر

- الأكوع، إسماعيل،
عوامل مقاومة أهل اليمن للحكم العثماني. مجلة الإكليل العددان 31 - 32 يناير و يونيو 2008م.

- التوينجي، محمد،
المعجم الذهبي فارسي - عربي . دار القلم للملايين، بيروت، ط1 . 1969م.

- الجابري، أحمد بن محمد،
سفينة السفر. مخطوطة محفوظة بمكتبة الأستاذ عبد الرحمن الحضرمي، بزبيد، منها نسخة بمعية الباحث.

- الجرموزي، المطهر بن محمد،
النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة النبذة المشيرة في جُمل من عيون السيرة. دراسة وتحقيق : عبد الحكيم الهجري، تحت عنوان ثورة الإمام القاسم بن محمد ضد الوجود العثماني الأول في اليمن. طروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، 2005م.

- الحجري ، محمد،
مجموع بلدان اليمن وقبائلها. تحقيق القاضي إسماعيل الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1996م.

- الحضرمي، عبد الرحمن،
زبيد مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ. ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، صنعاء،

2000م .

- ابن داعر، عبد الله :

الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية. مخطوطة مصورة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم 26421، جـ1جـ 2. (منها صورة مع الباحث).

- سـالـم،سيد مصطفى:

الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م . القاهرة، 1992م ط 4.

المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول. الجمعية المصرية للدرسات التاريخية 1971م.

- الشلي، محمد،

السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر. تحقيق / إبراهيم المقحفي، ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ط أولى، 2004م.

- الشوكاني، محمد بن على:

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . تصحيح محمد بن محمد زبارة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

- صابان، سهيل:

المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية. مكتبة الملك فهد، الرياض،200م .

- صالحية، محمد عيسى:

وثائق جديدة عن حملة سنان باشا إلى اليمن . حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة، 1987، وثيقة رقم 1922، صـ20. وثيقة رقم 603. وثيقة محفوظة بمكتبة الأستاذ فؤاد الشامي.

- الكبسي، محمد بن إسماعيل،

اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، القاهرة (د.ت).

- لطف الله، عيسى :

روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح . تحقيق ابراهيم المقحفي، مركز عبادي للطباعة والنشر، صنعاء 2003م.

- المحبي، محمد أمين:

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. دار صادر، بيروت، (د.ت).

- المشوخي، عابد سليمان:

المخطوطات العربية مشكلات وحلول. مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض،2001م.

- المصري، أحمد صالح:

موقف المؤرخين اليمنيين المعاصرين للحكم العثماني الأول بين مؤيد ومخالف. القسم الأول من رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صنعاء، 2006م.

- المطيب، محمد بن يحيى :

بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام. تحقيق : أحمد صالح المصري . القسم الثاني من رسالة ماجستير بعنوان موقف المؤرخين اليمنيين المعاصرين للحكم العثماني الأول بين مؤيد ومخالف.مع دراسة وتحقيق مخطوطة المؤرخ المطيب، جامعة صنعاء، 2006م.

- المقحفي، إبراهيم:

معجم البلدان والقبائل اليمنية. دار الكلمة ، صنعاء ،2002م.

- الموزعي، شمس الدين عبد الصمد،

الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان. تحقيق، عبدالله الحبشي، منشورات وزارة الوقاف والأرشاد، صنعاء (د.ت).

- النهروالي، قطب الدين محمد،

البرق اليماني في الفتح العثماني. دار التنوير، بيروت، 1986مط2.

- يسر، محمد عبد العزيز :

الموروث الحضاري لصنعاء القديمة . جامعة صنعاء 2004 م.

النـظام السـكني في مدينـة صنـعاء الماضي والحاضر

د/ عبـده ثابت محمد العبسي
أستاذ العمارة المشارك
جامعة صنعاء - كلية الهندسة - قسم العمارة

المستخلص

من تتبع تطور النظام السكني لمدينة صنعاء القديمة، وصنعاء أثناء وبعد الغزو العثماني وصنعاء بعد 1962، ومن دراسة وتحليل تطورا النُظم السكنية للمراحل المختلفة، يلاحظ أن نظام السكن بعد عام 1962 قد تخلف وانفصل كليا عن النظام السكني في المرحلتين السابقتين ليس فقط من النواحي العمرانية بل البيئية والاجتماعية.

وحبذا لو إن ذلك الانفصال عبر عن ميلاد جديد وتطلعات جديدة أكثر حيوية وانسجاما سكنيا وتخطيطيا مع العصر بحكم جدته ومعاصرته للنظريات التخطيطية والمعمارية والسكنية الحديثة أو انعكاسه لأفكار شامله محددة مسبقا، فلو كان الأمر كذلك وحقق المتطلبات الرئيسية للسكن الحضري وفي حده الأدنى لكان جديرا بالثناء والتقدير وان أهمل وتجاوز التراث السكني التقليدي الحضري للماضي بحكم معاصرته للمستجدات والحداثة.

لكن الواقع المعاصر للنظام السكني وحتى المخطط رسميا ، سواءً ما حُدد بالمخططات التفصيلية العامة أو في مشاريع الإسكان الحكومي والمختلط، أصبح أكثر تخلفاً وإهمالا للبيئة والإنسان عن كل ما سبقه من نظم سكنية حضرية.

ويرغم ميلنا الكثير للحداثة والتجديد إلا أن الوضع السكني والبيئي الراهن الذي وصل إليه، يستدعي العودة إلى التراث الحضري للنظام السكني والتخطيطي لمدينة صنعاء القديمة، وبما تتضمنه من توازن بيئي وحضري وعلاقات اجتماعية وحسن جوار وتعاون وتآلف على مستوى عالي من الرقي، على اعتبارها سند ومرجع تاريخي أكثر صدقا ونظارة ومنبع يمكن الاستعانة والاستفادة منه سكنياً وتشريعيا عند وضع السياسة الإسكانية العامة للمدن، ولكن بشرط أن لا يتحول إلى عامل معيق أمام المعاصرة والحداثة وما يتطلبه العصر من تجديد وتحديث مستمرين، وان لا يتحول التراث إلي قيود تكبل الحركة والتقدم، لأن سرعة نمو سكان صنعا في الوقت الراهن في خلال 8 اشهر فقط يساوي تقريباً مجموع عدد سكانها التراكمي الصافي منذ نشأتها وحتى عام 1962م، أما المساحة المستخدمة لنفس العدد السكاني ربما تتجاوز الضعفين وبدون أي فراغات عمرانية ومساحات خضراء بسبب التوسع الأفقي المفرط للبناء، أما التراكم المعرفي فربما قد تضاعف مئات الأضعاف إلا انه منفصل عن الممارسة والتشريع.

المقدمة:

إن نمو وتطور مدينة صنعاء القديمة عبر الحقبات التاريخية المختلفة وما تعرضت له من إرهاصات كثيرة مابين ازدهار وجمود ونمو وتوقف وتقدم وتراجع وهدم وتعمير، ومن خلال كل هذا قد افرز نظام سكنياً حضرياً على درجة عالية من الرقي وهو النظام السكني البرجي (متعدد الطوابق)، قابله نظام اجتماعي متعاون ومنفتح نحو الجار، وعلاقات اجتماعية متماسكة استندت أسسها تلك على التعاليم الإسلامية والإرث الحضاري المتراكم عبر التاريخ.

ومن تتبع تطور النظام السكني في المدينة منذ نشأتها وحتى وقتنا الراهن بالاعتماد على الواقع العمراني القديم والحديث وبعض الكتابات التاريخية والمعمارية، وعلى القراءات الخاصة عن بعض التجارب السكنية العالمية فقد تم تقسيمها إلى ثلاث مراحل رئيسية كبرى هي:

الأولى: منذ نشأتها وحتى الحكم العثماني في القرن السادس عشر، وكان النظام السكني المسيطر فيها بصورة رئيسية نظام السكن البرجي ذا المساحات الصغيرة من الأرض البيضاء، والتوسع الراسي المتصف بالتوازن البيئي والاجتماعي.

الثانية: منذ الحكم العثماني الأول(1538م) وخاصة خلال الحكم الثاني (1849-1918م) وحتى 1962م، وهو النظام السكني الذي أتي به العثمانيون ويتصف بأنه اقل ارتفاعاً، ويحتل مساحة كبيرة من الأرض، وذا توسع شبه أفقي ومحاط بالأسوار ومنفتح نحو الداخل، ويتصف أيضا بتوازن بيئي واجتماعي إلا انه بقي بشكل محدود وتأثر بالنظام السكني السابق وتساير إلي جانبه.

الثالثة: بعد 1962م حيث ازداد السكان بصورة مفاجئة وتوسعت المدينة، ودخلت أنواع سكنية كثيرة نظامية وعشوائية، واستمرت الأنظمة السكنية السابقة بشكل محدود، وأدخلت عليها بعض التعديلات، وكان النظام السكني المسيطر في هذه المرحلة هو النظام السكني المنخفض الارتفاع ذا التوسع الأفقي، والذي قابله تدهور حضري وبيئي واجتماعي، فقدت على أثره كثير من العناصر الإيجابية التي ميزت المراحل السابقة.

وخلص البحث إلى أن النظام السكني البرجي متعدد الطوابق، هو السكن الأفضل والمناسب بيئياً واجتماعياً والذي يجب إحياؤه وتطويره ودراسته وتكييفه مع المستجدات الحضرية ومتطلبات العصر وخاصة في المشاريع الرسمية التي تتبناها الدولة والمؤسسات الأخرى العامة والمختلطة باعتباره سند تاريخي من ناحية والسكن الوحيد حتى الآن على الأقل والذي من خلاله يمكن الوصول إلى التخطيط المتوازن بيئياً واجتماعياً من ناحية أخرى، عند تطبيق المعايير التخطيطية المعاصرة.

المشكلة البحثية:

- الابتعاد عن التراث المعماري السكني التقليدي ونظمه الحضرية المتطورة والمتمثل بمدينة صنعاء القديمة، وعدم وجود خطة علمية معاصرة تستفيد من التجارب السكنية المماثلة، وافتقاد المعايير وتوسع السكن في المدن وبالطريقة التي هي عليها، أدى ويودي إلي تدهور متواصل للوضع السكني الراهن وأنظمته البيئية والحضرية.

- الدراسة المتأنية والدقيقة لنظام السكن في مدينة صنعاء التاريخية والنظم الحضرية المرافقة له، سوف تقودنا إلى انه نظام سكني متطور حضرياً ممكن تطبيقه في المناطق السكنية الجديدة (المجاورات السكنية) مع بعض التعديلات الضرورية التي يتطلبها العصر ونظام السير والحركة والنقل والمواصلات.. الخ.


المساحات الخضراء عنصر أساسي من السكن

هدف البحث :

الاستفادة الممكنة من النظام السكني في مدينة صنعاء القديمة ونُظمها الحضرية المتوازنة بيئياً واجتماعياً وعمرانيا وتخطيطياً، كمرجع وسند تاريخي في توجيه قطاع الإسكان المعاصر في المدن، وخاصة الإسكان المخطط والمدعوم كليا أو جزئياً من الدولة والمؤسسات الإسكانية الأخرى.

منهجية البحث:

اتبع البحث المنهج الاستقرائي التاريخي ومقارنته مع بعض تطبيقات نُظم الإسكان الحضري المعاصر في بعض المدن في العالم، وعلى القراءات والملاحظات المستنتجة من تجارب الإسكان الحضري في بعض الدول، ومن واقع الإسكان الحضري المتبع في مدينة صنعاء القديمة والجديدة.

المصطلحات أو التعاريف الواردة

النظام السكني : يقصد به مجموعة من المعايير والنظم التخطيطية والتصميمية والبيئية والتشريعات والعادات والتقاليد السكنية المتبعة طوعاً أو إجبارا تأثراً أو تقليداً مكتوبة أو غير مكتوب وانعكاسات كل ذلك على نمط الحياة الاجتماعية والحضرية.

التعريف الحديث لارتفاعات المباني السكنية:

- المباني متعددة الطوابق: وهي المباني التي يتراوح ارتفاعها من 3-5 وأحيانا 6 طوابق.
- المباني المتوسطة الارتفاع ويتراوح ارتفاعها من 6~ 9 طوابق.
- المباني المنخفضة الارتفاع والتي يكون ارتفاعها لا يزيد عن طابقين.
- المباني البرجية التي نقصدها في مدينة صنعاء القديمة، هي المباني السكنية التي تتميز بها ويحتوي النوع الأول والثاني أي يتراوح ارتفاعها مابين 3~9 طوابق.

مسار التحولات السكنية في مدينة صنعاء:

من خلال تتبع ودراسة المراحل التاريخية المختلفة للتغيرات السكنية في مدينة صنعاء، والتي حددت نظامها السكني تخطيطاً وتصميماً وبيئيا التغيرات الأخرى الاجتماعية والتشريعية المرافقة لها في كل مرحلة زمنية، هو موضوع شائك ومعقد ويحتاج إلى إمكانيات تتجاوز حدود هذا البحث، إلا أن ذلك لا يمنع من الخوض في جانب منه، واقتصار البحث على الجانب العمراني وبصوره مختصرة وعامة ،من خلاله يمكن متابعة التحولات الرئيسية التي طرأت على النظام السكني وانتقاله من نظام إلى آخر، من خلال القراءة التاريخية من ناحية والنظام السكني والتخطيطي المتجسد أثره في الوضع السكني المشاهد والمتبقي لنا من الأجيال السالفة في صنعاء القديمة من ناحية

أخـرى، وكذلك اسـتمرارية تواصله حتى يومنا والذي تجسـد بالنظام السـكني المتبع الراهن والمشاهد.

ومن اجل تتبع مسار تحول النظام السكني فـي مدينـة صنعـاء (والذي يشـبه إلـى حد ما النظـام السـكني في اليمن عموما) سـوف يتم ربطـه بالمتغيـرات التي رافقته خـلال الحقبات التاريخية المتتالية، والتي أختصرها هذا البحث بثـلاث مراحـل رئيسـية، ومـن الواضح إنها جميعـاً قد تزامنت أحيانـا وهو نـادراً ما يحدث في دولـة أخرى برغـم البعد الزمني الـذي يفصـل بيـن كل واحـدة منها والمراحل هي :-

1 - المرحلـة الأولـى: مـا قبل الحكم العثماني الأول لليمن (1538م)

2 - المرحلة الثانية: خلال الفترة 1538-1962م وحددت منذ الحكم العثماني الأول لليمن وحتى 1962م.

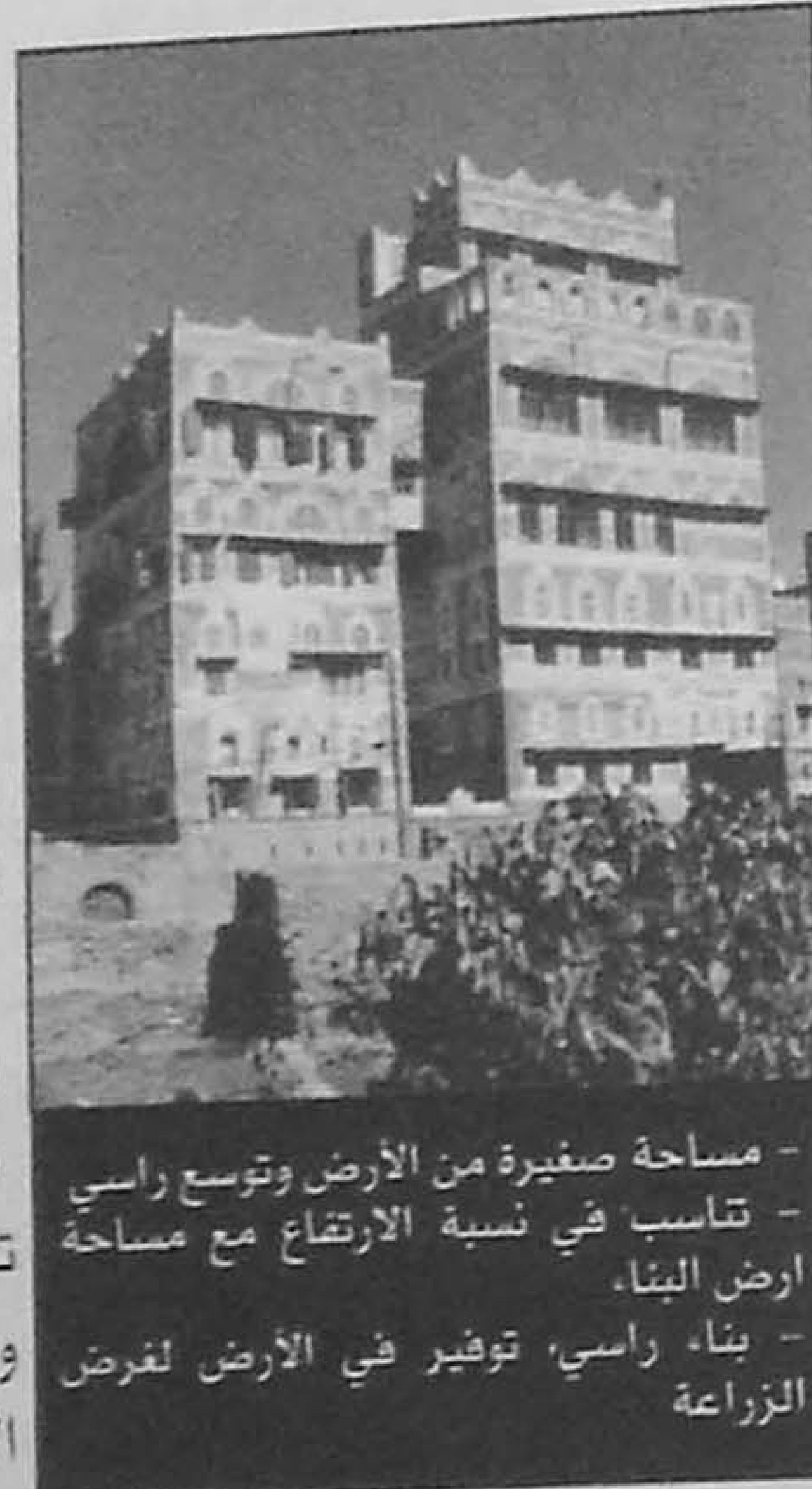
3 - المرحلـة الثالثـة: مـا بعـد 1962م.

1 - المرحلة الأولى:

وحُـددت بالفتـرة التاريخيـة لمدينة صنعاء القديمـة وهـو كل اثر ترك منذ نشـأتها الأولى وحتـى الحكـم العثمانـي (1538) لليمـن، ويتضمـن كل ما تزخر به مدينة صنعاء القديمة مـن تـراث سـكني وتخطيطـي، ويتصـف بأنه علـى درجة عاليـة من التطـور والرقي ويعكس نظاما اجتماعيـا متطورا، ويتضح ذلك من خلال تقسـيم المدينـة التاريخيـة وكتلهـا المعمارية وتشـكيلاتها وزخرفتهـا وفراغاتهـا وكل مـا تحتويـه، والـذي يعتبـر خلاصـة موجـزة أكثر صدقاً وتعبيراً عن كل ما سبقه من تراث مادي ورروحـي، ولأهميـة الموضـوع وقيمتـه التاريخية سـوف نتنـاول باختصـار المكونات الأساسـية لصنعاء القديمة والتي تمخض عنها ذلك النوع من السكن.

1 - 1 -: النشوء والتطور والارتقاء

إن مفهوم تخطيط مدينة صنعاء القديمة هو مفهوم مجازي لان تخطيطها لم يكن وفقا لخطة وضعت مسبقا، بل نمت المدينة مثل غيرها من المدن القديمة بشكل تدريجي ارتقائي خلال فترة زمنية طويلـة لأكثر من ألفي سـنة، من سوق دوري أو مكان استراحة في تقاطـع طرق..الخ، ثـم تحولت إلى مدينة محققـة بذلـك المتطلبات والحاجـات الوظيفيـة للمدينـة والإقليـم المحيـط بهـا، ونمت مع نمو تلك الاحتياجات عبر المراحل الزمنيـة المختلفة بعض المفاهيم والقواعـد والأصـول التخطيطية، بنـاءً علـى القيـم الحضريـة التي تزامنت مع ذلـك التجمع الحضري وحُـددت علـى ضوئـه حقـوق الآخريـن، ثـم بعد دخول الإسـلام، وتأكيـده على حقوق الجار، والتي هي الأسـس الأولى لتخطيط المدن الإسـلامية، ومع الزمن تحولت تلك المفاهيم والقيم الشفهية المتعلقـة بنمـو المدينـة وتخطيطها إلـى قواعد ومبـادئ للتخطيط له مختصوه، ويمارسـها بعض الأفراد ويورثونها أبناءهم في اغلب الأحيان.



- مساحة صغيرة من الأرض وتوسع راسي
- تناسب في نسبة الارتفاع مع مساحة ارض البناء
- بناء راسي، توفير في الأرض لغرض الزراعة

2-1 : العناصـر الرئيسـية المكونـة لمدينة صنعاء القديمة

تشير الدراسـات التحليلية الحديثة لمدينة صنعـاء القديمة إلى أنها تتكون من ثلاثة أحياء رئيسـية هي حي القطيع وحى السـرار الشـرقي وحـى السـرار الغربـي، والعناصـر الرئيسـية

المكونة للمدينة القديمة نجمله بخمسة عناصر هي:

1) المركز التجاري: وهو يتوسط المدينة ويحتوي على أسواق تجارية متنوعة ومتخصصة (ثابتة ودورية)، ويحتوي أيضا على صناعات حرفية متعددة نسيجية وجلدية وغيرها.



نمو عضوي للمدينة، تدرج خط السماء

2) الطرق والساحات: وهي تنقسم إلي شوارع رئيسية وفرعية ثانوية وأزقة تتخللها بعض الساحات الصغيرة، حيث تودي الشوارع الرئيسية من البوابات الرئيسية للمدينة إلى مركزها (السوق)، ومنها تتفرع الطرق الثانوية والأزقة المودية إلى التجمعات السكنية والمساكن.

3) المنشآت الدينية والخدمية: وهي كثيرة ومتنوعة دينية ودنيوية وتشمل المساجد والمدارس والسمسرات (فنادق) بأنواعها والحمامات والسبل والإدارة..الخ، وتقع في أماكنها المحددة والمناسبة حول السوق، وقليل منها موزعة على الحارات وحسب احتياجاتها الوظيفية.

4) السكن: وهو يشكل النسبة الكبرى من مساحة المدينة ويلتف حول السوق والمباني الخدمية.

5) المساحات الخضراء (البساتين والمقاشم) وهي موزعة على الحارات وأطراف المدينة بشكل متوازن وكانت حتى الخمسينات من القرن الماضي تحتل 30 % من إجمالي مساحة المدينة،

وا لعلاقة الوظيفية العضوية بين جميع هذه العناصر نجدها متماسكة ومترابطة، وفي نفس الوقت كل له خصوصياته، لان تكوينه كان عضويا مبنياً على تلبية الحاجات المتتالية خلال نمو المدينة، أما التركيب الوظيفي الهرمي للمدينة فيتلخص بان موقع السوق (الثابت) يقع في نواة المدينة يليه المسجد والسماسر (الفنادق) المتنوعة، ثم يأتي السكن، كما توجد أسواق دورية (أسبوعية مثلاً) تم تحديد مواقعها بعناية وبحسب الحاجة حول المركز (السوق الثابت) أو بإطراف المدينة.

1-3 : تخطيط المناطق السكنية

إن تخطيط المناطق السكنية وحاراتها في المدينة يعتبر جزءا من تكوين متكامل للمدينة (ماديا وروحياً)، وقد ارتبط بتكوين المدينة الخدمي والتجاري المادي والروحي، والذي يتجسد من خلال الطرق والخدمات بأنواعها وتم التركيز هنا على النظام السكني في المدينة بصورة أساسية لأنه أولا يحتل النسبة الكبيرة من مساحة المدينة، وثانيا لأنه تعامل مع استخدام الأرض بطريقة راقية وفريدة تخطيطاً وعمراناً بشكل متوازن ومتجانس، وثالثا لان الانعكاسات السكنية تخطيطا وإنشاء قد أثرة على التكوين الاجتماعي الروحي للسكان وانعكست على سلوكهم وطريقة تعاملاتهم مع بعضهم كجيران والتزموا بحقوق الجار

ومع الآخرين كنزلاء وضيوف..الخ.

وكما اشرنا فقد تم تقسيم السكن في المدينة إلى ثلاثة أحياء رئيسية هي حي القطيع وحى السرار الشرقي وحي السرار الغربي، وكل حي يتكون من عدد من الحارات، وتتكون الحارات من مجموعة من الوحدات السكنية المتكاملة فيما بينها وظيفياً، وكل وحدة سكنية (في الأغلب) عادة ما تؤول ملكيتها إلي أسره ممتدة أو تربطها قرابة أو ما شابه ذلك، وتحتوي معظم الحارات على مسجد يتبعه مقشامة (مخصصة لزراعة الفجل والكراث ..الخ) أو بستان.

أما الوحدة السكنية التي هي جزء من الحارة أو أنها إحدى مكوناتها فتتكون من مجموعة من المباني السكنية المتصلة والملتصقة مع بعضها من جهة أو أكثر على شكل شريطي أو حلقي يلتف حول فناء، وتفتح واجهاتها الخلفية في الغالب نحو المقشامة أو البستان[1].

1 - 4: المبنى السكني

ويعتبر الوحدة الأساسية المكونة للمجموعة السكنية والحارة والحي والمدينة بأكملها، وهو العنصر الذي يشكل الخلية الأساسية للنظام السكني العام في مدينة صنعاء، وان حدّدت جودته ومستواه نظام الحارة التجريدي بمستوى البيئية المحيطة به وبمستوى تخديمه واستقلاليته..الخ، وهو الموضوع الرئيسي الذي سوف يتم التركيز عليه هنا.


منظور عام لمدينة الأصبحي - توسع أفقي

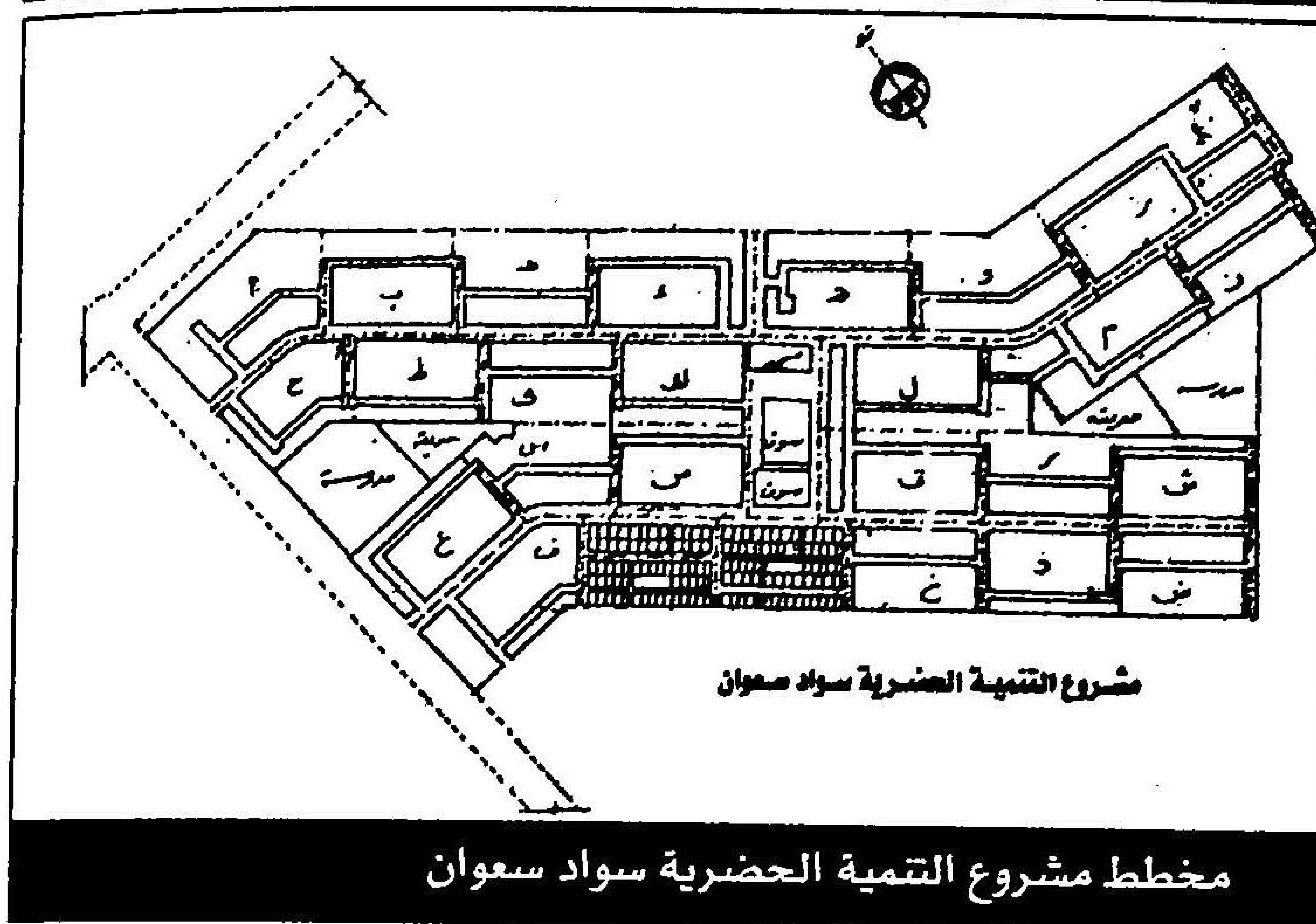
1 - 5: الاتجاه العام للنظام السكني في مدينة صنعاء القديمة

من خلال دراسة الخلية الأساسية للنظام السكني في مدينة صنعاء القديمة نجد أن النظام العام المتبع في بناء السكن كان يتجه راسيا أو التوسع الراسي (ألبرجي) أي مباني سكنية متعددة الطوابق، وهو نظام ناجح ويتبع كثيراً في الوقت الراهن حيث يستغل مساحة صغيرة من الأرض البيضاء قد تكبر أو تصغر وفقا لحجم الأسرة وموقعها الاجتماعي، وكان التمايز والتباين الاجتماعي السكني لمختلف الفئات في مراحل تطوره المتأخرة، يظهر من خلال زيادة الارتفاع والزخرفة ودقتها ونظام الفراغات حول المبني..الخ.

1 - 6: العوامل التي أدت إلي التوسع الراسي في المدينة القديمة

من المفيد التأكيد أن النظام السكني في الوقت الراهن ذو التوسع الراسي هو نظام سكني فعال في المدن لما يوفره من كثافة سكانية مناسبة، مع الاحتفاظ بمساحات خضراء، وفراغات كبيرة خدمية، وان هذا النظام اتبع في كثير من الدول بعد الثورة الصناعية أو التأثر بها بما أفرزته من ازدياد سكان المدن وكثافة استثمار أراضيها، أي لم يتوصل العلم إليه إلا بعد تجارب مضنية في سبيل البحث عن السكن الصحي والملائم اقتصادياً وبيئياً في مدن العصر الصناعي، أما كيف نشأ النظام البرجي في مدينة صنعاء القديمة فالدراسات لم تحسمه بعد، ويبدو أن وصف قصر غمدان بارتفاعه والذي يُعتقد أن فيه بعض المبالغة قد

يحمل جزءا من الإجابة الصحيحة ولكن ليس بتفكير خرافي بل علمي ومنطقي وفقا لقوانين فيزيائية وميكانيكية وإنشائية، ونورد هنا بعض الاحتمالات المتداخلة والتي قد تكون ساعدت على التوسع الراسي في المدينة القديمة عند نشأتها الأولى وهي:-



مخطط مشروع التنمية الحضرية سواد سعوان

1) محدودية مساحة المدينة المحصورة داخل سورها في فترة ما وتحت ظروف محددة - أدى إلي التوسع الراسي.

2) النمو العضوي للأسرة الممتدة في زمان ما، وتحت نظام اجتماعي محدد وشروط مسبقة ومعارف متراكمة، قابلة لنمو عضوي للسكن بامتداد راسي (بينما قابل هذا العامل في مناطق أخرى توسع أفقي للسكن).

3) استغلال الأرض الخصبة لأغراض اقتصادية وإنتاجية وهو أمر شائع حتى وقت قريب في جميع المناطق اليمنية الحضرية والريفية، قابله تحديد مساحة موقع السكن وتحديد اتجاهه راسياً.

4) محاولة تامين الاحتياجات والمتطلبات الوظيفية للسكن بتركيز مكثف واتصال اقرب وآمن وفي اقل مساحة ممكنة، قاد إلى التوسع الراسي، وهذا قد يقودنا إلى الافتراض بالتحديد المسبق لمساحات محددة لكل أسرة أو قبيلة أو ما شابه ذلك داخل حيز المدينة، ومع نمو تلك الأسر نمت الحاجة إلى التوسع الراسي ونمت معها المعارف والتقنية الملائمة للتوسع الراسي.

5) توفر المعارف والخبرات والتقنيات اللازمة لعمل ذلك.

لكن هذه العوامل وغيرها والتي قد تكون الأساس أو الشروط المحددة الأولية في إتباع التوسع الراسي، قد ارتقت وتحولت مع الزمن ومع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية إلى نوع من التقاليد والعادات والمتطلبات الحضرية والعرف الاجتماعي المتبع والملزم، وتحولت إلى نظم سكنية حضرية ذات صبغة قانونية ملزمة ومتبعة وان لم تكتب، ومدت بتأثيراتها إلى المناطق الريفية. أي إن الخبرات المتراكمة خلال الأجيال المتعاقبة والمتباعدة زمنياً قد توصلت إلى اعتماد النظام السكني ألبرجي (متعدد الطوابق) ، لأن يكون الأكثر انسجاما مع طبيعة الحياة في المدن اليمنية القديمة.

وهنا أضيفت عوامل حضرية أخرى لإتباع النظام السكني ألبرجي ومن هذه العوامل:-

1) تحولت فكرة التوسع الراسي من ضرورة واحتياج إلى فكر ونظام ومجال للفخر والاعتزاز والتميز بين فئات المجتمع الحضري..

2) أصبح التوسع الراسي للسكن هو

النظام السكني المتبع لكل فئات المجتمع الحضري (وأحيانا الريفي) وان تباينت واختلفت في طريقة بنايه وارتفاعا ته.

3) تم تحديد وظائف الفراغات داخل السكن بصورة تدريجية وبتزامن مع ارتقايه وتطوره.

4) بالممارسة المتتالية والمتراكمة أتضح إن التوسع الراسي (ألبرجي) للنظام السكني، اقتصادي في البناء واستخدام الأرض وهي فكرة قد أكدتها الدراسات الحديثة، واعتمدتها كنظام للسكن في المدن.

5) أصبح مبدأ التمايز الاجتماعي والاختلاف في نوعية السكن من حيث الأكثر ارتفاعاً في البناء وطريقة بنائه والمواد المستعملة ونوعية الزخارف ودقتها إضافة إلى التقسيمات الوظيفية داخل السكن.

6) ارتقاء المعارف التقنية في البناء، من خلال استعمال نوعية المواد لتحقيق الأمن والأمان، والعمل على تخفيف الأحمال في التوسع الراسي.

7) الاهتمام بالبيئة المحيطة للمباني السكنية من مساحات خضراء ومقاشم وساحات داخل المدينة واحترامها وعدم المساس بها أو تحويلها إلى أي فعاليات أخرى، وقد ساعد نظام الوقف والتعاليم الإسلامية على تثبيتها بتلك الصورة.

1 - 7: التقسيم الوظيفي للنظام السكني البرجي في مدينة صنعاء القديمة

أن إتباع النظام السكني البرجي قابله تقسيم في الاستعمال الوظيفي لفراغات المبنى السكني وحدد ذلك بعناية وفقاً لارتقاء الاحتياجات المنفعية والوظيفية والنظام الاجتماعي الزراعي، ولهذا فقد حُددت وظائف السكن وتقسيماته باحتياجات تلك الفترة ونختصرها بالتالي:-

1) حدد الطابق الأرضي وأحيانا الطابق الذي يليه (أو المسروق) كاصطبلات للحيوانات والتخزين كتصميم مسبق، وفي بعض المباني السكنية لبعض الأسر الكبيرة حدد الطابق الذي يليهما لأغراض منفعية أو سكنية أخرى كلٍ حسب عمله واحتياج رب الأسرة.

2) استخدمت الطوابق العليا للمعيشة والنوم.

3) استخدم المفرج في الطابق الأخير.

1 - 8: المواد المستخدمة في البناء واختيار الأرض وموقع البناء

إن اعتماد المباني السكنية ذات التوسع الراسي كمبدأ عام متبع من قبل جميع سكان مدينة صنعاء القديمة كان من المستحيل إتباعه كعرف وكقاعدة عامة للنظام السكني فيها وفي غيرها من المدن اليمنية المشابهة لولا توفر الخبرات الإنسانية المتراكمة والشروط اللازمة لتحقيق ذلك والتي نختصرها بالتالي:

1) نمو وتطور القدرات المعرفية الفنية للبنائين المعماريين (المهندسين) من خلال التجارب المتراكمة وقد نمت تلك التجارب المعرفية بسبب تخصص بعض الأسر في عملية البناء ونقل تلك التجارب من جيل إلى آخر ومن الأب إلى الابن وبالتتابع من نفس الأسرة في معظم الأحيان.

2) التوصل إلى حلول إنشائية ملائمة لتوزيع الأحمال الراسية والأفقية (أحيانا) بصورة متوازنة من حيث التصميم وتوزيع الفراغات واعتماده لقطب بئر السلم كعمود مجوف في وسط المبنى[2].

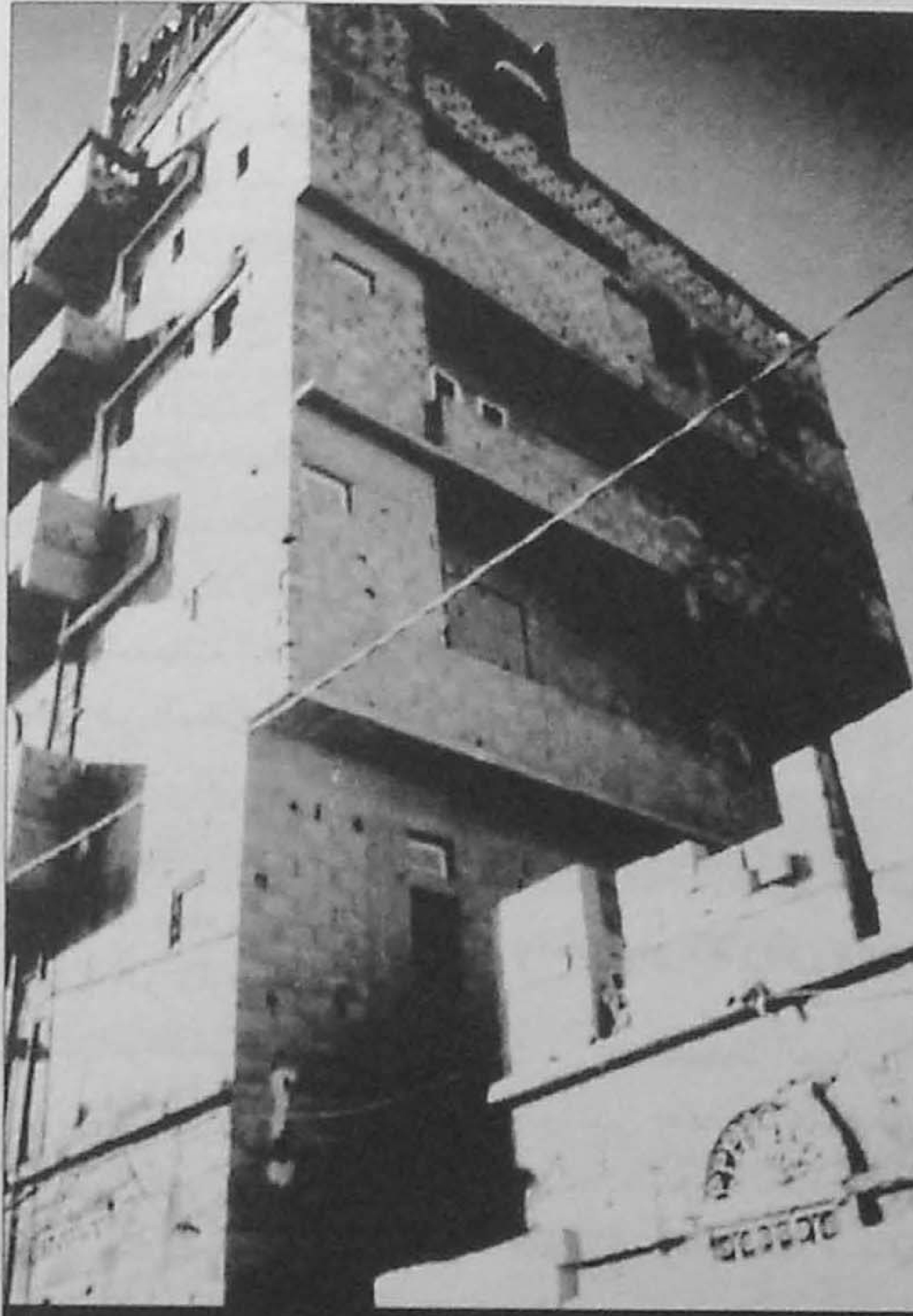
3) اختيار نوعية المواد المناسبة واستعمالها بذكاء باختلاف الطوابق مع تقليل

أسماكها كلما ارتفع المبنى، ففي الطوابق الأرضية تستخدم الأحجار ثم يليه الطوب، كما يتم تحدد الفتحات (النوافذ) بعناية ووفقا للعملية الإنشائية والوظيفية، ففي الطوابق الأرضية تفتقد الفتحات إلا من فتحات (شواقيص) صغيرة تسمح فقط للإضاءة بالدخول، ومع ازدياد ارتفاع المبنى تكبر الفتحات بالتدرج وفي نفس الوقت يقل سمك الحوائط مما يودي إلى تخفيف الأحمال على الأساس وهكذا.

4) تحديد واختيار أرضية المبنى المراد بنايه بعناية وفي منطقة صلدة تكون مقاومة التربة فيها مرتفعة، ومن ذلك يتم التحديد الفطري المستند إلى تجارب عن ارتفاع المبنى ومقاومة التربة وعرض الأساس وعمقه..الخ.

5) التحديد التقريبي بين علاقة مساحة الأرض (طول وعرض الأرض) وارتفاع المبنى.

6) الترابط بين أحجار المبنى وكتله أفقيا وراسيا، وإضافة الأخشاب لترابط المداميك عند استدعاء الحاجة والضرورة.



مبنى سكني توسع راسي في مدينة سعوان. بينما مخططها الرسمي من طابقين فقط

1 - 9: توجيه المبنى السكني :

المبدأ العام لتحديد وتوزيع فراغات المبنى وغرفه الرئيسية (معيشة ونوم..الخ) في تصميم السكن في صنعاء قد لخص بالمثال أو بالعبارة المتداولة التالية (بين سكان المدينة) « البيت العدني بيت كامل، والبيت الغربي نصف بيت والبيت الشرقي ربع بيت أما البيت القبلي فليس بيت»[3].

ولهذا فقد حرص البّناء (المعمار) أن يحدد موقع الفراغات الرئيسية المعيشية والنوم في الاتجاهات الرئيسية والتي تحصل على اكبر كمية من الإشعاع الشمسي شتاءً والتهوية المناسبة صيفاً، وحدد الفضاءات الثانوية بالاتجاهات الثانوية، ومعالجة التوجيه الزم البّناءَ والمالك أيضا بتحديد الالتزامات الخلقية والاجتماعية نحو الجار من خلال المعالجات اللازمة لها.

1 - 10: البيئية المحيطة للسكن

ونختصرها بالعناصر التالية:-

الشوارع:- اتسم عرض الشوارع والأزقة مع وسائل النقل وحجم حركة السير وتدرجاتها، ودرجة أهميتها وفقا لتلك الوسائل المستخدمة في حينه، وحددت المعايير عرضها بحسب موقع المبني السكني من الشوارع الرئيسية

والفرعية.

الساحات: صغيرة ومحدودة وتفتقر إلى مساحات خضراء، إلا إنها أدت وظيفتها في حينه على أكمل وجه كمكان للالتقاء وتبادل الأحاديث والتعارف وممارسة الاحتفالات وكمتنفس للمنازل المحيطة بها.

السوق:- يقع في حدود المقياس الإنساني وبعيدا عن السكن وهو لا يخدم فقط سكان المدينة بل يعتبر كسوق إقليمي للمناطق المحيطة به، ويتميز بانخفاض مبانيه.

المباني الدينية والخدمية: يوجد مسجد في كل حارة تقريبا بالإضافة إلى المسجد الكبير الذي يقع بمركز المدينة والذي تم بناؤه في عهد الرسول في القرن السادس الهجري أما السماسر (الفنادق) والحمامات والسبل فهي كثيرة وموزعة على المدينة.

المساحات الخضراء: تعتبر المساحات الخضراء عنصرا أساسيا من تكوين المدينة والحارة، وهي موجودة في كل حارة سكنية تقريبا كبستان أو مقشامة متصلة بالمسجد، وتسقى من مخلفات مياهه المستعملة، وتحيط به المباني السكنية والمنشات من كل جهة تقريباً، مع العلم إن نسبة المساحة لخضراء في صنعاء القديمة كانت تصل إلى 30 % من مجموع المساحة الإجمالية للمدينة القديمة إلا إنها قد انخفضت الآن.

مما تقدم نرى أن النظام السكني البرجي في هذه المرحلة قد اعتمد واتبع رسمياً وشعبيا في مدينة صنعاء القديمة، وحددت معاييره وطرق تصميمه والمساحة الشاغلة للمبنى والفراغات حوله وتقسيم وظائف المبنى وتحديد اتجاهاته وبيئته الحضرية ونظمت علاقته بالجوار..الخ.

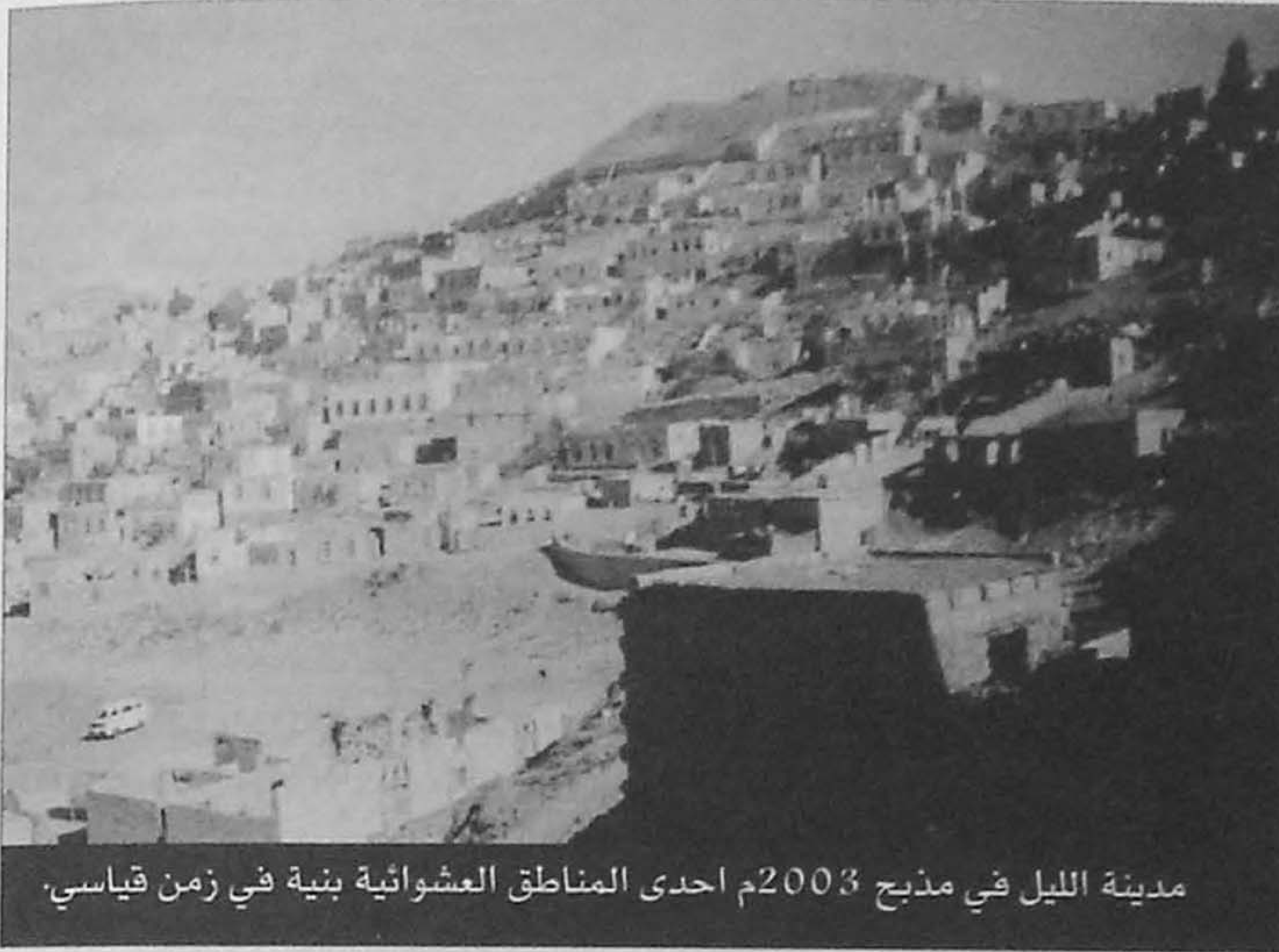
2 - المرحلة الثانية
(1538 - 1962م)

وتبدأ هذه المرحلة بحكم العثمانيين لليمن(1538م)، وازداد تأثيرها خلال فترة حكمهم الثاني (1849- 1918م)، حيث تأثرت العمارة اليمنية بالعمارة العثمانية من خلال ما شيد من مباني عمومية وسكنية، وشهدت اليمن وخاصة مدينة صنعاء خلال تلك الفترة تطورا وازدهارا حضريا وعمرانيا كبيرا، فقد دخلت اليمن مباني عمومية ،لم توجد من قبل، ذات وظائف جديدة مثل المدارس المتخصصة (الصنائعية) بالمفهوم الحضري والمستشفيات، وازدانت المساجد الجديدة بالمآذن الطويلة والرشيقة والقباب الجميلة وازدادت الحمامات، كما شيدت المباني الدفاعية والمنشآت العسكرية الحديثة خارج أسوار المدينة، وأقيمت الجسور أو العقود الجميلة والمتينة التي تربط الجانب الغربي بالشرقي للمدينة ليسهل العبور عليها واجتياز السائلة اثنا هطول الأمطار الغزيرة[4].

وفي هذه المرحلة حدثت نقلة نوعية هامة للتصميم الحضري ونظام السكن (وظيفة ومساحة) لمدينة صنعاء، فبحكم وضعهم كمحتلين وعوامل أخرى ثقافية واجتماعية وسياسية وأمنية فقد استحدث العثمانيون حيا جديدا غرب سور مدينة صنعاء القديمة هو حي (بئر العزب) وأحاطوه بسور دفاعي (وبنفس مادة وتقنية سور مدينة صنعاء القديمة) ذي أبواب محددة تربطه بالمدينة القديمة وبالجهات الأخرى.

وفي هذا الحي تم استحداث أو نقل نظام سكني من نوع آخر متأثر بالسكن العثماني ومختلف عن النظام السكني المتبع في صنعاء القديمة وان تكيف معه شكلا، حيث شيدت القصور (الدور) الكبيرة بحدائقها الجملة المزينة بالنافورات وبمساحاتها الكبيرة، ومحاطة بأسوار طينية

تفصلها عن بعضها وعن الطرق والممرات والساحات والبساتين والمزارع الكبيرة[4]، وبهذا نجد أن المساحات المخصصة للسكن كبرت وبالمقابل قل عدد الطوابق مقارنة بالنظام السكني البرجي في المدينة القديمة، أي إن التوسع بدأ يتجه أفقيا نحو الغرب من المدينة القديمة، وفي هذا ألحى فُقد نظام التجمع السكني المتلاصق والمتصل أو الحلقي، الذي ميز المجموعات السكنية في المدينة القديمة.


مدينة الليل في مذبح 2003م احدى المناطق العشوائية بنية في زمن قياسي.

المستجدات في التقسيم الوظيفي للسكن في هذه المرحلة

رافق هذا النظام السكني المستجد تغيرات جوهرية مهمة في التقسيم الوظيفي للمبنى كان لها أعظم الأثر على النظام السكني اللاحق، حيث انتقلت غرفة الاستقبال (المفرج) من الدور الأعلى الذي كان في المنزل البرجي لصنعاء القديمة إلى الدور الأسفل، وفي موقع مهم له إطلالة حسنت تصميما من خلال تصميم وتنظيم حديقة مشجرة ومزينة بالنافورات، كما أدخلت تعديلات وإضافات إيجابية هامة في كل من الزخرفة الداخلية والخارجية للمنازل[5]، وتبع هذا التغير لغرفة الاستقبال تحول وظيفي لجميع الأدوار، حتى صار بناء القصور خارج أسوار المدينة القديمة تقليداً متبعاً للملوك والأئمة والميسورين، وأدت هذه الظاهرة في حينه إلى التوسع العمراني والحضري خارج سور المدينة القديمة وبشكل أفقي، إلى حد ما، مختلف في جوهره عن السكن في صنعا القديمة.

وبرغم أن البدايات الأولى لنوعية النظام السكني هذا كان يعود إلى طبيعة التكوين الثقافي والاجتماعي والسياسي لساكني هذا الحي، إلا إن ذلك التأثير مدّ بظلاله فيما بعد على نظام السكن لمجتمع صنعاء القديمة وخاصة في الدور الكبيرة وان بقيا بشكل محدود عمليا تمثل في بضعة دور[6] الا انه فكريا بدأ يتبلور في أذهان الصفوة في نهاية تلك المرحلة، ثم في بداية المرحلة التالية أصبح كنمط معتاد ومقبول من قبل القادرين إلي جانب النظام السكني السابق والذي استمر وتضاعف في صنعاء القديمة.

وبما أنه تم إنشاء هذا الحى السكني لأغراض محددة مسبقاً نتيجة للحكم العثماني، وتم خلال فترة زمنية قصيرة نوعا ما مقارنة بصنعاء القديمة، لذلك فقد رافقه تصميم حضري أكثر تطوراً مما هو عليه في المدينة القديمة، حيث أصبحت الشوارع أكثر عرضا وأكثر انتظام واستقامة عن ذي قبل، ووجدت الميادين ونظمت وانتظمت، وانتشر نظام جديد وبأشكال جميلة للسقايات (السبل) بجانب الشوارع

وبمواقع محددة(٦)، ونظام السقايات في جوهره الوظيفي الخيري الدال على رقي المجتمع رافقه حس جمالي للشكل الذي هو جزء من التكوين العام للشارع والزقاق أو ما يسمي حالياً بالتصميم الحضري.

وهنا يجب التنويه إلى ظاهرة حضرية هامة رافقت التغيرات والتوسعات العمرانية للمدينة خلال تشكيلته الجديدة، وهو استمرار الاهتمام بالبيئة الحضرية السكنية من خلال إضافة حدائق مشجرة حول المبنى إضافة إلي ترك المساحات الخضراء من بساتين ومقاشم داخل المدينة وعدم المساس بها أو ألبنا عليها برغم ازدياد السكان، وهي ظاهرة للأسف لم يستمر الاهتمام بها في السنوات الأخيرة من هذه المرحلة وانهارت كلياً في المرحلة الثالثة، كما إنها ظاهرة هامة كان يجب إحيائها والاستفادة منها في تخطيط المجاورات السكنية الحديثة، كتراث حضري راقي وعلى درجة عالية من الأهمية، وهو أيضا ما يجب العودة إليها لإعادة الحياة لمدننا المعاصرة المحتضرة ومنها مدينة صنعاء.

وفي نهاية المرحلة الثانية وبعد جلاء العثمانيين (1918م) وانغلاق اليمن على نفسها وعلى الآخرين، والصراعات السياسية والاضطراب الاقتصادي وإباحة صنعاء 1948م وإقامة الإمام في تعز وغيرها من العوامل، بدأ ضعف النظام الحضري للمدينة والمحيط البيئي للسكن، وخلال فترة زمنية قصيرة تم القضاء على بعض المتنفسات والمساحات الخضراء، وامتد العمران جزئياً إلى بعض البساتين والمقاشم، ويتضح ذلك من خلال شغل المباني السكنية لأراضي البساتين كحارة بستان شارب ومعظم حارات الطبري وحارة الحرقان وجزء من حارة نعمان وجزء من بستان السلطان(7)..الخ.

وإذا ما قارنا هذا الانهيار الحضري السريع بصورة مختصرة في ظل السيادة المستقلة لليمن وغزارة المعارف العمرانية والتخطيطية مقارنة بما سبقها من حقبات تاريخية، سوف نجد إ[ن] اهتمام واحترام البيئية والسكنية للمنطق[ة] الحضرية لصنعاء القديمة كان أكثر رقي[اً] وتطوراً من صنعاء الجديدة، وبغض النظ[ر] عن الأسباب والمبررات لذلك، فحتى في أثنا[ء] الحكم الأجنبي استمر ذلك التوازن البيئي حيث تركت البساتين والمقاشم دون المساس بها، وكان عند الاحتياج للتوسع الجزئي المنفرد للسكن من قبل الأهالي كان التوسع يتجه راسياً، إما عند الاحتياج المفاجئ للسكن والتوسع الأفقي لاستيعاب سكان جدد (خاصة عند دخول الأجانب صنعاء) فقد اتجه التوسع غرب السائلة مثل ما حدث في عهد الأمراء الأيوبيين (1173 - 1223م)، أما في عهد الحكم العثماني الأول والثاني فقد اتجه التوسع أيضا غرباً في بئر العزب، وبقيت صنعا محافظة على اتزان تكوينها العمران الحضري إلى قبل استقلالها الكلي، ولو أهملت البيئة ولم تحترم في عهد الغزاة لكان أول من يحتل ويستخدم مساحات المناطق الخضراء وخاصة البساتين والمقاشم في صنعاء القديمة لأغراض البناء هم الغزاة الأجانب بحكم سورها الذي يوفر لهم (في حينه) قدرا من الحماية، لكنهم لم يعملوا ذلك وهذه ظاهرة جديرة بالتنويه.

وإجمالا يمكن القول انه خلال هذه الفترة حدثت قفزة نوعية جديدة لنظام السكن في مدينة صنعاء فكريا وعمليا، حيث بدأ الأمراء والحكام والقادرون بالإقتداء بالنظام السكني الجديد شكلاً ووظيفة، الا إن ذلك لم يؤثر على تغير نمط التقسيم الاجتماعي بشكل واضح، وربما يعود السبب إلى متانة الترابط الاجتماعي والقبلي في المدينة، وفي الوقت نفسه ملاءمة النظام السكني، ورغم ذلك التأثير فقد استمر النظام السكني السابق كما هو عليه، وأصبح هناك نظامان من السكن يسيران جنبا إلى جنب، ونتيجة لقدرة النظام السكني السابق على الاستمرارية وما يتصف به من

بناء حضاري واجتماعي وثقافي متماسك، فقد كانت حصته من النجاح أوفر وأكثر لأنه لا يلبي فقط المتطلبات المادية السكنية بل والمتطلبات الروحية السكنية، محققا بذلك الترابط الاجتماعي ومتطلبات الجوار والانفتاح نحو الجار بشكل أكثر مما هو متبع في النظام الجديد الذي حدد سلفاً لفئة محددة من السكان وحصر بين الحوائط وانعزاله إلى حد ما عن الجار والجوار.

ولهذا نجد أيضا أنه حتى في مرحلة التدهور الحضري اللاحق في نهاية المرحلة الثانية وغزو العمران على مساحة البساتين داخل السور وخارجه، كان النظام السكني للمرحلة الأولى التقليدية الأكثر انتشار وسيطرة، وان ارتقى تصميما وتخطيطاً عما سبقه حيث انتظمت مساحاته البنائية وأصبحت مساقطها أكثر انتظاما تربيعاً واستطالة، وصريحة الشكل على هيئة مربع أو مستطيل، والذي أدى بدوره إلى انتظام الشوارع وتوسعها وأصبحت أكثر استقامة وانتظام، واختفت البروزات المتكررة للمباني على الشوارع (والتي تلاحظ كثيرا في الشوارع والأزقة القديمة للمدينة) [8].

وبرغم القدرة الكامنة لإمكانية استمرار النظام السكني التقليدي للمرحلة الأولى لارتباطه بتقاليد حضرية واجتماعية وثقافية وعادات وتقاليد ملزمة تجاه الجار، وقدرته على منافسة النظام السكني للمرحلة الثانية، لذي يمكن القول إن النظام السكني الجديد في المرحلة الثانية، هو حد فاصل بين مرحلتين فهو يميل شكلاً وتشكيلا إلى العمارة التاريخية المتراكمة لصنعاء القديمة، بينما يميل وظيفيا في تقسيماته الداخلية إلى النظام السكني في المرحلة الثالثة والتعايش معها بل والتأثير عليها في كثير من الخصائص، ولهذا فان المتغيرات في هذه المرحلة كانت تتم في نفس التشكيلة الاجتماعية السابقة (الزراعية) وإن طرأ عليها بعض التعديلات القليلة إلا أنها كانت توجد صعوبات في استمراره لعدم قدرته على الصمود أمام المستجدات الجديدة وخاصة بعد الثورة وتغير المفاهيم الاجتماعية واهتزازها بقسوة وانتقال المجتمع إلى تشكيلة اقتصادية أخرى تختلف عن سابقتها شكلاً ومضمونا في كل شي مما أدى إلى فقدان توازنها وانحياز الصفوة المثقفة بوعي أو بدون وعى إلى النظام السكني للمرحلة الثانية، وكانت بداية مرحلة جديدة وهى المرحلة الثالثة.

3 - المرحلة الثالثة

تعتبر هذه المرحلة ثورة وتغير شامل في كل مجالات الحياة ومنها النظام السكني، والتغيرات في هذه المرحلة مست جوهر تكوين المجتمع المادي والروحي وحولته ومازالت من تشكيلة اقتصادية واجتماعية إلى أخرى.

وموضوع التحول في النظام السكني بمفاهيمه تخطيطا وتصميما وبيئيا هو انعكاس مباشر لكل تلك الإرهاصات والتغيرات الحضرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ففي بداية هذه المرحلة، ظهرت أنواع وأشكال كثيرة من أنماط السكن وطرزها لازمت المتغيرات المتتالية والسريعة للتحضر، والنوعية الجديدة لنمط الحياة والمعيشة في المدن.

وبالرجوع إلي المرحلتين السابقتين يتضح أن النظام السكني المتبع في المرحلة الثانية لم يستطيع التغلب على النظام السكني التقليدي في المرحلة الأولى، بل يمكن القول إن تأثره فيه أكثر من تأثيره عليه أي انه في أحيان كثيرة خضع لتأثيره، وتكيف معه لارتباطهما بنظام اقتصادي متشابه وان اختلف زمنيا، برغم غرابته النسبية وانغلاقه وانعزاله نحو الداخل من خلال الأسوار الكبيرة المحيطة في المبنى مقارنة مع السكن التقليدي لصنعاء القديمة المنفتح نحو الخارج والمراعي لحقوق الجار، مما جعله في أحسن الأحوال أن يتعايش معه وبشكل

محدود.

إلا أن النظام السكني الذي نمى في المرحلة الثانية لم ينهزم كليا واكتفي بالتعايش مع الماضي بل كان يكمن في أحشائه شيء آخر، منتظراً الفرصة المناسبة لينقض ويفرض مفاهيمه السكنية. وما أن وجد تلك الفرصة السانحة التي وفرتها له ثورة 26سبتمبر 1962م بمفاهيمها وانفتاحها على العالم، حتى انطلق كالمارد وبدون رحمة أو إشفاق للماضي فارضاً مفاهيمه وأنظمته السكنية مشككاً ومخلخلاً البنية الاجتماعية والثقافية للنظام السكني التقليدي، الذي رسخت مفاهيمه بثبات وإيجابية خلال مئات السنين.

وكانت النتيجة ظهور نظام جديد للسكن هو المرحلة الثالثة، ضم في محتواه أولا توسع النظام السكني للمرحلة الثانية وارتقائه إلى أنواع وأشكال أخرى وهو ما يعرف حاليا بنظام الفلل، وثانيا ظهور أنواع وأشكال وطرز جديدة من نظم السكن يعرف بالطراز العالمي والذي أحاط بصنعاء القديمة من كل الجهات وامتد إلى أماكن أخرى، وثالثا الاستمرار الجزئي للنظام السكني التقليدي وبأنواع وأشكال متعددة.

ولهذا تميزت هذه المرحلة بتدفق السكان إلي صنعاء من كل مكان في اليمن، وتوسع المدينة الأفقي، وبتعدد وتنوع أنظمة وطرز العمارة السكنية وظهور أنواع جديدة لم تكن معروفة من قبل، كما تم تعميم استخدام الخرسانة المسلحة والبناء بالطوب الإسمنتي، واختلط الجديد بالتاريخي والنظامي بالعشوائي في كل منطقة من المدينة تخطيطا وتصميما وتنفيذا، وخلخلة البيئية السكنية وفقدت المساحات الخضراء والمساحات الخاصة بالمرافق والخدمات الاجتماعية، واهتزت العلاقات الاجتماعية ومبدأ الجوار والنظم الحضرية التي كانت متبعة في صنعاء القديمة، والقائمة على مبدأ حقوق الجار وواجباته وعلى التعارف والتعاون ومبدأ العيب الذي نمى بين السكان منذ آلاف السنين، بسبب تدفق السكان الجدد إلى المدينة باختلاف مشاربهم الثقافية وتقاليدهم، وبذا فقدت كل تلك السمات.

كل هذه الإرهاصات كانت بديهية وطبيعية ومقبولة في البداية في مجتمع أنغلق على العالم لفترة زمنية طويلة، وبحكم الصدمة المفاجئة والانتقال السريع إلى نمط جديد من الحياة وفي مجتمع أيضا سريع التحول والتغير، بحكم التطلع إلى التجديد والتطور والاندماج بالعالم، وجدة الحدث، وعدم وجود خبرات سابقة في مجال الإدارة والتنظيم الحضري والافتقار إلى المعارف التخطيطية والإمكانيات المحدودة التي كانت توجه إلى الأوليات الأكثر إلحاح.

إلا إن استمرار تلك الظاهرة بدون توجيه بل وتحولها أحيانا إلى قاعدة عامة متبعة اضر ليس فقط بطبيعة التكوين العام المادي للمدينة وتخطيطها العمراني ونظمها السكنية بل أيضا بالنواحي الروحية والاجتماعية وبالنمو الحضري الطبيعي للمجتمع ومبدأ الجوار والعلاقات الاجتماعية بين الناس..الخ (وبدون الاستعاضة عنها بشيء) وافتقاد الرؤية عن مستقبل التخطيط والسكن.

والواقع أن هناك صعوبات ومعوقات كبيرة تكتنف دراسة وتحديد نوعية النظام السكني خلال هذه المرحلة لأسباب كثيرة، منها أن معظمها لم تتضح بعد من قبل الكثيرين، كما أن وجهات النظر حول تحديدها، والكيفية التي هي عليها، والتي يجب أن تكون فيها، مازالت متباينة ويسودها التحفظ والمسايرة (وأحيانا الغمز واللمز والرمز) الغير صريحين، مابين الكثير من المتناقضات مثل الحنين والعودة إلى الماضي أو رفضه، ورفض الحاضر أو قبوله والتكيف معه، ومابين الأمل والتطلع إلى المستقبل أو الخوف منه ودواليك، مثله في ذلك مثل كثير من المفاهيم الحضرية أو التحضر (في اليمن) والتي لم تستقر بعد

علـى تعريف محـدد برغم اتفاقهـا المطلق على عموميات المفاهيم التغيرية المتعلقة بالتخطيط ومسألة الإسكان وغيرها، إلا إنها تختلف كليا علـى التفاصيل والتي هي الأصـل في معالجتها، برغـم مرور أكثر من أربعين سـنة منذ بدايتها، ازدادت صنعاء خلالها مساحة وسكانا عشرات الأضعاف، وللتدليل على أهمية تعريف المفاهيم فـان إدارة الإسـكان فـي وزارة الإنشـاءات لـم تسـتطع بعد تحديد نوعية السـكن الحكومي المدعـوم الذي يقدم لذوي الدخل المحدود حتى الآن، بسـبب أن تفاصيل مفاهيم نوعية السكن، وذوي الدخـل المحدود، والسـكن الحضري لم يتم تعريفها بعد، حتى يسـهل اتخـاذ القرارات، برغم اتفـاق الجميع على العموميـات وان هناك مشكلة سكن وتخطيط وبيئية..الخ.

وبالمقابـل نجـد أن الكتابة عـن الماضي والتراث المعماري السكني المتميز، وجماليات العمـارة اليمنية وأنظمة البنـاء والأصالة والمدن التاريخيـة والحفاظ..الـخ، تكـون أسـهل مـن الكتابة والحديث عن الوضع الراهن والمشاكل اليومية المتفاقمة التي تواجهها المدن المعاصرة، وهي ظاهرة فريدة تتميز بها اليمن وبعض الدول العربية بخلاف كثير من دول العالم، والتي تبذل طاقتها وميزانياتها لدراسة المشاكل الحضرية الملحـة التـي تواجهها من اجـل معالجتها ومنها السـكن، وتعتبـر الخـوض في عمـارة الماضي ومدنـه من أصعب الكتابـات لما يحتاج إليه من تحري ودقة واسـتقصاء فـي المعلومات، إضافة إلى أن دراسة الماضي يجب أن يكون في سبيل خدمة الحاضر في أغلب الحالات.

وللأهداف المسبقة لهذا البحث سوف يتم التطـرق باختصـار إلـى الخصائـص والخطوط العامـة التي ميـزت النظام السـكني الذي اتبع خلال هذه المرحلة، ورافق المتغيرات المتسارعة التي لازمتها وأثرت عليها، وسوف نوجزها بثلاث فتـرات زمنيـة هامة ارتبطت بتحـولات وتغيرات محلية وإقليمية وعالمية هامة أثرت على العمارة السكنية وهي:-

3 - 1: الفترة الأولى من المرحلة الثالثة (1962 - 1973):

وتبدأ مع الثورة عام (1962م) وحتى حرب أكتوبـر (1973م)، وتعتبر هذه الفترة مرحلة تغيير شامل في كثير من المفاهيم ومنها النظام السـكني الذي تعرض إلـى اهتزاز في تكوينه لـم يسـبق لـه مثيل مـن قبـل، ونورد بعـض أهم المتغيرات خلال هذه الفترة.

1) انتشـار اسـتعمال مـواد جديـدة مثـل الخرسـانة المسـلحة والطـوب الأسـمنتي بشكل واسع.

2) ازدياد سكان المدينة بنسب عالية مما تطلـب إيجاد سـكن عاجل لإيوائهـم، تمثل بالبناء العاجل، النظامي والعشوائي وبأشكال تقليدية وجديدة وتحويل كثير من الفضاءات المعماريـة التـي كانـت تسـتخدم لأغراض أخرى إلى سكن، وبداية البناء العشوائي.

3) التطلع إلى التغيير في المبنى السكني شـكلاً ومضمونـا كـرد فعـل علـى البناء التقليدي، حيث كانت أشـكال المباني من الخرسانة المسلحة والطوب الأسمنتي جميلة ومبهرة شكلاً، ومطواعة في تشكيل المبني وكتله، ويختصر من فترة إنجاز العمل.

4) أصبحـت مفاهيم التغيـر والتجديد في العمارة السكنية مرادفة للحداثة والجمهورية أما التقليد فمرادف للماضي والتخلف.

5) افتقـار المجتمـع للخبـرات المعماريـة الموجهة لعمليات التغير من مهندسـين وفنيين وعمالة ماهرة.

6) اسـتقرار كثيـر مـن الوافديـن (مـن الريـف) فـي صنعـاء القديمـة ونـزوح بعض السـكان الأصليين الـى خارجهـا أدى إلـى خلخلـة وإضعـاف النسـيج الاجتماعي والحضري والعمراني داخـل المدينة، اللذين

بنيا منذ مئات السنين.

7) وجـود نوعين مـن المهنييـن ومحترفي البنـاء التقليـدي المتوارث والبنـاء الهيكلي بالخرسانة المسلحة والطوب الأسمنتي..الخ.

8) الافتقـار التـام للدراسـات الإسـكانية والسـكانية وغياب الوعـي عن أهمية القيمة التاريخيـة للمدينة القديمـة. كما وجدت في هذه الفتـرة بعض المظاهر السـلبية والتي لم يحسـم توجيههـا بعد بشـكل علمـي واقعي ومازالت قضاياها عالقة:

1) اختـلاط وتداخـل الجديـد بالتاريخي والنظامي بالعشوائي.

2) إزالة بعض أجزاء سـور مدينة صنعـاء القديمـة والبنـاء حوله أو بجانبه عمارات تجارية وسـكنية متعـددة الأدوار وبطرز وأشـكال جديـدة من الخرسـانة المسـلحة والطـوب الأسـمنتي وبارتفاعـات كبيرة، أضعفت بصريا التكوين العام للمدينـة التاريخية وطرازها المعمـاري والتخطيطي ونسـيجها الحضري.

3) التوسـع الأفقـي للمدينـة الجديدة، والذي تقتضيه الضرورة الملحة الفردية للسـكن ويسـبق التخطيط دائماً.

4) غـزو بعـض المـواد الجديـدة بتشكيلاتها المستجدة إلى بعض المباني والفضـاءات داخل صنعاء القديمة.

أما أنـواع المبانـي السـكنية التي ظهرت خلال هذه الفترة فنختصرها بالتالي:-

1) مبانـي سـكنية متعـددة الطوابق ذات الشقق المتقابلة لإيواء اسر مختلفة المشارب الثقافية، ويعتبر هذا النوع من السكن جديد على المدينة وهو عكس المباني السـكنية متعـددة الطوابـق (البرجيـة) فـي المدينـة القديمـة والتـي كانت تسـكن بها الأسـر الكبيرة الممتدة.

2) اسـتمرار النظـام السـكني للمرحلة الثانيـة ذات المسـاحات الكبيـرة، ومنـه اشـتقت فكرة نظام الفلل السكنية المستقلة ذات المساحات والكتل المختلفة.

3) استمرار البناء التقليدي بشكل محدود وتكيفـه مع المتطلبـات الوظيفيـة الجديدة وتحويل الطوابق السفلية إلى سكن، بل انه تم تحويل حتى بعض الطوابق السـفلى في مباني صنعاء القديمة إلى سكن لإيواء النازحين من الريف.

4) مباني سـكنية لتلبية الطلـب المتزايد للسـكن وتراوحـت مسـاحتها وتصميماتها وأحجامهـا مابيـن المسـاحات الصغيـرة والمسـاحات الكبيـرة، ومـا بيـن كل مـن التكاليف المرتفعة والتكاليف المنخفضة، والنظامي والعشـوائي، والمرتفع والمنخفض، ويعتبـر هـذا النـوع مـن البنـاء هـو الأكثر انتشاراً وتوسعاً واستيعاباً للسكان.

5) بدايـة ظهور وانتشـار البناء العشـوائي الفردي بأنواعه داخل المدينة.

3 - 2: الفترة الثانية للمرحلة الثالثة (1974 - 1990م)

افترض اعتبار 1974م البداية الفعلية لنقلة نوعية لمرحلة جديدة من التغيير السكني، بسبب تأثير ارتفاع أسـعار النفـط (بعد حرب أكتوبر) ومـا رافقـه مـن تنميـة عمرانية مكثفـة بدول الجـوار جذبت بدورها هجرة كثير من اليمنيين للعمـل هنـاك، وما أدى إليـه من عائـدات مالية دفعت بدورها حركة التحضر والبناء والعمران، وتوسـع المدن ونظم البناء..الخ، وغيرها من نمط الحياة وسـلوك الاسـتهلاك، وتوسع المدن ونظم البناء..الخ، ونوجز العوامل العامة التي أثرت على

حالة النظام السكني وتكويناته بالتالي:

1) بدايـة التكيـف التدريجـي بمجريات التغيـر للحيـاة الحضريـة الجديـدة بعـد الصدمة المفاجئة الأولى التي افتقد المجتمع على أثرها نوعا ما من توازنه واستقراره.

2) إعـادة النظر فـي كثير مـن المفاهيم ومنهـا المفاهيـم التخطيطيـة ونظـم البنـاء ونوعية السـكن ومحاولة البحث عن سبل جديدة.

3) يقظة المثقفين والمعماريين والمهتمين بالتـراث والآثـار المعماريـة لإبـراز الهويـة المعماريـة المحلية والتراثيـة، وبداية الدعوة العالميـة للحفاظ على المـدن التاريخية، وإن كانـت بـدون رؤيـة واضحـة إلا أن تأثيرها فيما بعد كان واضحاً.

4) زيـادة مركزيـة إدارة الدولـة أدت إلى الزيادة السريعة لسـكان العاصمة وتوسعها المفرط وانتشـار العشـوائية بشكل أسرع، وإلـى افتقـاد التـوازن الحضـري بيـن مـدن المحافظات المختلفة.

5) لأول مرة فـي التاريخ تعمـل مخططات عامـة للمـدن وتحـدد نموها مسبقاً، وعلى ضوئهـا تم عمل مخططات تفصيلية لوحدات الجوار مع تحديد معايير لعناصر مكوناتها.

6) زيادة سـكان المدن وتوسـعها بسـبب الطفـرة الاقتصاديـة التي أحدثتهـا عائدات المغتربيـن مـن توفر فرص العمـل في مجال البناء والتشييد وارتفاع المستوى المعيشي.

كما رافق ذلك التحضر والازدهار المفاجئ بعض المظاهر التخطيطيـة والعمرانية المؤثرة في النظام السكني منها:

1) اسـتمرار وزيـادة الأنشـطة المعماريـة السابقة، والتوسع العمراني الأفقي.

2) زيـادة اهتـزاز أو تخلخـل العلاقـات الاجتماعية وتركيب الأسرة، وبداية التحول نحو الأسـرة النووية، قابله مسـاحات كبيرة لعـدد اقـل من السـكان (بسـبب انشـطار الأسـرة إلـى خلايا أو اسـر صغيرة مسـتقلة وفـي نفس الوقـت زيادة المسـاحة المطلوبة للسكن للأسرة النووية، وهو مبدأ متعاكس تماماً وكلياً مع نظام السـكن في المرحلة الأولى) والاتجاه العام للسكان نحو متطلبات النظام السكني الحضري الجديد.

3) رافق التوسـع الأفقـي للمدينـة افتقـار المدينـة والمناطـق السـكنية للفضـاءات العمرانيـة، والمسـاحات الخضـراء وبعـض المرافق والمباني العامة الضرورية.

أما الخطوط العامة للنظام السـكني الذي اتبـع في هذه الفترة فهو نفس النظام السـكني السابق مع إضافة عناصر أخرى نجملها في:

1) تفاقـم الازمـة السـكنية قابلـه بلورة فكـرة إلزاميـة وضروريـة تدخـل الدولـة، والمنظمـات الدوليـة لمواجهة أزمة الإسـكان السـريعة الناتجة عن التحضر السريع من خلال بدايـة التدخل المباشـر والغير مباشـر لمعالجة بعضها من خلال:-

1 - تبنـي مشـاريع إسـكانية منخفضـة الكلفـة مكونـة مـن دور واحـد، مدن العمال في كل من تعز والحديدة.

2 - تشجيع القطاع العام والمختلط والتعاونيات بإنشاء بعض المشاريع الإسكانية مثل:

- مدينـة حـدة السـكنية - بنـك الإسـكان – توسـع أفقـي دور واحد.
- مدينـة البنـك اليمنـي للإنشـاء والتعمير- سـواد سـعوان – مباني متعدد الأدوار (أربعة طوابق) - تم بيع الشقق للأفراد مباشرة.
- مشـروع التنميـة الحضرية سـواد سـعوان، وتعتبـر مرحلـة متطـورة ذات حجـم كبيـر كان مخططا لـه الاسـتمرارية، وهي عبـارة عن

أراضـي تـم تخطيطهـا وتخديمها بالخدمات اللازمة، ومن ثم قسمت إلـى أراضـي بمسـاحات صغيـرة ووزعـت لـذوى الدخـل المحدود، ونظام السكن المخطط له مسبقاً سـكن منخفـض الارتفاع (أفقي) مـن دوريـن، إلا أن وضعـه الراهن قـد تغير ووصلت بعـض إرتفاعات المباني فيه إلى خمسة طوابق.

3) ظهور مشاريع سكنية استثمارية تابعة للقطاع الخاص ذات مساحات كبيرة للمغتربين وذوي الدخـل المتوسـط والمرتفـع، مثـل مدينة الاصبحي ومدينة هائل (في بيت بوس)—توسـع أفقي من طابق وطابقين.

4) ظهور جمعيات تعاونية سكنية مستقلة خاصة - توسع أفقي.

5) استمرار وتوسـع النمط السابق من البناء السـكني بأنواعـه النظامـي والعشـوائي ذات المسـاحات الكبيـرة - والبناء مرتفـع الكلفة، وقطـع الأرض ذات المسـاحات الصغيـرة والبناء منخفض الكلفة، وما بينهما أنواع كثيرة.

ومـن خـلال مـا سـبق يمكـن القـول، إن النظام السـكني العـام والمسيطر والذي اتبع حتـى تلـك الفتـرة قـد رَسـمت ملامـح التطور اللاحـق الـذي سـتكون عليـه مدننـا وحددته تقريباً وأصبح التوسع الأفقي للمدينة هو الغالب والمسيطر كاتجـاه عام وانعكـس ذلك حتى على المخططات التفصيلية الرسمية للمجاورات السكنية ومعاييرها والذي يعتبر قانونيا ملزما، وحـدد هذا الاتجاه هو الحاجة الملحة للسـكن في ظل غياب السياسـة الحضرية والإسـكانية الموجهة لعملية النمو الحضري في المدن.

والواقـع أن الحكـم علـى تحديـد النظـام السكني بأنه أفقي، يبقى نسبي لأنه لم يستقر بعد على شكل نهائي من الناحية الفكرية والذهنية ، وأن اسـتقر مـن الناحيـة الواقعيـة ومن ناحية المعايير النظرية الرسـمية والتـي هي الأصل في تحديد مسـتواها البيئي العام، لان معظم المباني السـكنية المشـيدة فـي المـدن ومنهـا مدينة صنعـاء لم ينته بناؤهـا ومازال الحديـد بارزا أو انه قد أضيفت أعمدة في بعضها استعداداً لبناء طوابق أخرى، وعندما يكتمل ذلك البناء ويصبح الاتجـاه الأغلب لبنائها راسـياً، مـن المؤكد أن تلـك المناطق السـكنية سـوف تفقـد توازنها، وحينها سـوف يزداد اختلالها البيئي إلى الأسوأ، بسبب فقدان الفضاءات العمرانية والمساحات ا لخضراء.

ومن هذا يتضح أن اتجاه النظام السـكني العـام والراهـن الـذي آل إليـه فـي هـذه الفترة (منتصف المرحلة الثالثة) هو النظام السـكني ذو الاتجـاه الأفقي الغير متوازن بيئياً، والذي قاد ووجه هـذا النظام هم الأفراد أنفسـهم وبطريقة عشـوائية، معظمها افتقدت أي تخطيط مسبق، وحتى المشاريع الإسـكانية التي مولتها الدولة وبعـض المنظمـات أو المؤسسـات فقـد تأثرت بالاتجاه السكني العام المتبع ميدانياً (الأفقي)، أي عكس النظام التقليدي ذي الاتجاه الراسي.

3 - 3: التغيير الثالث في المرحلة الثالثة ما بعد 1990م

تم تحديد بداية هذه الفترة بعاملين رئيسيين مهمين هما :-

الوحـدة اليمنية 22 مايو 1990م وما رافقها مـن ازدياد سـكان مدينة صنعاء وانتقـال بعض الموظفيـن الحكومييـن وغيرهـم إلـى مدينـة صنعاء، وزيادة الطلب على الإسكان ومحدودية العرض.

1) حـرب الخليـج الثانيـة 1991م وعـودة المغتربين اليمنيين.

تعتبـر حـرب الخليـج وما أفرزتـه من عودة المغتربيـن اليمنيين المفاجئ وسـكن معظمهم في المدن الرئيسـية ومنهـا مدينة صنعاء إحدى المؤثـرات الهامـة فـي التأثيـر علـى السـكن

في المدن، فبعودة المغتربين وعوامل أخرى مرافقة فقدت اليمن إحدى أهم مصادر دخلها من العملات الصعبة مما أدى إلى انخفاض معدل دخل الفرد وركود اقتصادي قابله زيادة سكان المدينة وزيادة الطلب على السكن وتوسع المدينة الأفقي. وإرهاصات اقتصادية واجتماعية وثقافية كثيرة ونورد هنا بعض المؤثرات الرئيسية التي أثره على الإسكان:

1) استمرار تقهقر الوضع السكني والتوسع الأفقي المفرط.

2) الازدياد المفرط على طلب السكن وانفجار ألازمة السكنية.

3) استمرار تدهور وافتقار المناطق السكنية للفضاءات العمرانية والمتنفسات والمساحات الخضراء والمساحات المخصصة للمباني والمرافق العامة.

4) تحول الكثير من المظاهر السلبية التي كانت غير قانونية وغير مقبولة إلى ظاهرة عامة شبه مقبولة ومتبعة أو أن محاولة السيطرة عليها بدون إيجاد الحلول لها يورث مشاكل أكثر تعقيدا (البناء العشوائي المفرط، الاعتداء علي أراضي المتنفسات والحدائق ..الخ).

والنظام السكني الأغلب الذي اتبع في هذه الفترة إضافة إلى ما سبق نجمله بالتالي:

1) توسع السكن العشوائي بنوعيه المنظم (الجماعي) والفردي من خلال احتلال بعض الأراضي التابعة للدولة بالقوة في المناطق المحيطة بالمدينة والبناء العشوائي عليها وكذلك توسع البناء العشوائي داخل المدينة.

2) زيادة المشاكل فيما يتعلق باحتلال أراضي الغير والبناء عليها.

3) أصبحت الاحتياجات الملحة للسكن تهمل بعض مبادئ العمارة مثل الشكل والطراز والوظيفة..الخ

4) ظهور مباني سكنية مستقلة كبيرة المساحة جميلة الشكل والتكوين يغلب عليها البذخ والإسراف - توسع أفقي.

5) جمود السياسة الإسكانية الرسمية وشبه توقف المشاريع الإسكانية الحكومية.

6) أدى التوسع الأفقي المفرط للمدينة إلي العودة والاستثمار المكثف للأراضي قرب المراكز الرئيسية للمدينة وبجانب الشوارع الرئيسية، والاتجاه نحو البناء الراسي بدلا عن المباني المنخفضة.

وبالمقابل ظهرت بعض الدعوات للحد من التلوث البصري والعمراني للمدينة ومعظمها أكاديمية نظرية يصعب تطبيقها في الوضع الراهن إلا في حدود ضيقة جداً منها:

1) الدعوة للاهتمام بالطراز المعماري التقليدي الذي تتميز به اليمن.

2) محاولة تعميم استعمال الأحجار في البناء باسم العمارة التقليدية وهو أمر مبالغ فيه، ويعتقد انه قد لا يصمد طويلاً أمام المستجدات الحضرية ومتطلبات السكن بالمدن، وضرورة الاقتصاد بتكلفة البناء وسرعة إنجازه وأحيانا إمكانية تغير وظائفه.

3) زيادة الاهتمام المحلي والعالمي بالتراث المعماري اليمني المتميز والمدن التاريخية.

الخلاصة:

من خلال التتبع التاريخي للنظام السكني في مدينة صنعاء يتضح انه قد مر بثلاث مراحل رئيسية هامة هي: أولا النظام السكني البرجي المنفتح نحو الجار أو الخارج والذي تميزت به صنعاء القديمة، وثانياً النظام السكني الأفقي المسور والمنغلق نحو الداخل والذي أتى به العثمانيون وتبنوه كسكن لهم واقتدى به الأمراء والحكام والأعيان، وقد انتشر بصورة محددة إلى جانب النظام السكني البرجي لصنعاء القديمة، وكان تأثره بالسكن التقليدي أكثر من تأثيره عليه، وقد تزامن النظامان وتوازنا معاً بيئياً واجتماعياً وعلاقات جوار متميزة ومتعاونة.

ثم أتى النظام السكني الثالث بعد 1962م والذي جمع في طياته أشكالا وألوانا وطرزا كثيرة من السكن، وبتوسعة الأفقي الغير متوازن بيئيا واجتماعياً، وكانت السمة الغالبة والمميزة له هو التوسع الأفقي الغير مدروس والذي أهمل جميع الأسس الحضرية لنظم السكن في المدن، سواءً التراث المعماري الحضري التقليدي لصنعاء القديمة والمدن اليمنية، أو النظم السكنية الحضرية الحديثة المتبعة في المدن المعاصرة، وكانت النتيجة لا هو سكن حضري ولا هو سكن ريفي، وعبارة عن كتل معمارية متراصة أو مباني داخل أسوار متلاصقة ومنعزلة تؤدي الغرض بأضيق الأحوال، افتقدت على أثره أسس البيئة السكنية الحضرية، من المتنفسات والفضاءات العمرانية والمساحات الخضراء وأماكن للعب الأطفال والتمشية ..الخ، والتي تعتبر جزءاً أساسيا من التكوين السكني وعادة ما تودي إلى ترابط اجتماعي، وتبعث على روح التعاون بين الجيران، صاحب هذا الوضع السكني الغير متوازن ازدياد المدينة مساحة وسكانا عشرات الأضعاف عما كانت عليه في بداية هذه المرحلة.

وبالعودة التحليلية العلمية وبنظرة جديدة إلي التراث المعماري لمدينة صنعاء القديمة والمتمثل بالمباني السكنية البرجية متعددة الأدوار، نجد إنها غنية بالأفكار الحضرية القوية المادية والروحية، والتي يمكن الاستفادة منها في تخطيط المناطق السكنية المعاصرة وبالأخص السكن المخطط مسبقاً والمدعوم كليا أو جزئيا من الدولة أو المؤسسات الأخرى، على أن يرافق ذلك دراسات اجتماعية وحضرية تعالج الأسس العامة الكامنة في هذا النوع من السكن، والذي تمثل في الماضي بان التكوين العام الوظيفي للمبنى القائم بذاته لأسرة واحدة ممتدة نمت خلال فترة طويلة من الزمن تكونت خلالها علاقات اجتماعية وجوار حسنة وملزمة مع الدور والمباني المجاورة قائمة على التعاليم الإسلامية السمحاء وعلى التراث الحضري الاجتماعي المتراكم عبر التاريخ (ونمو الأسرة العضوي ألبطي) والمرافق لتشكيلية اجتماعية تعتمد على الزراعة كأساس اقتصادي.

وبالمقابل فإن السكن الحضري متعدد الطوابق المعاصر، والذي أتى كنتيجة لضرورات اقتصادية واجتماعية لمجتمع مدينة العصر الصناعي والذي تلاه، واعتمد كسكن فعال اتبع في كثير من مدن العالم ومنها الدول الإسلامية والعربية، وتميل هذه الدراسة إلى إمكانية تكيفه هنا على اعتبار أنه ليس بجديد وأن التراث السكني الحضري في اليمن المتمثل بأبراج صنعاء وشبام وغيرها قد سبقته، وهو سند تاريخي قوي، إلا أن ذلك وحده لا يكفي فجوهره قد اختلف كلياً حيث فقد بعض تلك العوامل الماضية والمتمثلة بالسكن للأسرة الممتدة بطيئة النمو، إلا أنه يمكن تحويله إلى سكن بمحتوى جديد يتلاءم مع المستجدات ويحتوي على كثير من الأسر النووية ومن مناطق

مختلفـة، لا تربطهـم بالضرورة علاقات أسـرية، ولكـن ممكن أن تربطهم علاقات من نوع آخر مثـلا مهنية أو مسـتويات اجتماعيـة واقتصادية متقاربـة أو مصالح..الـخ أو مـا شـابه ذلك حتى يتـم تكيفـه، وكل هـذا يحتـاج إلى دراسـات حضريـة متعمقة مـن قبل مراكـز متخصصة، لان اثر ذلك النظام السكني البرجي القديم في صنعاء القديمة وغيرهـا من مدن ومناطق اليمن مـازال يحمل في جوهـره عناصر كامنة وفعالة وتحتـاج إلى إحياء بصـورة ايجابية وما زال ذلك ممكنـا وذا قوة مؤثـرة ويحتاج إلـى المحافظة عليـه وإحيائه والاسـتفادة منه، ويتمثل كل ذلك بعلاقـات الجـوار القويـة والإحسـاس بأهميتها عنـد كل أبنـاء اليمن في سـلوكهم وعلاقتهم ومعاملتهـم بـل وحتى في بعـض كلمات لغتهم. لان مفهوم الإسكان عندهم ليس فقط مساكن وشـوارع..الخ، بـل هي حياة اجتماعية وسـكان متعاونـون وجيـران تربطهم علاقـات اجتماعية كل هـذه من المكونات الأساسـية للسـكن، كما أن التعاليم الإسلامية والسلوك الاجتماعي المتبـع ما زالـت ذات مفعـول وتأثيـر عميق في تنظيم السكن الحضري وكل ما يحتاج إليه هو الدراسـة والتنظيم والتوجيـه والدعم. لان كل المفاهيـم والثقافـة المتأصلة فـي النفوس حول السـكن والجار يمكن الاسـتفادة منها لتوجيه النظام السـكني المسـتقبلي من خـلال تظافر جميع العلوم الإنسـانية وبالأخـص علم الاجتماع الحضري.

كمـا أن هنـاك عوامـل مستجدة أخـرى فرضت وأضيفت لصالح الاتجاه في البناء الراسي العمـودي في كل المدن الكبيرة والمتوسـطة المعاصـرة وتحتـاج إلـى دراسـات ومعالجـات تتمثـل بازديـاد السـكان فـي المدن والتوسـع الأفقـي وسـلبياته، ونسـبة الزيـادة المسـتمرة لطلب السـكن مقارنة بالعرض، وانخفاض دخل الفرد المسـتمر وانعـدام المسـاحات الخضراء والفضـاءات العمرانيـة وضـرورات تخطيطيـة واجتماعيـة واقتصاديـة وحضريـة أخـرى تحتم تحديد الكثافات السـكانية والسـكنية وفي نفس الوقـت تحدد توزيـع تقسـيم الأرض وفقا للفعاليـات المختلفة وبمعايير محددة مثبّتة مقرة سلفاً قانونيا.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أهمية هذا النوع من السـكن مـن خلال المقارنـة التالية: حيث تبين الإحصائيات الأخيرة أن معدل زيادة سكان صنعاء خلال 8 اشـهر فقط يساوي عدد سكان مدينـة صنعـاء القديمـة التراكمـي والصافـي منذ نشـأتها وحتى 1962م، أما مساحة الأرض ولنفـس العـدد السـكاني فقـد تضاعفـت، مع اختلال كبير في التوازن البيئي بسـبب التوسع الأفقي والاسـتخدام المفرط للأرض وعدم ترك متنفسات للسـكن.

مـع التأكيـد علـى أن النظـام السـكني متعـدد الطوابق في كثير مـن المدن قد أصبح هو النظام السكني الغالب والمتبع لفئة كبيرة مـن النـاس وخاصـة في المـدن على المسـتوى الفردي والعام فهو أكثر اقتصاداً وتوفيرا للمال والأرض واحترامـا للبيئـة والإنسـان، وتكويـن علاقـات اجتماعيـة وجـوار جيدة وانفتـاح نحو الخـارج إضافـة إلـى انـه سـهل التغييـر وقليل الكلفة يمكن توفيره لأكبر فئة من السكان وبإعانـات محـدودة ويتمتـع بالأمـن، لأنـه يقـع ضمن مبنى سـكني، كل هذه يفتقدها النظام السكني ذو التوسع الأفقي.

الهوامش:

(1) منظمة المدن العربية- اسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة- تحت النشر

(2) رولاند لوكوك ، مدينة صنعاء القديمة، الحداثة والتراث تأثير التنمية في العمارة والتخطيط العمراني – اليمن مفترق طرق، جائزة الاغاخان للعمارة 1983م.

(3) د:عبد الرحمن الحداد ، صنعاء القديمة المضامين التاريخية والحضارية صــ88.

(4) الحداد - المصدر السابق .

(5) الحداد - مصدر سابق .

(6) اسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة –منظمة العواصم والمدن الإسلامية- صــ37

(7) المصدر السابق صــ 88 و136.

(8) منظمة العواصم والمدن الإسلامية- مرجع سابق صــ 88 .

* من الملاحظ أن اغلب المباني السكنية ومنها الفلل في المدن اليمنية تصمم معمارياً وإنشائيا لتحمل من 3~6 ادوار بهدف التوسع المستقبلي.

المراجــــع

1 - الحداد: د/عبد الرحمن يحيى . صنعاء القديمة – المضامين التاريخية والضارية مؤسسة العفيف الثقافية، 1992م.

2 - منظمة العواصم والمدن الإسلامية، التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة، تحت الطبع.

3 - رولاند لوكوك، مدينة صنعاء القديمة، الحداثة والتراث تأثير التنمية في العمارة والتخطيط العمراني – اليمن مفترق طرق ، جائزة الأغاخان للعمارة، 1983م.

4 - د/ يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة - الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت - سلسلة عالم المعرفة يوليو 2004م.

5 - العبسي : د/ عبده ثابت . السكن منخفض الكلفة في المدن اليمنية . مجلة العلوم الهندسية، كلية الهندسة – جامعة أسيوط – مصر ، المجلد 31 العدد 2 أبريل 2003م.

6- د/ ميلاد حنا ، الإسكان والمصيدة – المشكلة والحلول ، دار المستقبل العربي – القاهرة ، 1988م.

7 - العبسي : د/عبده ثابت ، الكثافة السكنية المناسبة ودورها في تخفيض تكلفة البناء – ندوة الإسكان الثانية – الرياض- المملكة العربية السعودية مارس 2004م.

خطة مدينة يريم

محاولة لرسم صورة بالكلمات لمدينة يريم عند قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر المجيدة عام 1962م

أ . محمد محمد علي الأشول

الموقع والميلاد :

تقع مدينة يريم على سفح جبل يصبح ويقال له يحصب وتحيط بها وبواديها مجموعة من التلال وكأنها قد نصبت لحماية يريم مستندة إلى جبل شريوب في الجنوب الشرقي وجبل المصنعة في الشمال الغربي ، ومن منطقة يريم (المدينة والوادي والتلال والجبال) تبدأ روافد وادي بنا حيث تنطلق بعض السيول باتجاه الجنوب إلى السدة وبعضها باتجاه الشرق إلى الرضمة ، وتتجه سوائل التلال الشمالية البعض نحو الشمال الشرقي لتنتهي في سد مأرب عبر شرق عنس و رداع والبعض الآخر نحو الشمال الغربي لتصب في وادي زبيد خلال مغرب عنس ومنطقة القفر السافل ، وتتصل المنطقة بقاع الحقل (حقل قتاب) بواسطة وادي ريام وباب الضورين في الجنوب ، وتتصل بقاع شرعة والديلمي من خلال نجد الأسلاف ووادي رعين الخارجية في الشمال بمسافة متقاربة. وترتبط بمدينة يريم قرى عراس ورعين وعبيدة وبني مسلم وبني منبه وبني سبأ . ويحيط بالمدينة عدد من الحصون والقلاع الأثرية القديمة . وعند يريم تتنصف مسافة الطريق بين صنعاء وتعز ، ومنها تتفرع طريق دمت الضالع عدن.

وترتفع المدينة عن مستوى سطح البحر حوالي ألفين وستمائة وخمسين متراً (أي ثمانية آلاف وثمانمائة قدم تقريباً) ولهذا أطلق على منطقة يريم سقف اليمن أو جبا اليمن . وحتى وقت قريب كانت تحيط بها مجموعة من العيون والينابيع والآبار الثرة دوماً .

هذا من ناحية الموقع الجغرافي ، أما

المكان الذي تخلقت مدينة يريم فيه ونمت عليه فهو عبارة عن مسطح صخري يمتد من قاعدة جبل يصبح (يحصب) بانحدار بسيط جهة الغرب حيث تغور أطرافه في تراب الوادي الخصيب الذي يسمى القاع ، ونحو الجنوب حيث ينتهي بجرف صخري شديد الانحدار وفي الطرف الجنوبي الشرقي للمسطح ترتفع صخرة صماء عملاقة بنيت عليها قلعة حصينة ما تزال أطلالها صامدة في وجه الزمن وشاهدة على أهمية دورها ، وهذا المسطح الصخري عبارة عن سطح بركاني يغلب عليه اللون القرمزي وتتخلله بقع حمراء فاقعة وداكنة وتتكون صخوره من حبيبات ملونة انصهرت معها شظايا صغيرة براقة مثل (الكوارتز) مما جعلها سهلة التفتيت والنحت قبل تصلبها بسبب تعرضها لأشعة الشمس مدة طويلة ، الأمر الذي ساعد الإنسان اليمني منذ القدم على نحتها بدقة متخذاً منها بيوتاً ومقابر ومخازن وصهاريج ، كما هي الحال في ظفار والنزهة والعشة وغيرها من المواقع الأثرية الحميرية .

ولعل خصائص الموقع الجغرافي وطبيعة المكان قد وفرت بذاتها - إلى جانب ظروف الإنسان - عوامل جذب لاتخاذ البقعة سكنياً يناسب كل من يبحث عن الرزق ويحتاج للأمان ويهفو إلى الاستقرار ويتطلع إلى شيء من الرخاء ، فصارت بلدة يريم ، وأصبحت ملجأ للخائفين ومركزاً للمتسوقين ومحطة للمسافرين . ويعتمد سكانها في حياتهم على مخرجات الزراعة والتجارة والأعمال الحرفية المرتبطة بهما ، فانطبعت حياتهم بمزيج من الخصائص القروية والحضرية ، وتكونت تبعاً لهذه الخصوصية علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية لتنعكس في طرائق معيشتهم ووسائل الإنتاج وأساليب التفكير ونتيجة لهذا كله تشكلت ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتكون تراثهم . وبالمقابل تعددت مصادر الدخل وتنوعت الممتلكات ومكونات الثروات ، وقد مارس القادرون على العمل كافة الأنشطة المرتبطة بالسوق والأرض على السواء ، فبينما تشتمل حيازات الملاك على رساميل التجارة وحقول الزراعة وقطعان الماشية ومنشئات البناء يقوم المعدمون بكل المهن السوقية والأنشطة الفلاحية والأعمال الحرفية في مختلف الأوقات والمواسم لتأمين مصاريفهم اليومية ومؤنتهم السنوية .

والظاهر أن بناء البلدة قد سار باتجاه معاكس لامتداد الطفح البركاني منطلقاً من قاعدة الصخرة العملاقة المنتصبة في جنوب السطح الصخري ليتجه نحو جبل يصبح خلال مراحل تنامي وتطور هذا التجمع البشري المتلاحقة بعد أن تكاملت عوامل النمو والتطور ودوافع الاستقرار والاستمرار . ويبدو أن المرحلة الأولى من العمران قد بنيت تحت الصخرة القلعة لقربها من مصادر المياه وبساطة تحصينها وسهولة حمايتها وقد شكلت مبانيها المترابطة قوساً بشكل حذوة الحصان يحيط بصخرة القلعة من الشرق والشمال والغرب . ويفصلها سور مستقل بأبوابه وتحصيناته عن بقية قطاعات المدينة التي بنيت في مراحل تالية وفترات لاحقة ، وعلى الرغم من أن هذه البلدة قد استعارت اسمها من أحد ملوك سبأ وذي ريدان (يريم أيمن) فإن المصادر الأثرية والمراجع التاريخية لم تورد لها ذكراً بهذا الاسم ، ولا يعرف لها أسم آخر قديم أو جديد مثل مدينة إب التي كانت تسمى الثجة ، ويبدو أن يريم قد أخذت طابعها كمدينة إسلامية من خصائص موقعها وطبيعة مكانتها و إمكانيات سكانها وموارد نشاطاتهم وعلاقات مجتمعاتهم وموروث ثقافاتهم بعد أن تكاملت بنيتها عبر العصور لتستقر في الوضع الذي نصفه هنا . وقد تشكل تكوينها من بنى مختلفة تتموضع حول السوق والجامع الكبير والميدان وتضم أسوارها كل عناصر العمران ومتطلبات الحياة عدا مصلى العيد والمقابر ومجارين تجفيف ودرس غلال الحقول المحصودة

في المواسم.

وحتى لا تنسى الأجيال الجديدة تاريخ الآباء والأجداد ومعاناتهم وجدنا من الواجب إلقاء نظرة على الماضي القريب (البغيض) من خلال رسم صورة بالكلمات لإحدى حواضر اليمن التي كانت تدعى مجازاً بالمدن وذلك عند قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر المجيدة التي دكت أسوار العزلة وأطواق التخلف وأزالت ركام الزيف ورموز البغي وقضت على الثالوث الرهيب الجهل والفقر والمرض ، ومن ثم انطلقت نحو المستقبل الواعد ثورة عمرانية وثقافية شملت كل أرجاء الوطن خاصة بعد الثاني والعشرين من مايو المجيد في ظل الزعامة الرائدة لقائدنا الحكيم الرئيس الوحدوي الرمز المشير / علي عبدالله صالح - حفظه الله ورعاه -.

مركز المدينة :

يحتل وسط غرب المدينة ويتموضع خلف باب اليمن الذي يفضي إلى الوادي الغربي ويحده من الشمال الحي الراقي ومن الجنوب الحي القديم ومن الشرق السائلة النازلة من باب صنعاء وتفصل بين حارتي الخان والمشناقة وبين السوق وحارة الرشدية وبين حارتي المناخ والسبحة ويعتبر أهم قطاعات المدينة وأحدث تكويناتها ومحور نشاطاتها ، ويتكون من أسواق الحطب والقضب والخضرة والمحدادة والمجزرة وأسواق القات والمعطارة والمبساطة والبز والخياطة و المحناطة (سوق الحبوب) ويتوزع في ثنايا هذه الأسواق المهنيون الذي يقدمون للرواد خدمات صيانة الآلات والأدوات المختلفة والأسلحة البيضاء والحلاقين وصناع الأحذية والأدوات الجلدية . وكان يوجد في فسحات الأسواق المذكورة وحولها أماكن للتجار الموسميين الذين يحضرون بضائعهم إلى السوق الأسبوعي يوم الأحد وفي مواسم قطف الفواكه وشهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى وغيرها من المناسبات . وعلى جانبي سوق المبساطة فتح تجار الخردوات والبقالة دكاكينهم وأفترش خلفيته الشمالية بائعو العيش (الملوج واللحوح والخمير والذمول .. إلخ) وأطلق على المكان سوق اللقمة .

وكانت هذه الأسواق تعج بحركة الرواد والباعة الجوالين والباحثين عن الرزق بدون مخطط مرسوم من الصباح إلى الظهر وتكون على أشدها أيام الآحاد وما قبل الأعياد غير أن الضعف يدب في حركة التسوق أيام المواسم الزراعية بسبب انشغال الفلاحين والعمال الزراعيين بالزراعة كونها المصدر الرئيسي للغذاء والثراء . وما إن ينتهي موسم الحصاد حتى تعود حركة التسوق أكثر مما كانت في الأيام العادية سواءً بالنسبة للتجارة والتجار أو الإدارة المحلية بموظفيها الرسميين ومن يدور في فلك السلطة من المستخدمين بدون أجور رسمية كالعسكر البراني والعنقريات الذين كانوا يتقاضون أجورهم من المواطنين حسب المسافة والمهمة . كما كانت حركة السوق تتأثر أيضاً خلال الأعياد وشهر رمضان سلباً وإيجاباً وفق معطيات النشاط الزراعي وأحوال الناس وظروف التجارة الدولية ومتغيرات السياسة ، وإن كان تأثير العاملين الأخيرين بسيطاً نظراً لكبر حجم المقايضة وارتفاع نسبتها في مصفوفة عناصر التبادل السلعي وأنشطته ومكوناته إلى جانب ندرة النقود وشحة الموارد والاعتماد الكبير على الاقتصاد الذاتي والبدائي البسيط، وتدني مستوى معيشة الناس ومحدودية احتياجاتهم وبساطة متطلباتهم الضرورية ورفضهم لكماليات الرفاهية ومظاهر الترف. ولم يكن طموح غالبية السكان في حياتهم إبان العهد الإمامي المباد يتجاوز حد إشباع البطون كل يوم بيومه وستر العورات والخلود إلى النوم بأمان .

ويشتمل المركز على أهم المنشئات العامة في المدينة ،إن لم تكن جميعها ،وهي الجامع الكبير والميدان ودار الحكومة (المقر

الرئيسي للعامل والحاكم وإدارة المالية) وبيت السلك (مركز المواصلات - البريد والبرق) ومبنى البلدية والشونة (المخزن المؤقت لحبوب الزكاة) والمكتب التعليمي والسجن والمفرزة والعرضي مقر السوارية (سلاح الفرسان) الذي كان يضم حوالي مأتي رأس من الخيول العربية الأصيلة .

كما أشتمل على مجموعة من السماسر كانت مخصصة لنزول المسافرين الفقراء ولمبيت الحيوانات من الجمال والحمير والخيول والأبقار والأغنام الواصلة إلى المدينة، وبجانب السماسر معاصر الزيوت ومخازن التجار ومقاهي أو خانات كان ينزل فيها المسافرون الميسورون وكانت تقدم لهم الوجبات الثلاث وتقدم خدماتها الغذائية للرواد من الموظفين والعساكر ونزلاء السماسر وعابري السبيل (مسافري الترانزيت) ، وبالنسبة لخدمات المتسوقين فقد توزعت في قطاعات المركز مجموعة من السقايات والأحواض لشرب البشر وحيواناتهم وألحقت بالمساجد الموجودة في نطاق المركز آبار يدوية لتزويدها بالمياه لمطاهير الغسلة والوضوء وحمامات عامة بدائية لقضاة الحاجة.

أما الخدمات الصحية الحديثة فقد كان يقدمها للمرضى موظف متخصص بالتمريض ولا تتجاوز المجارحة وضرب الإبر والإسعافات الأولية في مقره الرسمي جوار الحكومة وفي منازلهم مقابل أجر زهيد ، وكان يساهم في حملات التطعيم لمقاومة الأمراض المعدية والأوبئة الفتاكة مثل (الرمد والسعال الديكي والحصبة والجدري) وإلى جانب الممرض الحكومي وجد المشعوذون وممارسو الطبابة الشعبية والبيطرة التقليدية مجالاً واسعاً لممارسة نشاطاتهم في مداواة البشر ومعالجة الأنعام .

وجملة القول فقد كان مركز المدينة أشبه ما يكون بالمسرح المفتوح .. إذ كانت تجري على كافة أرجائه وجنباته مشاهد درامية مثيرة من فصول الصراع الاجتماعي الحاد الذي كان يتخذ طابعاً سلمياً غالباً ويأخذ منحى عنيفاً أحياناً .. وذلك بين سكان المدينة ورواد السوق الريفيين (القبائل) من جهة ، وبين طبقات المدنيين الثلاث الطبقة العليا (الكبارات) والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا (بني مغبير) من جهة ثانية ومن جهة ثالثة كان الصراع التقليدي بين ممثلي السلطة ورعايا الإمام من أهل المدينة والريف ، وكانت أبرز مظاهر الصراع وأوسعها تجري في الأسواق بين البائعين والمشترين وقد قيل «البيع والشراء حرب المؤمنين» وغالباً ما كانت الغلبة في أي صراع للجانب الأقوى وأصحاب النفوذ .

الحي القديم :

ويحتل جنوب وجنوب غرب المدينة .. ويتشكل من حارات المناخ والنويدرة والقرية والمصبانة . وتعتبر حارة المناخ نواة تكوين المدينة ، ويعتقد أن التسمية جاءت من مجاورة الحارة للميدان الذي كانت القوافل تحط رحالها فيه وهو الميدان المحاذي لها من جهة الشمال ويفصلها عن المركز . وتتموضع الحارة حول القلعة (الصخرة) بشكل قوس عريض ويحيطها سور مكون في معظمه من المنازل المرصوصة ظاهر القوس ، ولها ثلاثة أبواب الأول رئيسي ما تزال أخشابه واقفة ويسمى باب المناخ والثاني والثالث ثانويان أحدهما شرقي وهو باب الدرب والآخر غربي يسمى باب الصفير ، وكان معظم قاطني المناخ من التجار والمزارعين أي من الطبقة العليا (الكبارات) والطبقة الوسطى . وتطل منازل الحارة على ثلاثة شوارع داخلية تنطلق من الباب الرئيسي أو تجتمع عنده .. فالأيمن ينتهي بالباب الغربي (الصفير) والأوسط يصعد إلى القلعة والأيسر ينتهي بباب الدرب الشرقي .. وتضم بعض بيوت المناخ القديمة في أسافلها صهاريج منحوتة في الصخر لاستعمالها مدافن لتخزين الحبوب.

وقد نشأت إلى جوار المناخ حارة النويدرة يفصلهما شارع بعرض ثلاثة أمتار تقريباً يبدأ من الميدان وينتهي عند الباب الصغير ، وتقع النويدرة جنوب غرب المدينة وجنوب المركز وغرب المناخ ، وكان يسكنها معظم العمال المعدمين وبعض المزارعين والحرفيين .. وقد بنيت بيوتها من الطوب النيء (اللبن) ولم تكن تتجاوز الطابق الواحد إلا ما ندر وخلف القلعة خارج نطاق حارة المناخ نشأ تجمع سكني مستقل يضمه سور له بوابة واحدة يسمى المصبانة وغير بعيد عنه نشأ تجمع آخر تابع له يسمى العقبة ويقع تحت القلعة تماماً وكان يسكن هذين التجمعين مزارعو الخضرة (الأخضور) ويطلان على المنحدر الشرقي لوادي يريم الخصيب ويصب فيه فائض مياه الغيول والعيون التي كانت سراحة طوال العام وقد خصصت حقول هذا الشعب لزراعة الخضرة (الكراث ، البصل ، الفجل .. الخ) .

الجدير بالذكر أن كياناً اجتماعياً مستقلاً قد نشأ منعزلاً ليضم جالية اليهود فقط في زمن غير معروف لنا وذلك جنوب حارة النويدرة وغرب المصبانة . وقد جاء تصميم بيوت القرية مشابهاً لما عرف عن بيوت اليهود في تجمعاتهم السكنية التي كانت منتشرة في اليمن وخاصة بيوت القاع الخاص باليهود في صنعاء ويقدر عدد البيوت حوالي عشرين بيتاً يشكل بنيانها الخارجي سوراً يحيط بالقرية من جميع الجهات تخترقه فتحتان أو ثغرتان واحدة في الشمال والأخرى في الغرب يجمعهما ممران على شكل حرف إل الإنجليزي مقلوب وكان يوجد وسط التجمع كنيس صغير صار بيتاً بعد أن آلت ملكية الحي أو الكانتون إلى المواطنين الذين اشتروا بيوته من اليهود المهاجرين إلى فلسطين إثر نكبة 48م .

الحي الراقي :

ويحتل الجهة الشمالية والشمالية الشرقية من المدينة ، ويشتمل على ثلاث حارات هي الخان والمشناقة والرشدية ، ويبدو أن إنشاء هذا الحي يعود إلى الأتراك إبان وجودهم في اليمن خاصة خلال الحكم الثاني . ويؤيد هذه الملاحظة جملة من المؤشرات أهمها التسميات الغريبة التي أطلقت على الحارات فأسم الأول (الخان .. نسبة إلى مبنى خان تركي قديم لم يتبق منه إلا جانب بوابته الرئيسية وتكونت الحارة حوله ، ويظهر أن الحارة الثانية (المشناقة) قد أخذت اسمها من المكان الذي كان الأتراك ينفذون فيه أحكام العقوبات بما فيها عقوبة الشنق ، أما الحارة الثالثة (الرشدية) فيحتمل أنها استعارت اسمها من المدرسة التركية التي بنيت بين الحارات الثلاث وتحولت فيما بعد إلى منزل يملكه آل شريان .. وكان الأتراك يطلقون على المنشآت المختلفة أسماء تتناسب وطبيعة مهامها ومنها المدارس التي كانوا يسمونها رشدية باعتبارها مكان الإرشاد . إلى جانب هذا يوجد في الحي بستان قائم مقام وحمامان بخاريان ومسجد عثماني الطراز يدعى قبة الحسني يعود بناؤه إلى الوالي العثماني «محمد باشا « الذي وصفه المؤرخ العرشي بأنه ألين من وطأ أرض اليمن من العثمانيين وذلك ليضم رفات العالم الصوفي حسن بابا الذي كان محل رعاية وتقديس الوالي الطيب الذكر الذي فجع بابنه ودفنه بجانب الصوفي ، وقد أتى تاريخ البناء في آخر أبيات اللوحة التذكارية «شرفت بأمجد «1030هـ .

ومن جانب آخر فقد سكن هذا الحي موظفو الدولة والمقربون منهم ومعظم من يمت إلى العمل الرسمي بصلة ، وأرباب المهن والخدمات المرتبطة باحتياجات ذوي النفوذ وأصحاب السلطة وكذا المسافرون وأصحاب المقاهي ومشغلو الحمامات البخارية والجزارون وبعض الباعة وقليل من المزارعين.

وتقع حارة الخان في الركن الشمالي الغربي للمدينة وشمال المركز بالضبط

وينطلق من جنوب الحارة شارع مستقيم بعرض ثلاثة أمتار تقريباً ويوازيه من الغرب شارع بنفس العرض يربط بينهما زقاق بعرض متر ونصف ، ويتعامد الشارع الأول على وسط شارع ثالث بعرض مماثل يتجه من الشرق إلى الغرب لينتهي عند قبة الحسني وتتفرع عنه مجموعة من الطرقات والأزقة المتعرجة وسط الكتلة الشمالية للحارة .

أما حارة المشناقة فتقع شمال شرق المدينة وشرق الخان وتمتد من الشمال إلى الجنوب تحت سفح جبل يصبح مباشرة ، وتتصل بها حارة الرشدية ممتدة بنفس الاتجاه ثم تنحرف نحو الشرق لتلامس حارة السبحة في حي الرعية . والملاحظ أن طرقات وأزقة حارتي المشناقة والرشدية تتداخل وتتقاطع بشكل عشوائي وكأنها صورة لأحدى المتاهات ترسم لاختبار قوة الملاحظة مما يدل على أن الحارتين قد نشأتا بدون تخطيط مسبق . ويتصل هذا الحي بالمحيط الخارجي بواسطة باب صنعاء في الشمال وباب الفرضة في الغرب .

حي الرعية :

ويتموضع في الجهة الشرقية للمدينة ، ويقع في السفح الجنوبي لجبل يحصب ويطل على الوادي الأسفل أخصب أودية يريم ومصب سوائلها ، ويلتقي بالحي الراقي بواسطة حارة الرشدية ، وتفصله عن الحي القديم السائلة النازلة من باب صنعاء وغربي الجبل . يضمه من جهة الشرق سور صخري يمتد من عرض الجبل جهة الشمال إلى باب السباح أو باب خبان جنوباً ثم يتجه غرباً حتى باب الدرب في حارة المناخ ، ويتكون هذا الحي من كتلة مترابطة من المساكن الشعبية المبنية من الطوب النيئ (اللبن) ومن الأحجار السوداء البازلتية الصلدة ، ويقع في أسفل الحارة بيت الشيخ «عبد الله محمد نجيم » الذي يعتبر من أجمل بيوت المدينة بطوابقه الخمسة المتوجة بمفرجين آية في الجمال والروعة ، وتوجد عند أقدام الحي مساحة مسطحة خالية من البناء إلا مسجد عبد العزيز الهندي والقبة والحوض الملحقان به ، ويشتمل هذا الحي على حارة واحدة فقط هي حارة السبحة ، ولا أدري أن كانت التسمية منسوبة إلى اسم الباب أو العكس .. أي أن تسمية الباب منسوبة إلى اسم الحارة فهل السبحة من السباح أم السباح من السبحة ؟

وتعتبر حارة السبحة أكبر حارات يريم عدداً وأصغرها مساحة ، ومعظم القاطنين فيها من المزارعين ولا يكاد يذكر عدد السكان من غير الفلاحين ، ولهذا السبب أطلقنا عليها عنوان حي الرعية ، وحياة سكانها ومعيشتهم مرتبطة بالأرض والزراعة والرعي والأنشطة الاقتصادية المتعلقة بها . وجملة القول فإن حارة السبحة قرية حقيقية وسكانها ريفيون حقيقيون بكل ما تعنيه الكلمات والدلالات . ويقال إن أكثر أهل هذا الحي كانوا يعيشون في قرية شنامة الواقعة على بعد اثنين كيلو متر عن يريم والواقعة شمال شرق جبل يحصب وما تزال آثار بيوتها ماثلة للعيان ، وكما يحكى فإن كارثة نزلت بالسكان وحلت بالقرية مما اضطرهم لإخلائها والنزوح إلى يريم ، وربما يكون سبب الهجرة الجماعية يرجع إلى فترات الفوضى السياسية والاضطرابات التي رافقتها إبان ضعف الإدارة التركية وشدة المقاومة الشعبية وغياب السلطة المحلية بأي شكل وبأي نوع وبأي قدر خاصة إذا علمنا أن شنامة تقع على الطريق إلى خبان في منطقة معزولة عن يريم وخاو المجاورة وبقية قرى عزلة رعين المحصنة مما جعلها عرضة لتعسف العسكر السلطانية وبطش العصابات الإرهابية التي كانت تعوث في الأرض فساداً في غياب قوة الإدارة وسلطان الشريعة ومكارم الأخلاق . وكان سكان السبحة يقضون كل أوقاتهم في أعمال الفلاحة والرعي سواءً كانوا مُلاّكاً أو أجراء ، ولا يدخلون الأسواق إلا نادراً وللضرورة فيقابلهم السوقة مثلما يقابلون الريفيين بالازدراء

والاحتقار والسخط لعداوة متأصلة في النفوس . وكانوا يشكلون عن المدينة وأهلها قوة ردع لمن تسول له نفسه المساس بحرمة المدينة وشرف أهلها وكرامتهم .

بيوت الله :

كان من المفترض الإشارة إلى مساجد يريم في ثنايا الحديث عن الأحياء والحارات غير أني آثرت أن أفرد لبيوت الله فقرة خاصة لوصفها بشيء من التفاصيل لما لها من أهمية في حياة الناس كمساجد عبادة ومنارات علم ومناهل معرفة ومباعث نور ومجامع خير وينابيع طهارة وملاجئ رحمة ودور سكنية وبيوت أمن.

لعل أقدم المساجد في يريم هو الجامع الكبير الذي يتصدر الحي القديم ويفصله عن الميدان وعن مركز المدينة يحتل مساحة واسعة من حارة المناخ تقارب ألف وخمسمائة متر مربع شاملة المرافق والطرق الخاصة به ويقوم بناء المسجد بارتفاع خمسة أمتار تقريباً من الجدران السميكة المبنية من الحجر الأحمر والحبش المجلوب من ظفار عاصمة الدولة الحميرية بطول واحد وثلاثين متراً وعرض ثمانية وعشرين متراً ، وتحمل سقفه المعمول من الخشب الطنب الصلب والقضاض تسع وتسعون سارية صخرية مخروطية تكللها جميعها تيجان أعمدة من الأحجار المنقوشة بمختلف الأشكال الجمالية وأحجار الدعائم وتيجانها مجلوبة من ظفار أيضاً . وللمسجد سبعة أبواب واسعة عرض الواحد حوالي متر ونصف وارتفاعه حوالي مترين ،اثنين في الجهة الشرقية وثلاثة في الجهة الجنوبية واثنان في الجهة الغربية والباب الثامن صغير لا يصل عرضه إلى المتر ولا يزيد ارتفاعه عن المترين إلا ربع وكان مخصصاً لدخول وخروج الشخصيات الهامة جداً لأنه فتح في الجهة الشمالية بجانب المحراب الذي يتوسط الجدار القبلي للمسجد يبرز إلى خارج البناء حوالي متر وله عقود مزدوجة وبجانبه ينتصب محراب خشبي بارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً . ويفصل المسجد عن المطاهير والحمامات صرح حجري مكشوف كبير وآخر صغير بينهما ممر مسقوف تربطها بالمسجد الثلاثة الأبواب الجنوبية .

من خلال النظر إلى سقف المسجد يبدو أنه قد بني على ثلاث مراحل تفصلها فترات زمنية متقاربة ، ويتضح ذلك من ألوان أخشاب السقف إذ أنها في وسط الجانب الشرقي سوداء كالفحم عليها عوالق داكنة وتحيطها جهة الجنوب وجزء من جهتي الشمال والغرب أخشاب اكتست بلون بني غامق وتكسو سقف الجهتين الشمالية والغربية أخشاب بلون بني لامع نظيف لا تشوبه شائبة على الرغم من مرور أكثر من خمسين سنة على هذه التوسعة التي تمت على نفقة فاعل الخير تحت إشراف عامل وقف يريم آنذاك السيد أحمد يحيى الخباني -رحمه الله - وفي وسط الجهة الشرقية من المسجد بجانب الجزء القديم انتصبت مئذنة سامقة الارتفاع بنيت بالياجور (الطوب المشوي) على قاعدة من الحجر الحبش ، وكانت مكسوة بالنقوش ومبروزة بالزخارف من أسفلها إلى قمتها التي كانت تغطيها قبة بيضاء عليها هلال من النحاس الأصفر ، وكان للمئذنة دوار فوق القاعدة ودوار عند منتصفها وثالث تحت القبة وتملأ تجويف المئذنة درجات حلزونية بارتفاع يصل إلى خمسة وعشرين متراً غير أن هذه المئذنة قد تأثرت كثيراً بزلزال ديسمبر 1982م وكانت على وشك الانهيار لولا أن سلطات الأوقاف تلافت ذلك وعملت على نقض البناء كاملاً وإعادة بناء المنارة من الأساس بنفس التصميم السابق ولكن أكثر متانة وأجمل شكلاً تحت إشراف مهندسي الوزارة وبمتابعة عامل أوقاف يريم السيد «يحيى علي القشار «رحمه الله/

وغير بعيد عن الجامع الكبير يقبع مسجد العمال في ظل بيت الشيخ عبد الكافي محمد الحبابي -رحمه الله - وبيت القاضي محمد

علي يحيى الغرباني –رحمه الله – ولا تصل إليه الشمس إلا نادراً مما جعله مضرب المثل بالبرودة شتاءً وصيفاً بل على مدار السنة وصار يعرف اليوم بمسجد الحبابي ولا نعلم للتسميتين تعليلاً ؛ وإلى جانب الجامع الكبير ومسجد الحبابي يوجد ضمن الحي القديم مسجد الميفعة والعقبة مع أنهما خارج أسوار حارة المناخ ويبدو أنهما كانا مخصصين للنساء ويتميزان ببعدهما عن الأنظار ويتزودان بالمياه المتدفقة من العيون التي بجانبهما .. وغير بعيد من قرية اليهود كان يوجد نبع غزير بجانبه مصلى مكشوف للنساء أيضاً . وقد نسب المسجدان الصغيران إلى المكانين اللذين بنيا عليهما الميفعة والعقبة .

أما في مركز المدينة فقد أقيم مسجد الرحبي في جنوبه الشرقي ومسجد نجيم في جنوبه الغربي ويعود بناء الأول إلى « محمد محسن حسين الرحبي » رحمه الله وبناء الثاني إلى الحاج « قاسم عوض نجيم » رحمه الله وكان المسجدان متقاربين في المساحة ومتماثلين في القدرة الاستيعابية ومتشابهين في المرافق والملحقات ولا يفرق بينهما إلا المئذنة التي ارتفعت بجانب مسجد نجيم لتزيده جمالاً وكمالاً وظلت تحرسه وتحرس السوق المتشعب تحت قامتها السامقة ، وقد تأثرت منارة مسجد نجيم بزلزال ديسمبر 1982م وما لبثت أن وقعت من طولها منهارة على المسجد والسوق القريب منها محدثة أضراراً كبيرة بما هوت عليه من ارتفاع عشرين متراً تقريباً . وقد أعيد بناء المسجد فيما بعد بدون المنارة . وكذلك الحال فقد تأثر مسجد الرحبي بعوامل الزمن ، وكان على وشك الانهيار فتم هدمه وإعادة بنائه بمساحة أوسع وبأسلوب أحدث وتصميم أقوى ، وللمسجدين أوقاف كثيرة تكفي غلالها لإقامتهما وعمارتهما طوال العام ، وبنى الحاج « لطف عبد الرحمن الرزامي » رحمه الله مسجداً مماثلاً خارج باب اليمن غربي مسجد نجيم وبنى الحاج محمد الرداعي مسجداً مماثلاً جنوب غرب النويدرة ؛ وبالنسبة للحي الراقي فقد تربعت قبة الحسني في الجهة الغربية لحارة الخان وقد سبق الكلام عنها ، وفي جنوب غرب الخان بني مسجد البستان جوار دار الحكومة وعلى مشارف بستان قائم مقام الملحق بالدار ويسميه البعض مسجد الحبس نسبة إلى مبنى السجن القريب منه وتقدر مساحته بحوالي مائتي متر مربع .

وعلى بعد مائتين وخمسين متراً تقريباً غرب مسجد البستان بنى الحاج « محمد مكحل » رحمه الله مسجداً صغيراً قرب المقبرة السفلى وجرن عارف وكان يطلق عليه محسنة مكحل وكانت طريق صنعاء القديمة تمر أمامه ووضعت بجانبه نقطة تفتيش السيارات أو ما كان يسمى بالخشبة نسبة إلى قطعة الخشب التي كانت تمتد بعرض الطريق فوق حاملين صغيرين لتوقيف السيارات إن كان ثمة سيارات . ومؤخراً بنى الحاج « عبد الوهاب الزبيري » رحمه الله مسجداً متوسط المساحة شمال غرب حارة الخان قريباً من باب صنعاء والمقبرة العليا ، كما بنى الشيخ « عبد الله محمد نجيم » رحمه الله مسجداً مماثلاً في منطقة باب ذوق الواقعة شمال غرب المدينة وشمال وادي قاع يريم وجنوب وادي طمحان ومرت بجانبه طريق تعز صنعاء التي بدأ تنفيذها قبل قيام الثورة المباركة وغير بعيد عنه نصبت الخشبة كنقطة لتفتيش السيارات.

وفيما يخص حي الرعية فقد تربع جنوب غرب حارة السبحة مسجد عبد العزيز بمرافقه وملحقاته على مساحة تقدر بحوالي مائتين وخمسين متراً ، وينسب بناؤه إلى عبد العزيز الهندي رحمه الله.

ومما سبق يلاحظ بأن المساجد في مدينة يريم قبل الثورة كانت على أربعة مستويات من حيث المساحة أولها الجامع الكبير بمساحته الواسعة وتصنف مساجد الرحبي ونجيم والزبيري وعبد العزيز في المستوى الثاني ومساجد الحبابي

والبستان وقبة الحسني والرزامي والرداعي في المستوى الثالث ومسجد الميفعة والعقبة ومحسنة مكحل في المستوى الرابع ،وكانت صلاة الجمعة لا تقام إلا بالجامع الكبير وتقام صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء في المصلى الواقع على جبوبة المصلى شمال المدينة وفي السفح الغربي لجبل يصبح . كما يلاحظ أن بناة المساجد كانوا يحرصون على تأمين مصاريفها من غلال الأوقاف التي يخصصونها لمساجدهم ، كما كانوا يعملون على تأمين مصادر المياه الكافية للوضوء والاغتسال ويلحقون بالمساجد قباباً لشرب الناس وأحواض لسقي الأنعام ، وذلك بحفر الآبار بجانب كل مسجد عدا الميفعة والعقبة ، وترتيب نفقة نزع المياه منها بالمسنى وأجور المنظفين للأحواض والقباب والمطاهير والآبار .

معالم وأعلام :

ولاستكمال اللوحة واستجلاء الصورة وجدنا من المفيد أن نزيد هذه الخطة بلقطات سريعة لأهم المعالم المكانية وترجمات مختصرة لأبرز الأعلام البشرية باعتبار أنها مجموعة من الرموز ارتبطت مسمياتها باسم يريم واقترنت صفاتها بصفة المدينة وقد زودني الأخ الباحث التاريخي المغمور نجيب عبد الكافي الرزامي بمعلومات قيمة ومفيدة عن معظم هذه الرموز وخاصة المساجد والأشخاص فله الشكر والثناء .

أ . المعالم :

يوجد في يريم كغيرها من مناطق اليمن عدد كبير من المعالم العمرانية والثقافية التي تمثل شواهد حية على التقدم الحضاري الذي عاشته البلاد من قبل الألف الأول السابق لميلاد المسيح عليه السلام ويمثل علامات بارزة في مسيرة المجتمع اليمني عبر التاريخ ، وأهم المعالم تتمثل في السدود والصهاريج والحصون والقلاع والمعابد والقصور والمحافد وأماكن أخرى مرتبطة بحياة الناس ، وفي يريم وما جاورها الكثير من المعالم أشرنا إلى بعضها في ثنايا الفقرات أعلاه وسنورد هنا نماذج معالم المعالم مرتبة حسب حروف ألف باء .

1 . الطحسيسة :

وما أدراك مالطحسيسة ؟ إنها منحدر زلق يميل نحو خمس عشرة إلى عشرين درجة مما يسهل الانزلاق بسرعة معتدلة لا تشكل خطراً ولا تسبب أذى لمن يتزحلق أو يتزلج عليها وهي لعبة مسلية للأطفال الكبار ومثيرة لدى الأطفال الصغار باعثة للذكريات عند الكبار وتتكون على المنحدرات الصخرية أو الترابية وتمتد مسافة عشرة أمتار في المتوسط وقد تصل إلى عشرين متراً وتتجاوزها . وكان الأطفال يمارسون اللعب على الطحسيسة في أوقات فراغهم بشكل فردي كما هو الحال في الحدائق العامة وكانت اللعبة تمارس بشكل جماعي آخر يوم من شهر شعبان كنوع من اللهو المعبر عن حفاوة الاستقبال لشهر رمضان الكريم ، وكان لهذه اللعبة أدواتها الخاصة وهي واجهة جمجمة ثور أو بقرة ووسادة من القش أو الخرق والملابس الرثة التي لا يؤسف عليها إذا تمزقت وكان الطفل يفرش الوسادة على باطن الجمجمة ويمتطيها فتنزلق به إلى الأسفل حيث يحمل أداة لعبه ويرتقي المنحدر لينزلق عليه .. وهكذا حتى يدركه التعب فيستريح قليلاً يتناول خلال الراحة قرصاً من الكعك الذي أحضره من البيت ويلحقه بشربة ماء من أحد الأوعية التي تحضرها فاعلات الخير لكسب الأجر والثواب عند الله ثم يعاود اللعب حتى تنحدر الشمس في المغيب وكان كل طفل يردد في صعوده وهبوطه بصوت عالي « شواعتي بايدي يا رمضان .. ماعد على أمي شيء يا رمضان

« ويقصد بذلك أن أمه قد أعطته الكعك واستلمه بيده وفي نفس الوقت لم يعد عليها شيء من الصيام المفروض أن تقضيه قبل حلول الشهر الكريم . وكان يطلق على اليوم الأخير من شعبان اسم (يوم الشوّاعة) الذي تستغله الأمهات لإظهار اهتمامهن بأبنائهن وبناتهن وخاصة الذين يعيشون خارج الأسرة أو بعيداً عنها وبالذات البنات المتزوجات . وكانت كل أم تحرص على هذه المناسبة لتبرهن بالفعل على حبها لأولادها من خلال الكعك الذي كان بعيد المنال لدى كثير من الناس آنذاك وما زالت معظم الأسر في منطقة يريم ترسل لأبنائها وبناتها القاطنين بعيداً عنها كميات كبيرة من الكعك اللذيذ في آخر شعبان من كل سنة إلى أماكن سكنهم في المدن والأرياف وتحرص على استمرار ذلك حتى لا يقال نسيهم أهلهم .

2. الفسقية :

وتقع تحت نوبة حراسة باب المناخ على بعد عشرة أمتار عن جهة الركن الشمالي الشرقي للجامع الكبير . وهي عبارة عن صهريج مبني من الحجر بعمق أربعة أمتار تحت أرضية شارع المناخ له درجات حجرية تفضي إلى ردهة مربعة تتجمع فيها المياه القادمة عبر سرداب مظلم بعرض متر وارتفاع مترين ينبثق منه أو إليه نفق حجري بارتفاع متر وعرض نصف متر ويتجه جهة الشمال الغربي للمدينة ولا يعرف نهايته أو بدايته ، ولم يغامر أحد ليستكشفه أو يتتبع امتداده ويعتقد بأنه بني لنقل المياه من منطقة العشة على بعد اثنين كيلو متر تقريباً إلى الصهريج ، ويروي الأهالي أن بعض الفضوليين نثر كمية من التبن على المياه النازلة في العشة فظهرت فيما بعد في المعيان وهذا هو الاسم الآخر للفسقية ويحكى أنه من مخلفات الحميريين غير أنه لا يوجد ما يشير إلى ذلك ، وقد يكون من منجزات عصور لاحقة . وللإحاطة فإن المياه لا تنقطع عن الفسقية أو المعيان إلا في السنوات العجاف والفصول شديدة الجفاف وتستخدم مياه المعيان للنظافة والطهي وغيره . ولا تشرب إلا عند الضرورة لملوحتها وثقلها .

3. المرايم :

حصن قديم غربي مدينة يريم وهو عبارة عن ركام أثري متناثر على جوانب تلة عالية تسمى جبوبة المرايم ويمتد منها مرتفع صخري متجهاً شرقاً بارتفاع أقل بشكل الصهوة ويطلق عليه اسم حصن المريمة وعلى جانبيه أيضاً ركام أثري متناثر والذي يبدو من خلال الحفريات العشوائية التي يقوم بها حالياً بناة البيوت الجديدة أن هذا الموقع تعرض لدمار شامل بعد إشعال النار في مبانيه إبان الغزو الحبشي الأخير لليمن الذي أتى على قصور الحميريين وحصونهم وقلاعهم بالحريق والتخريب وتسويتها بالأرض . واعتقد أن لفظ المرايم عبارة عن اسم جمع مريمة التي قد تكون دلالتها تعود إلى يريم أو إلى السيدة مريم العذراء . ولم أقف على تفسير قديم أو جديد لهذا كذلك لم أصادف له نظيراً ولم اسمع به في غير يريم ويطل حصن المرايم على مدينة يريم والأفق العميق الامتداد نحو الشرق وعلى قاع الحقل أو حقل قتاب والجبال المطلة عليه من الجنوب والشرق وكان يعتبر أحد الحصون التي شكلت مراكز مراقبة ونقاط حماية للطرق المؤدية إلى مدينة ظفار حينما كانت عاصمة الدولة الحميرية .

4. المريمة :

اسم يطلق على عين جارية بمياه عذبة نقية تقع جنوب المدينة وتبعد عنها حوالي ثمانمائة متر ويسيل فائض مائها إلى حقول وادي المريمة الذي يرتبط بوادي ريام الخصيب

في منطقة الخزيع الغنية بالمياه الجوفية ، و المريمة إسم شديد الارتباط بيريم يلازمه كظله فلا يذكر إسم يريم إلا ويذكر معه إسم المريمة وضرب فيه المثل لقرب المسافة بقولهم «بكر من المريمة وامسى يريم يابي رحم والديه والمرحلة» . ويحكى أن رجلين ترافقا في سفر إلى يريم واستأجرا مركوباً مناصفة . فاشترط الذي يعرف يريم على رفيقه أن يسبقه في الركوب إلى المريمة ويركب الثاني من المريمة إلى يريم وأوهمه بطول المسافة المتبقية عندما نطق حرف الجر الأول (إلى المريمة) باقتضاب شديد ونطق حرف الجر الثاني (إلى)ماداً لفظه بمبالغة واضحة فقال «أنا أركب إلى المريمة ، وأنت تركب من المريمة إلى ... يريم » . وعندما وصلا إلى المريمة اكتشف المسافر الثاني خدعة رفيقه وندد بحيلته التي صارت فيما بعد من الحكايات الطريفة . ومن لم يكن يجد عملاً أو مصدر رزق من سكان يريم كان يقوم بجلب المياه من المريمة ويبيعه للشاريين الذين لا يجدون من يحضر لهم حاجتهم بدون مقابل وشاع بيع مياه المريمة حتى قيل « شربة من المريمة تسوى ميه «أي أن قدحاً من مياه المريمة تقدر قيمته بمائة ريال فرنسي (ماريا تريزا) وخاصة بالنسبة لمخزني القات .

ب . الأعلام :

أضفى على مدينة يريم مجموعة من الأعلام مزيداً من الأهمية والشهرة . وإذ أثبت بعض أهلها نجاحاً باهراً في أعمالهم جعل منهم أعلاماً شامخة يشار إليها بالبنان . وقد وجدنا من المفيد أن نشير إلى نماذج منهم ونذكر معهم الآخرين كلا ضمن فئة أو مجموعة أقرب إليه من حيث الانتماء أو التخصص فالمعلمون مع المعلم الأول والمشائخ مع الزعيم الكبير والتجار مع الشهبندر وهكذا . وفيما يلي تراجم مختصرة لهؤلاء الأعلام مرتبة حسب حروف ألف با .

1 - المعلم الأول :

هو السيد الزاهد العالم الجليل الفاضل « أحمد إسماعيل محمد إسماعيل الكبسي « المولود في يريم سنة ألف وثلاثمائة وسبع عشرة هجرية وتوفي فيها سنة ألف وثلاثمائة واثنين وستين هجرية عن عمر يناهز الخمسة والأربعين عاماً . وعلى الرغم من قصر مدة حياته فقد ترك ذكراً كثيراً وإرثاً واسعاً يتمثل في مجموعة العلماء الذين تخرجوا على يديه نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الوالد الشيخ «محمد علي عبدالله الأشول « الذي كان حتى وفاته عضو لجنة التأليف والنشر والقاضي «محمد علي يحيى الغرباني « الذي كان آخر منصب شغله قبل وفاته وكيلا لوزارة الاوقاف والقاضي «محمد احمد إسماعيل الكبسي « الذي توفي وهو يعمل رئيساً لمحكمة يريم وابنه الأكبر الأستاذ عبدالله احمد إسماعيل الكبسي الذي كان حجة في النحو والصرف مما أهله ليقعد على كرسي أستاذ اللغة العربية في هيئة معلمي الكلية الحربية بصنعاء سنوات طويلة حتى أحيل إلى التقاعد فتولى إمامة الصلاة بالجامع الكبير بيريم إلى أن انتقل إلى جوار ربه رحمة الله تغشى الجميع . والوالد الحاج « قاسم محمد عبدالله نجيم « أمد الله بحياته وغيرهم كثير . وقد حمل راية التعليم في يريم بعد المعلم الأول الأستاذ « أحمد المساجدي « الذي أدخل نظام التعليم الجديد إلى يريم ومعه الأساتذة .. محمد الصلاحي وحمود الوتيحي ويحيى علي حسين وعبد الله الهلالي رحمهم الله ومحمد محمد القشار ومحمد عبدالله الشاوش وعبد الله الخولاني أمد الله في أعمارهم والأستاذ يحيى علي إسماعيل الذي كف بصره وهو شاب يعمل في مهنة البناء فاتجه إلى طلب العلم

بجد واجتهاد فصار معلماً ومن ثم أصبح من أقطاب العلم وأنصار الثورة والحرية والوحدة ولم يمنعه من أنشطته المتدفقة في العطاء والبذل إلا المرض العضال الذي أقعده في البيت سنين حتى خطفه الموت راضياً عن نفسه ومسلماً لمشيئة مولاه فنسأل الله له ولزملائه المعلمين الرحمة والرضوان .

2 - الشيخ الزعيم :

هو الشيخ الحكيم الحازم الزعيم « احمد علي الحبابي « المولود في يريم سنة ألف وثلاثمائة وخمس هجرية وتوفي فيها سنة ألف وأربعمائة وواحد هجرية بعد عمر مديد كان حافلاً بالنشاط الهادف إلى تحرير الوطن من نير الاحتلال التركي وتعزيز استقلاله في ظل قيادة الإمام « يحيى حميد الدين « فقد كان رحمه الله مجاهداً بالنفس والنفيس ضد الوجود العثماني في اليمن وقد تعرض للمطاردة والاعتقال ، ولم يهدأ إلا بعد استلام الإمام يحيى السلطة في صنعاء ، ومن ثم عمل على توطيد أركان الدولة الفتية وخاصة في المنطقة الوسطى (قضاء يريم وقضاء النادرة) حيث تولى إدارة البلاد باعتباره عامل الإمام في يريم ثم في النادرة . وقد ساهم بفعالية في إفشال حركة ثمانية وأربعين الدستورية إذ قطع الطريق بين صنعاء وتعز وعدن فألقى القبض على مجموعة الأحرار الذين كانوا في طريقهم من إب وتعز وعدن إلى صنعاء ، وكان بعقله الراجح ورأيه الحازم وبطانته الذكية ومستشاريه العقلاء الزعيم الشعبي والأب الروحي والشيخ القوي والراعي الأمين لمواطنيه ورعيته في المدينة والريف فاستحق احترامهم وتقديرهم وتوقيرهم وخوفهم وقد كان يستعين في مهام وظيفته الرسمية بالوالد الشيخ / محمد علي عبدالله الأشول « والقاضي محمد عبدالله عبد المغني والقاضي عبدالله يحيى عبد المغني والقاضي إسماعيل الصديق رحمة الله تغشاهم وكان يستشير الشيخ عبد الله محمد نجيم والشيخ محسن الرحبي والشيخ محمد حزام الأشول والشيخ عائض حيدر والشيخ محسن ذمران والشيخ راجح العراسي وقايد الدعوس وأحمد إسماعيل الحبابي وغيرهم من مشايخ وعقال البلاد وحكمائها رحمهم الله جميعاً . ويرجع نسب الشيخ « احمد الحبابي « وأسرته آل الحبابي الكرام إلى وادي حباب بالسهمان خولان الطيال .

3 - المناضل الفاضل :

هو خيري على أحمد الجراح من مواليد صنعاء في حدود العقد الثاني من القرن العشرين بعد الميلاد ، وكان والده أحد ضباط الجيش العثماني الذين آثروا البقاء في اليمن ولم يعودوا إلى تركيا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وكان يأمل أن تستفيد دولة الإمام يحيى حميد الدين من خدماته وتستغل خبراته العسكرية في مجال الدفاع كأحد ضباط سلاح الطبشية (المدفعية) وباعتباره أحد أبناء اليمن الذين التحقوا في خدمة الدولة العثمانية ، إذ أنه ينتمي إلى آل الجراح من مدينة الباحة بمنطقة غامد في مخلاف عسير ، وقد تزوج في صنعاء واستقر بها .. غير أن الدولة الفتية بعد أن استقرت أمورها وثبتت سلطاتها على ما كان تحت سيطرة العثمانيين أسندت إليه مأمورية قبض وصرف العلف (التبن والقصب) الذي يورد مع حبوب الزكاة إلى بيت المال في يريم . وهذه الوظيفة التي لا تمت إلى خبرات الرجل ومؤهلاته بصلة جعلته يشعر بالندم على البقاء في اليمن وبالتالي لم يجد من القبول بالأمر الواقع بدأ ومن ثم أخذ يروح عن نفسه بالتنقل والترحال بين اليمن وبلدان شرق أفريقيا وجنوب آسيا فما كان يكاد يستريح من رحلة حتى يعد لرحلة أخرى تاركاً أولاده في مدينة يريم ،

وقد عرف عند الأهالي بسخطه الشديد على نظام المملكة المتوكلية اليمنية وانتقاده اللاذع لسياسة الإمام يحيى كرمز للتخلف والاستبداد جهاراً نهاراً دون خوف ولا وجل . وعمل على تعويض خسارته إن كان ثمة أمل بالتعويض ، ومن خلال تعليم ولديه خيري ومحمود .

ولا شك أن معاناة الوالد قد أثرت على أفراد الأسرة تأثيراً شديداً وتركت في أعماق دواخلهم جروحاً غائرة وفي نفوسهم مشاعر حائرة .. الأمر الذي ساهم كثيراً في أن يصبح خيري الجراح أبرز عناصر الأحرار في يريم حيث كان يعمل مديراً للمالية بعد عودته من الدراسة الثانوية في ارتيريا الخاضعة للاستعمار الايطالي وقد بعثه أبوه إلى أسمرا لهذا الهدف النبيل الذي ساهم كذلك في غرس قيم ومفاهيم الحرية والعدالة والتقدم لديه باعتبارها أسس بناء المجتمع الراقي والدولة الحديثة كهدف يسعى إلى تحقيقه الأحرار اليمنيون في سائر أرجاء الوطن ، وكانت تربطه بهم علاقات وثيقة وصداقات عميقة وخاصة القاضي محمد إسماعيل الربيع رحمه الله ومجموعة الأحرار في إب الذين كان يتواصل معهم عبر البريد الأدبي ، وكان الوالد خيري يجمع اشتراكات وتبرعات أحرار منطقة يريم النقدية ويحولها إلى جنيهات ذهبية ، ويرسلها إلى إب ثم إلى تعز صحبة شباب الأحرار المتحمسين .

وكان من أعلام الأحرار وحركة التحرر في يريم - إلى جانب الوالد خيري - الآباء الكرام الشيخ أحمد نجيم والحاج مثنى نجيم والحاج « عبد الرحمن قاسم نخرة » والحاج عبد الرحمن لطف الرزامي والحاج صالح ناجي الغزالي والقاضي علي محمد عبد المغني .. فقد كانوا كلهم يضربون المثل الأعلى في تمسكهم بمفاهيم التحرر والحرية من خلال تعاملهم النزيه وعلاقاتهم الصادقة مع الجميع بلا تمييز ، ومن خلال زهدهم وإخلاصهم وصراحتهم وشجاعتهم ، ولم يكونوا يخافون في قول الحق وانتقاد الباطل لومة لائم ولا يخشون قولة عاذل وظلوا أوفياء لدينهم ومبادئهم ولوطنهم ومواطنيهم رحمة الله تغشاهم جميعاً وليت أبناءهم كانوا مثلهم .

الجدير بالذكر أن المناضل الفاضل خيري علي الجراح قد تميز عن أقرانه بلين الطباع وكرم العطاء والإيثار ودماثة الخلق وديمومة الوفاء وقناعة النفس وصفاء الذهن وحدة الذكاء وسلامة الفكر وجمال الخط وسعة الثقافة وإجادة اللغتين التركية والإيطالية وإتقان علوم اللغة العربية وآدابها ، وأتيحت له فرص السفر إلى إثيوبيا للدراسة وإلى السعودية للحج وإلى مصر وإيطاليا والعراق والكويت والأردن للعلاج ، وقد توفي عام 1981م في عمّان ودفن هنالك حسب وصيته رحمة الله تغشاه.

4 - شهبندر التجار :

هو الحاج التاجر الأمين المتصدق الكريم « عبد الوهاب بن حسن بن حسين الزبيري » المولود في يريم سنة ألف وثلاثمائة وأربع عشرة هجرية والمتوفى فيها سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية وقد مارس التجارة في سوق يريم منذ نعومة أظفاره مستقلاً عن والده الذي نزح من صنعاء مقتفياً أثر الحاج « احمد محب الزبيري » واستقر قراره في يريم ليمارس العمل في تجارة المعطارة ، وقد حالف الحظ التاجر الصغير الذي نترجم له هنا ، فابتسمت له الأيام ، وأقبلت إليه الليالي .. فراجت تجارته وكثرت بضاعته ، ونمت رساميله ، وزادت موارده ، وتنوعت نشاطاته ، وتسارعت خطواته ، وكثرت معاملاته .. فاتسعت ممتلكاته وتضخمت ثرواته وكبرت

عملياته وفاق أقرانه وفاز على منافسيه .. فصار أشهر تجار يريم وأثراهم . واحتل مركزاً تجارياً مرموقاً على مستوى القطر اليماني يضاهي مراكز أكبر التجار آنذاك مثل غمضان وعسلان والسنيدار والوتاري والوجيه وغيرهم . وعاصره ونافسه من تجار يريم والده وأخوه عبدالله والحاج حسين الثور والحاج صالح الوتاري والحاج محمد مكحل رحمهم الله والحاج قاسم محمد نجيم والحاج عبدالله الثور أحسن الله ختامهما وغيرهم كثير لكنه تميز عنهم جمعياً بالعمل في مجال توكيلات المغتربين ووكالات توزيع منتجات الشركات الأجنبية والمعاملات شبه المصرفية والاستيراد والتصدير .

5 - الشاعر الفقيه :

هو القاضي العلامة الأديب «محمد عبد الله حسين السكري « المولود في يريم سنة ألف وثلاثمائة واثنين وعشرين هجرية وترجع أصوله إلى آل السكري الأسرة المشهورة في صنعاء وقد تلقى تعليمه على أيدي المشائخ الأجلاء في يريم وفي المدرسة الشمسية بذمار والسيد محمد حوريه . وبذكائه وفطنته لفت الأنظار إليه وأسندت إليه مناصب قضائية عديدة ومما زاد في شهرته موهبته الشعرية الأصلية التي صقلها بدراساته ومطالعاته الأدبية واللغوية لكبار المبدعين وفحول الشعراء حتى صار فقيه الشعراء وشاعر الفقهاء وجاء شعره عذباً جزلاً وصفه الإمام « أحمد « بعبارة جامعة مانعة حينما قال « سكر الشعر شعر السكري « وقد كرس أشعاره للموضوعات التقليدية (المديح ، النسيب ، الرثاء ، الهجاء ، والأخوانيات) ومعظم قصائده مجموعة ومحفوظة لدى أبنه البكر القاضي « أحمد بن محمد السكري « الذي يعدها للنشر ويعيقه التمويل .

وقد عرف عنه حرصه الشديد على التحدث بالعربية الفصحى ملتزماً بقواعد النحو والصرف بغض النظر عمن يكون المخاطب أو شخصيته أو مستواه أو موضوع الحوار . ولم يكن يبالي باستنكار العامة لأسلوبه وتندرهم عليه . وموقفه الملتزم إن دل على شي- فإنما يدل على انغماسه في عشق اللغة العربية وشدة غرامه بآدابها فملكت عليه عقله واستولت على تفكيره وتحكمت بلسانه وسرت في عروقه وجرت في منطوقه .. حتى صارت البلاغة سليقته وصار الشعر حقيقته وباعتقادي لو تهيأت له الظروف المناسبة وأتيحت أمامه الفرصة لخوض التجربة الوجدانية والشعورية لا لتحق بركب شوقي والجواهري والحضراني و البردوني وللقاضي السكري ديوان شعر جمع فيه الكثير من قصائد المراثي والتهاني والإماميات والوطنيات وقد زودني الأخ الأستاذ نجيب عبد الكافي الرزامي بمقطوعة شعرية متميزة كرسها الشاعر لتوثيق اجتماع مكة التاريخي بين الملك»سعود» والإمام»احمد»والزعيم» جمال عبد الناصر» الذي اتفقوا فيه على تشكيل الحلف العربي الثلاثي وجاء التوثيق بتاريخ الاجتماع سنة 1376هـ في الصدر والعجز من كل بيت منها:

ومنهـا:

عجائب نصر الله والفتح نشهدُ
ومن ذا يريد الكل ذين ويقصدُ
لعمري لقد لاحت لودق بروقه
مزوناً على العام الذي فيه نسعد
وعرش ومسيع دكـه باعث الهوى
بشحناء قوم بالإخاء سيصعد

به اجتمعت آمال بر لعلنا
نفوز بآراء تنيط ونرشد
فلله أبناء العلى من ثلاثة
مساعيهم في الدين تعلو وتحمد
هُمُ أحمدُ شمسُ العلى أشرف الورى
وذاك سعود فالرئيس المنجد
جمال الذي أحيا لمصر كمسلم
إباءً وكم رامٍ يجود به الغد
هُمُ خلدوا للعرب نوراً بمجدهم
وقد كاد ذاك المجد والرأي يفقد
بهم أسفرت أم القرى حين قبلوا
بها ركن بيتٍ صاعداً يتوقد

ومنها:

لقد جمع القرآن للعرب شملهم
فرمزهم المجد الأثيل المشيد
فقوا عصبةً وامعشر العرب إننا
سنثبت في الهيجاء بالاً ونصمد
سنبذل حقاً في نزال نفوسنا
فأموالنا تفنى وفاءً وتنفد
فكل كريم لا يضام أباسلٌ
يذل وفي يمناه شد المهند
أيرضى الأبيُّ الجورَ أو بإهانة
وعن عرشه الاسمى المحرم يطرد
الا لا تهابوا الموتَ فهو لمكرم
ومقتصد ساقٍ طريف وموردُ

فمن لم يمت بالسيف مات بجنبه
فمت ناجحاً بالموت والسيف(أحمد)
فأرخه في أعجازها وصدورها
عجائب نصر الله والفتح نشهد

وهذه الأبيات من قصيدة عصماء تقارب الخمسين بيتاً كلها بهذه الشاكلة وله مثلها عدد من القصائد وله قصيدة بعثها للإمام من الحبس وتعتبر من غرر أشعاره ودرر بيانه لتميزها بجودة السبك وبلاغة النظم وجزالة المعنى ولاحتوائها على شرح واقع الحال الخاص والعام وعلى كثير من الحكم والأمثال وتنبأ فيها بحتمية التغيير وضرورة حدوثه منبها بذلك إلى اقتراب قيام الثورة ومما جاء في القصيدة :

أيها الشامتُ العذولُ رُويداً
فليالي الزمان نحسٌ وسعدُ
إن يوم الظلوم قاسٍ على
المظلوم لكنْ يومَ هذا أشدُ
فظلام العشي كالظلم وجهاً
وضياءُ الصباح كالعدل يبدو
والأمانيُّ كالسراب وقد يصدقُ حلمٌ
وقد يحققُ وعدُ
فاتئد أيها الكنودُ ولا تعجل
فخلف الستار برقٌ ورعدُ

ومنها قوله شاكياً :

آهـ مولاي كيف يشقى محبٌ
ذو ولاءٍ ؟ وكيف يسعدُ ندٌّ ؟
إن ضيمَ الأبي قتل يهون القتلُ
بالسيف دونه وهو وَأدُ

كـان لـي الدوز لازمـاً مثل

أمثالـي فلمْ طـال فيـه اخـذٌ ورذ

فإذا بـي أسيـرُ مسـألةَ الـدّور

وسيـرُ الأمـور عكـس وطردْ

هكـذا الطـرد مثـل دزسٍ وسزدِ

وهو مهما عكست درسٌ وسردْ

ويختمها معاتباً الإمام ومؤكداً ولاءه لممدوحه:

ألبـري بكـم وحبـي وإخلاصـي لكـم

أفقـد الرضـي فأكـدْ

ألنصحـي العظيـم جوزيـت

بالهجر فلم يبق لي من الحظ قَدّْ

لا .. فإنـي مادُمـتَ لـي حُسـن

ظَنيٌ بك في ضوئه أروحُ وأغـدو

وسرعان ما قامت الثورة السبتمبرية الخالدة ففقد القاضي السكري سنده وفقد شعره بريقه وانكفأ على نفسه وخف نشاطه السياسي وقل إنتاجه الإبداعي. ووقف من العهد الجديد موقف المتفرج اليائس.

وقد دفعه الاهتمام بفرائض المواريث إلى البحث في المسائل الحسابية المتعلقة بالفرائض الشرعية وخرج على الناس بكتاب تحت عنوان « كشف النقاب عن علم الحساب » تناول فيه كيفية التعامل مع فرضيات سهام وأنصبة الوارثين باعتبار أن وحدة التداول النقدي (الريال) تنقسم إلى أربعين جزءاً (البقشة) وبرهن على صحة نظريته بعدد كبير من الجداول الرياضية والكشوف المالية والمحاسبية يسهل الرجوع إليها لحل أية معضلة وقد راعى في وضع نظريته المالية سهولة تحويل مسائلها من النظام الأربعيني إلى النظام المئوي في حال تغيير أجزاء الريال من أربعين إلى مائة فلس وبالتالي يتم التحول إلى الحساب العشري.

وهذا ما حدث فعلاً بعد وفاة المؤلف مباشرة، وقد انتقل القاضي « محمد عبدالله السكري » إلى جوار ربه سنة 1398هـ رحمة الله تغشاه.

هذا لا يعني أن القاضي السكري كان وحيد دهره أو فريد عصره في مجال القضاء بالنسبة ليريم كما في مجال الشعر فقد عاصره كوكبة من العلماء الأفاضل الذين تولوا القضاء في البلاد إبان فترة البحث ولا يتسع المجال لذكرهم جميعاً لضيق الحيز وعجالة السرد ونكتفي بالتنويه إلى ثلاثة لعلهم من أشهر الشخصيات التي تولت القضاء في اليمن وهم:

1 - القاضي العلامة « محمد بن يحيى الإرياني » الذي عرف بعلمه الغزير وفضله الكبير وعدله الواسع وحزمه القاطع ورأيه السديد وزهده الشديد. ويوم قيام الثورة السبتمبرية المجيدة تعرض لأذية بالغة من جمهور مواطني يريم المؤيدين للثورة لاعتقاد العامة بأنه من رموز الحكم المباد فكان اعتقاله باعتباره حاكم قضاء يريم، وسرعان ما أطلق سراحه ورد إليه اعتباره ومن ثم نقلته حكومة الثورة إلى العاصمة ليتولى رئاسة المحكمة الاستئنافية العليا وقد ظل في هذا المنصب الرفيع والخطير إلى أن توفاه الله إلى جواره رحمة الله تغشاه.

2 - القاضي العلامة « محمد بن يحيى عبدالمغني » الذي اشتهر بشدة العزيمة وقوة الشكيمة والحسم والحزم والجزم وعرف عنه عفة النفس ومعرفة الناس وأحوالهم واطلاعه على تفاصيل علاقاتهم مما سهل عليه التعامل مع قضاياهم وسرعة البت فيها. وكان هذا ديدنه وسلوكه طوال حياته العملية في مجال القضاء سواء عندما كان حاكم تراضي أو حينما صار رئيساً لمحكمة قضاء يريم. وقد ظل في منصبه هذا حتى أعياه الدهر وأدركه العجز فطلب إعفاءه وأحيل إلى التقاعد مأسوفاً عليه وعلى أمثاله من رجال القضاء النقاة. وقضى بقية حياته في فعل الخير وعمل الصالحات لينتقل إلى جوار

ربه في السنة الثالثة عشرة وأربعمائة وألف هجرية عن عمر ناهز السابعة والتسعين سنة.

3 - القاضي العلامة السيد "محمد أحمد محمد الكبسي " الذي بزغ نجمه من حلقات الدرس في يريم وشهارة وهو في ريعان الشباب ، فاستحق لذكائه أن يعين في الهيئة الشرعية بالديوان الملكي بتعز . وعندما قامت ثورة سبتمبر المباركة تعرض لأذية انصارها مما أضطره إلى مغادرة البلاد والاستقرار في المملكة العربية السعودية مع اللاجئين وبعد استتاب السلام واستقرار النظام الجمهوري عاد أدراجه والتحق بسلك القضاء ليشغل مناصب عديدة هامة كان آخرها رئاسة المحكمة الاستئنافية بمحافظة صعدة أحيل بعده إلى التقاعد فلم يقعد بل نشط في تدريس العلم الشريف لطلابه بالجامع الكبير بصنعاء وفي ممارسة الإفتاء المباشر في منزله وفي مسجد قلالة وغير المباشر عبر برنامج فتاوى الذي كانت تبثه إذاعة صنعاء يومياً . وما يزال يقدم بسخاء ثمرة عمره وعصارة فكره لكل مريديه وزائريه.. أمد الله بحياته ونفع الناس بعلمه وعمله وجزاه خير الجزاء.

أخيراً ، أتمنى أن أكون قد وفقت إلى رسم صورة مجملة بالحروف والكلمات لمدينة يريم عند قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر المجيدة مسترجعاً معظم أبعاد مكوناتها من الذاكرة ومستعلما بعض الأصدقاء عن معلومات مهمة لتوضيح بعض جوانب الصورة . ولا يسعني هنا إلاّ أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من زودني بالمعلومات ولكل من قام بأعمال الطبع والصف والإخراج والنشر والتوزيع .

ومن هذا المنبر الثقافي العظيم أوجه الدعوة للباحثين والباحثات ليرسموا صوراً بالكلمات لحواضر وطننا ومعالمه وأعلامه بتركيز اشد وبتفاصيل أدق وبطرق احكم وبمناهج أسلم كل في مجال تخصصه و أسأل الله العون والسداد والهداية والتوفيق للجميع .

ابْنُ وَحْشِيَّة
وما نراه فيما دار من جدل حوله وحول كتابه المترجم عن السريانية المسمى (الفلاحة النبطية)

ابن وحشية هو أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني ،شخصية نبطية اشتهر بلقب (ابن وحشية) – عاش في القرن_ 4،3 /10،9م- قام بترجمة علوم الأنباط الكسدانيين(البابليين) القدماء إلى العربية في حقول الزراعة وعلم النبات والفلك والكيمياء وعلم السموم والطب والسحر

محمد عبد الرحيم جازم
باحث في المعهد الفرنسي
للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء

، وله مؤلف في خطوط العصور القديمة[1].

ومن بداية ترجمة محمد علي مولوي لابن وحشية التي أوردنا نصها في هامش هذه الدراسة نجده ينظر بعين الشك إلى وجود شخص يسمى ابن وحشية وذلك يستوحى من قوله(شخصية غير معروفة) و(تنسب إليه ترجمات ....الخ) ونقلا عن المستشرق (نلينو) يواصل قوله(يكتنف حياته الغموض التام إلى الحد الذي يشك حتى في وجوده ..ويشك في صحة سلاسل النسب التي كتبت عنه .دعاه ابن النديم في موضع بأحمد بن علي بن المختار بن عبد الكريم بن جرثيا بن بدنيا بن برطانيا بن عالاطيا (غالاطيا) .وفي موضع آخر أحمد بن علي بن قيس بن عبد الكريم بن حرثيا بن بدنيا بن بوراطيا ..ولم يعرف أي من هذه الأسماء .فهذه الأسماء غير العربية التي ، يفترض-حسب المتعارف- أن تكون نبطية أو (آرامية) ، غير

(1) محمد علي مولوي ،ابن وحشية ،دائرة المعارف الإسلامية الكبرى ، طهران ،1420/1999م ، م4 ،ص267 ،ونص ترجمته(ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني ،شخصية نبطية غير معروفة(القرنان 3و4هـ/ 9و10م) تنسب إليه ترجمات آثار في الزراعة وعلم النبات والفلك والكيمياء وعلم السموم والطب والسحر ، وكذلك مؤلف في خطوط العصور القديمة .وقد حظي أهمها ،أي كتاب الفلاحة النبطية ،بشهرة عالمية .

مستخدمة في أي من اللغات الآرامية .إضافة إلى أن برطانيا وغلاطيا بالشكل الذي وردتا به في آثار بطليموس أيضا اسمان لإقليمين معروفين تابعين لبلاد الروم القديمة..)[1] ومن هنا نجد هذا القول يرتكز في التشكيك بوجود (ابن وحشية) على عدم مطابقة الأسماء الأخيرة لأسلافه التي أوردها ابن النديم في كتاب (الفهرست) للأسماء النبطية والآرامية القديمة التي كان يتسمى بها النبط القدماء والتي وردت في مخلفاتهم من النقوش القديمة عنهم وعن حضارتهم دون الأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين الأنباط القدماء والجد الثالث والرابع والخامس لابن وحشية ولنا أن نتخيل مقدار الفجوة الزمنية الواسعة بين الأجداد القدماء والأحفاد الذين عاشوا في القرون الأولى للإسلام ناهيك عن عدم الأخذ بعين الاعتبار إمكانية وقوع تصحيف في أسماء أسلاف ابن وحشية وقع فيها من قاموا بنسخ كتاب الفهرست لأبن النديم .كما أن مسألة التأثر والتأثير في إحداث تغير في أسماء الناس واردة وعند كل الشعوب مع حدوث تغييرات كبرى في حياتها فقد يحدث تأثير روماني أو فارسي أو غيره يقود إلى ظهور أسماء جديدة بدليل أن (ابن وحشية) النبطي الأصل غدا اسمه أبو بكر أحمد بن علي بن قيس وهو اسم عربي إسلامي نتج عن تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الشعوب الواقعة في نطاق تأثيرها ومن هنا لا يعد القول السابق ل(نيلنو)حجة في نفيه لوجود ابن وحشية من منطلق التشكيك بعدم مطابقة أسماء أسلاف ابن وحشية بما ورد من أسماء لدى الأنباط أو الآراميين القدماء..

أما قوله (شخصية غير معروفة) و (يكتنف حياته الغموض التام إلى الحد الذي يشك في وجوده) فهو قول متهافت لا يقوم على أساس، فابن وحشية شخصية معروفة من الآثار التي تنسب إليه متمثلة بكتبه التي كان ولا يزال لها عظيم الأثر في الثقافة العربية الإسلامية في العديد من مناحيها ذات الأبعاد العلمية كالزراعة والطب والكيمياء والفلك والفلسفة وغيرها وهذه الآثار العلمية والثقافية لا تعرف إلا به ولا تنسب إلا إليه لا لأحد غيره و هذا أكبر دليل على أنه شخص معروف على نطاق واسع وحظيت أعماله باهتمام المختصين والعلماء منذ زمنه إلى يومنا هذا .

لقد تحدث ابن وحشية عن نفسه في مقدمة كتاب (الفلاحة النبطية) الذي أملاه على أبي طالب أحمد بن الحسين الزيات ومنها يمكن لنا أن نتبين بعض ملامح شخصيته .حيث نجده يقول في إملائه (اعلم يا بني أنني وجدت هذا الكتاب ،في جملة ما وجدت من كتب الكسدانيين،مترجما بترجمة معناها بالعربية (كتاب إفلاح الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها). فاستكبرته واستطلته وخطر ببالي اختصاره .ثم فكرت فإذا ذلك خطأ غير صواب،من أجل أن قصدي الأوّل وغرضي إنّما هو إيصال علوم هؤلاء القوم، أعني النبط الكسدانيين منهم ،إلى الناس وبثها فيهم ليعلموا مقدار عقولهم ونعم الله تبارك وتعالى عندهم في إدراك العلوم النافعة الغامضة ،واستنباط ما عجز عنه غيرهم من الأمم)[2].

يتبين من الفقرة السابقة ومن أسلوب ابن وحشية في الإملاء إننا أمام معلم كبير رصين في إملائه يتخير كلماته بدقة ليوصل ما يريده من غرض إلى من يوجه إليهم كلامه شأنه في ذلك شأن العلماء الكبار في زمنه . ثم يدخل في الموضوع الذي يريده بسلاسة ويسر شارحاً الأسباب التي دعته إلى ذلك ومبينا منهجه في ترجمة الكتاب واعتزازه بما قام به مقرونا

(1) المصدر السابق ،ص267، 268 .

(2) ابن وحشية ،الفلاحة النبطية ،تحقيق توفيق فهد ،ط المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1993م،ج 1 ،ص5 .[1]

باعتزازه بمن يترجم علومهم والذين ربما فاقوا بسبقهم في هذا الميدان غيرهم من الأمم الأخرى .

يبين لنا بعد ذلك وبكل جلاء ما آل إليه في زمنه حال البقية من أبناء تلك الأمة التي يترجم آثارها العلمية (وذلك إنني وصلت إلى كتبهم في زمان قد درس فيه ذكرهم ونسخت فيه أخبارهم وعدم إعلامهم ، وحتى لم يبق إلاّ ذكرهم فقط وذكر بعض علومهم ،ذكرا كالخرافات بلا معرفة ممن يذكرها بها. فلما رأيت ذلك اجتهدت في طلب كتبهم فوجدتها عند قوم هم بقايا الكسدانيين وعلى دينهم وسنتهم ولغتهم، ووجدت ما وجدت عندهم من الكتب ، وهم في نهاية الكتمان والاخفاء والجحود لها والجزع من إظهارها)[1] ويتضح مما سبق أن ابن وحشية ابتدأ رحلة البحث عن آثار الكسدانيين كخطوة أولى في الوسط الذي تعيش فيه بقية منهم ويبدو أنهم كانوا أقلية تعيش منعزلة عن محيطها الذي يخالفها في الدين واللغة والسلوك ، مما جعل التزمت والانغلاق والتوجس من الغير صفة غالبة على تعاملها مع من يغايرها ، ولكن صفة الدأب والمثابرة في شخصية ابن وحشية مكنته من تحديد من لديه بغيته التي يود الحصول عليها وهي كنوز الكسدانيين العلمية .

ولكن سعي ابن وحشية للحصول على الكنوز المعرفية للكسدانيين لم تكن مبنية على غير أساس أو نتاج رغبة في اقتناء هذه المعارف، فهو كان آخر من له معرفة موسوعية باللغة السريانية القديمة لغة الكسدانيين (البابليين) لأنه متحدر منهم ، إلى جانب ما يملكه من إمكانيات مالية تمكنه من الوصول إلى بغيته من منطلق معرفته بحاجة من لديه هذه الكتب الثمينة ، وهم ولاشك من الأسر التي آلت إليها عبر الأجيال هذه التركة العلمية ولكن ظروفها الاقتصادية رغم حرصها على ما بيدها من كتب قديمة كانت تدعوها إلى الإفادة من ورائها دون تفريط فيها مما اقتضى من ابن وحشية بذل جهود مضاعفة للوصول إلى مبتغاه بطرق تعكس نفسه الطويل في الوصول إلى الوجهة التي يريدها مما يضعنا أمام شخصية عالم فذ يعمل بدأب دائم لا تثنيه العقبات والصعاب في التوصل إلى ما يريد، يدلنا على كل هذا قوله (وكان الله تعالى عزّ وجلّ قد ترزّقني قبل ذلك من المعرفة بلغتهم ، التي هي السريانية القديمة ما لم أره مع كثير أحد.وذلك أنني منهم، أعني من نسل بعضهم،ومكنني الله تعالى من المال والدنانير،فله الحمد، فوصلت إلى ما أحببت من كتبهم بهذه الوجوه التي عددتها،من أنني منهم ،وأني عارف بلغتهم وأنني متمكن من المال .فاستعملت المداراة والبذل ولطيف الحيلة،إلى أن وصلت إلى ما أمكن من كتبهم)[2].

وتناول ابن وحشية حالة من كان يعيش من بقايا النبط في زمنه واصفاً ترديهم في الجهل بما جعلهم شبه البقر والحمير عاجزين عن فهم شيء من علوم أسلافهم ، ولكن الشخص الذي اتصل به وكانت كتب الكسدانيين محفوظة لديه تميز عن هؤلاء القوم بالفطنة، ولكنه كان شديد الكتمان والحرص على ما يخبئه من الكتب فكان أن دخل معه بمحاورة مهد لها بالتأكيد على أهمية ما خلفه الأسلاف من علوم مفيدة مشيداً بهم ومؤكداً في الوقت نفسه على أنهم علماؤه وأسلافه كما هم علماؤهم وأسلافهم، وهو أسلوب وطريقة إقناع بارعة اتبعها ابن وحشية للوصول إلى ما يريد بوضع نفسه على قدم المساواة مع من يحاوره وإخراج ما بيده من كتب من دائرة التملك الشخصي

(1) المصدر السابق ، ص5.[2]

(2) ابن وحشية ،الفلاحة النبطية ، ج1 ،ص6،5 .

إلى دائرة العموم من منطلق عدم جواز الهيمنة على ما خلفه الأسلاف من علوم وإخفائها لأن فيها وفي إظهارها ما فيه رفعة وفخار لأجيال الأنباط في الزمن الحاضر يجعلهم على قدم المساواة مع غيرهم من الأمم التي يعيشون في وسطها [1].

وعندما احتج عليه من يحاوره بأنه يدعو لمخالفة وصية الأسلاف بكتمان ما هم عليه من حفظ لدينهم وسنتهم رد عليه ابن وحشية بأن الأسلاف قصدوا بذلك حفظ العقيدة وكتمان شئون الدين احتياطاً منهم لمخالفته لعقائد من يعيشون في وسطهم واستصوب رأيهم بهذا الخصوص ، أما العلوم النافعة للناس جمعياً فلا يجوز تغييبها عنهم، لأن في إظهارها ليس فقط نفع للجميع بل ورفعة لمكانة من وضعوها سواء منهم من عاش في غابر الزمن أو من أجيالهم التي تعيش في الحاضر .ولكن محاور ابن وحشية كان صاحب موقف من المخالفين لهم في الدين والعقيدة وكان يرى أن الأسلاف قصدوا بنصحهم إقران كتمان (الشريعة) والعلم عنهم معاً .وجادله ابن وحشية فيما ذهب إليه من كتمان العلم عن المخالفين في الدين قائلاً (فإني أخالف أسلافنا وأسلافك في كتمان العلوم وأوافقهم في كتمان الشريعة ،إن كانوا أمروا بكتمان العلوم ،وإن كانوا لم يأمروا بذلك فإني موافق لهم غير مخالف ..) ويدخل بعد ذلك معه بتأكيد ما تطيب به نفسه من حيث أن أهل زمانهم مع مخالفتهم لهم في الدين والعقيدة على تنوع هذه الأديان والعقائد قد استشرى فيهم الجهل بالعلوم النافعة ولا ضير من إخراجهم مما هم فيه بإخراج وبث علوم الأسلاف فيهم بهدف تحقيق نتيجتين من وراء ذلك هما :

- إفادتهم بهذه العلوم وجعلها شغلاً شاغلاً لهم مما هم فيه من الجهل وخاصة منهم من يتحلون بالعقل والفطنة .
- منعهم من الاستمرار في التقليل من شأن النبط وما يجري على ألسنتهم من تأكيد على مثالبهم والحط من مكانتهم [2].

كما أكد ابن وحشية على صاحب هذه الكتب وخازنها ومغيبها عن الناس وعن نفسه بأنه سيكون أول من يستفيد مما فيها لأنه كما يبدو من قول ابن وحشية لا يفهم باللغة التي كتبت بها هذه العلوم (..دعني أنقل إلى العربية بعض ما أرى نقله من هذه الكتب ، فلست بأحرص مني على طاعة أسلافنا ولا أشد مواظبة على كتمان ما ينبغي أن يكتم .وأيضا فإن لك في سماع هذه العلوم التي لم تفهمها من شدة حرصك على طاعة أسلافك فيما تزعم عنهم أنهم أمروا بكتمانها .ولو قد نظرت في بعضها لكان لك في ذلك أعظم الفوائد وأجزل المنافع تنتفع بها .فأفكر فيما أقول لك ،فإنك تجده كما أقول ويراه عقلك صواباً)[3].

وفتح هذا الحوار بين ابن وحشية وصاحب الكتب باب الألفة بين الطرفين ويبدو من أقوال ابن وحشية أن البداية الأولى لاطلاعه على الكتب هو قراءته محتواها على صاحب الكتب وتفسيرها له لكي يعي ما فيها من فوائد فشكر له صنيعه واقتنع بوجهة نظره وسمح له بعد ذلك بنقلها إلى العربية .(وابتدأت أنقل كتاباً بعد كتاب من كتب النبط وأقرأه عليه بالعربية ،فيزداد فهما إلى فهمه ويعجبه ذلك،فلم أزل به حتى شكرني أتم شكر وعرف صواب رأيي وصحته في ذلك .ولكن لم يستو ل ذلك معه إلاّ ببذل الدراهم والدنانير له ،حتى انقاد لاجتماع الرغبة بالمال مع إلزام الحُجّة له واستحسان بما يسمع وموقع الفائدة له من

(1) المصدر السابق ،ص6 .

(2) المصدر نفسه ،ص7،6.

(3) نفسه ،ص7.

نفسه)[1]

ويتطرق ابن وحشية بعد هذا إلى منهجه في ترجمة كتب النبط من اللغة السريانية إلى العربية(.. فكان أول كتاب نقلته إلى العربية[كتاب دواناي البابلي في أسرار الفلك والأحكام على الحوادث من حركات النجوم] وهو كتاب عظيم المحل والقدر نفيس ،ولم يستوِ لي نقله كله، بل نقلت منه صدراً ،لأنني وجدته في نحو ألفي ورقة ،من الورق المسمى الرّقّ ،في مقادير أتم ما يكون من الكاغد الطلحيّ الموجود في زماننا هذا ،بأحسن خطّ وأصحه وأقومه وأبينه .فعجزت والله يا بني عن استتمام نقله لطوله فقط لا لغير ذلك ، ونقلت معه كتابهم في الأدوار ،وهو(الأدوار الكبير) ونقلت هذا الكتاب مع غيره بعد عدة كتب ، أعني بهذا الكتاب (كتاب الفلاحة) ،ونقلته كله على تمامه وكماله ،لاستحساني له وعظم ما رأيت من فائدته وجميل موقعه في إفلاح الأرض وعلاج الشجر وزكا الثمار وتجويدها وزكا الزروع والكلام على خواص الأشياء وخواص البلدان والأزمنة ومواقع أفعال فصول الأزمنة واختلاف طباع الأهوية وعجيب أفعالها وتراكيب الشجر وغروسها وإفلاحها ودفع الآفات عنها واستخراج منافع المنابت والحشايش والمداواة بها ودفع العاهات عن أبدان الحيوانات ودفع آفات الشجر والمنابت بعضها ببعض وطرايف ما ركبوا من الأشياء حتى حدث عنها أشياء هي غيرها ، إما قريبة منها أو بعيدة . فلما رأيت ذلك فيه أكملت نقله ، وهآنذا الآن قد أمليته على ابني أبي طالب أحمد بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد الملك الزّيّات ، ووصيته بأن لا يمنعه أحدا يلتمسه ، طالبا للانتفاع به، فإنه نافع لجميع الناس ، عظيم المنفعة لهم في معايشهم ، مع وصيتي له بكتمان أشياء آخر غيره)[2].

إذا يتضح لنا مما سبق ملامح عدة في شخصية ابن وحشية ،فهو شخص يحمل فكراً ورؤية لما يقدم عليه من عمل وقد طوع كل ما يملكه من وقت ومن إمكانيات مالية في سبيل الهدف الذي سعى إلى تحقيقه وهو ترجمة علوم الكسدانيين القدماء إلى العربية وبذل في سبيل ذلك كل جهد ممكن للوصول إلى تحقيق هدفه بما في ذلك إنفاقه وعلى حسابه الخاص الأموال والوقت وجهد في إقناع من لديهم هذه الكنوز المعرفية لإظهارها واضعاً نصب عينيه رفع شأن قومه من النبط الذين كما يتضح من حديثه أنهم يعانون من التقليل من شأنهم في الوسط الذي يعيشون فيه ، كما يتبين أيضا من تناوله لما عني به من هذا التراث في بداية نقله له أنه كان يهتم بعلوم الفلك وهو العلم الذي برع فيه البابليون القدماء قبل غيرهم من الشعوب الأخرى، والذي كان العباسيون يولونه عظيم اهتمامهم في العصر الذي كان يعيش فيه، فأراد ربما بهذه الخطوة إبراز ما توصل إليه الكسدانيون من معرفة متفوقة في هذا المجال ورغم بعض العوائق الفنية التي واجهته في استكمال نقل بعض هذه الكتب وترجمتها بسبب طولها إلاّ أنه نقل منها ما رأى فيه الإفادة ، ولكنه أمام كتاب الفلاحة وأمام محتواه الثر ورغم طوله وضخامته فقد تجاوز هذه العوائق وقام بترجمته كاملاً ،ولكونه يسعى إلى إبراز دور البابليين القدماء في ميدان الزراعة، وربما كان هذا دافعاً له للقيام بذلك مما يفسر لنا وصيته التي وجهها لتلميذه أبي طالب بن الحسين الزيات بعدم منع من أراد الإفادة من الكتاب من منطلق أن فيه وفي محتواه منافع جمة تتعلق بحياة الناس ومعايشهم اليومية كما أن هذه الوصية تهدف أيضاً إلى انتشار الكتاب وشهرته ،وهذا ما حدث بالفعل فقد غدا كتاب(

(1) نفسه ،ص8.

(2) نفسه ،ص8، 9 .

الفلاحة النبطية) المصدر المهيمن والمرجوع اليه في حقل المعرفة الزراعية التقليدية في الشرق الأوسط إلى زمننا الراهن .

ويبين لنا تأريخ موثق يرد في بداية كتاب(الفلاحة النبطية) الفترة الزمنية التي قام فيها ابن وحشية بترجمة ونقل الكتاب من السريانية إلى العربية والفترة الزمنية التي قام بإملائه على تلميذه أبي طالب أحمد بن الحسين الزيات ورد ذلك في السطور الأولى من بداية الكتاب ، حيث قال (هذا كتاب الفلاحة النبطية ،نقله من لسان الكسدانيين إلى العربية أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني القسيني، المعروف بابن وحشية ،سنةإحدى وتسعين ومايتين من تاريخ العرب من الهجرة، وأملاه على أبي طالب احمد بن الحسين بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الملك الزيات ،في سنة ثماني عشرة وثلثماية من تاريخ العرب من الهجرة)[1].

إن القول السابق يبين بكل جلاء ليس فقط اسم ونسب ابن وحشية وتلميذه ابن الزيات الذي تم أيضاً التشكيك بوجوده ، وإنما يوضح الفترة الزمنية التي كانا يعيشان فيها ويعملان فيها على إخراج كتاب الفلاحة النبطية إلى النور ، كما يبين لنا ما ذكر آنفاً الفارق الزمني بين المرحلة التي عمل فيها ابن وحشية على ترجمة الكتاب إلى العربية والفترة التي أملاه على تلميذه، أن هذا الفارق الزمني معقول لتأخذ الترجمة حقها من التدقيق والتنسيق، إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم وضخامة الكتاب وما يتطلبه من مجهود لإخراجه وسط مشاغل الحياة العديدة . ومن هنا لا تثبت بأي حال من الأحوال حُجة من يقولون بعدم وجود هاتين الشخصيتين خاصة وقد تبين لنا من أقوالهما وأفعالهما وزمن وجودهما ما يدل على أنهما شخصيتان حقيقيتان وليسا وهما كما يدعي المدعون .

كما أن ما يلفت الانتباه هو لماذا يتم فقط التشكيك بوجود هاتين الشخصيتين دون ما عداهما من الكُتّاب الذين عملوا في الترجمة من اللغات الأخرى كاليونانية والهندية والفارسية وغيرها ، مع أن المصدر الموثوق والمرجوع إليه من قبل هؤلاء جميعاً بصدد من عملوا بالترجمة من اللغات المختلفة إلى العربية هو كتاب (الفهرست) لمحمد بن إسحاق المشهور ب(ابن النديم) ، الذي ذكر (ابن وحشية وابن الزيات) في كتابه مع جماعة من العلماء المؤلفين والمترجمين من اللغات الأخرى إلى العربية ،دون أخذ بالاعتبار أن ابن النديم كان قريب عهد من هاتين الشخصيتين ومعاصراً لهما، وذكر أن ابن الزيات(..صاحب ابن وحشية، وهو الذي يروي هذه الكتب عنه ، يحيا في وقتنا هذا ،بل أحسبه مات قريباً)[2] ،فهل كان ابن النديم الذي قال هذا الكلام شخصية وهمية وكاذباً بهذا الخصوص أيضاً خاصة وقد ذكر في مقدمة كتابه (الفهرست) (أنه صنفه سنة 377من الهجرة ،وفي موضع منه أنه كتب سنة 412 هجرية ويستفاد من هذه الرواية أنه ألّف كتابه في شبابه وعاود النظر فيه في كهولته)[3] وكرسه لكل ما شأنه العناية بالعلماء والكتاب ومصنفاتهم في مختلف الفنون والعلوم من أزمنة قديمة وحتى وقته .وقد توفي ابن النديم سنة 438 هجرية _ 1047 م .

ومن الأدلة القوية الأخرى التي أوردها ابن النديم في (الفهرست) ما ذكره في المقالة العاشرة التي تناول فيها أخبار الكيمائيين وغيرهم من اطلاعه على كتاب ألفه ابن وحشية يتناول أبجديات وخطوط عدد من الشعوب مكتوب بخط ابن وحشية نفسه ،ونص ما أورده

---

(1) ابن وحشية ،الفلاحة النبطية ،ص5 .

(2) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ابن علي المازندراني ، طبع دانشكاه طهران ،ص372 .

(3) الزركلي ، الاعلام ،ج6،ص29 .

ابن النديم هو (...ونحن نذكر في هذا الموضع كتبه في صناعة الكيمياء وهي،كتاب الأصول الكبير في الصنعة ،كتاب الأصول الصغير في الصنعة أيضاً،كتاب المدرّجة ،كتاب المذكرات في الصنعة ،كتاب تحتوي على عشرين كتاباً أول وثاني وثالث على الولاء .نسخة الأقلام التي يكتب بها كُتب الصنعة والسحر ذكرها ابن وحشية وقرأتها بخطه..)[1]فعلى أي أساس أو مصدر بعد قول هذا الجهبذ المعاصر لابن وحشية وتلميذه ابن الزيات يمكن لأحد أن يتشكك في وجود هاتين الشخصيتين ولا ندري ما المطلوب أكثر من شهادة معاصر ووجود آثارهما العلمية بأيدي الناس إلى يومنا هذا ليتسنى لنا مناقشة الشكوك غير القائمة على أسس علمية من نوع القول الذي أورده محمد علي مولوي في دائرة المعارف الإسلامية الكبرى ص 268 منسوب إلى(ظ : ن . د ،ابن الزيات ، أبو جعفر : أيضا EI2) ونصه (أما ما قاله ابن النديم من أنه شاهد نسخة من شوق المستهام في رموز الأقلام لابن وحشية ..فلم يدعم بأي سند تاريخي موثوق. وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون ابن وحشية حقا"شخصية مختلقة ابتكرها ذهن ابن الزيات الذي لا نملك عنه هو الآخر معلومات كافية. وقد دعاه ابن النديم ((صاحب ابن وحشية))..).

هكذا وبكل بساطة وفقا للقول السابق يغدو ابن وحشية شخصية وهمية مختلقة اختلقها ذهن ابن الزيات ، والحجة في ذلك فقدان السند التاريخي الذي يؤكد وجود ابن وحشية ، فأي سند تاريخي مطلوب وابن النديم هو السند المعاصر لابن وحشية وابن الزيات والمؤكد على وجودهما إلى جانب ما ذكره كل من ابن وحشية وابن الزيات عن نفسيهما في الكتب المنسوبة إلى ابن وحشية من ترجمته أو من تأليفه والتي رواها ونشرها تلميذه ابن الزيات وفقا لتقاليد النشر التي كان معمولا بها في تلك الأزمنة ، إلا إذا كان المطلوب حضور ابن النديم وابن وحشية وابن الزيات في زماننا هذا للإدلاء بشهاداتهم أمامنا!؟.

وإذا جارينا أصحاب القول السابق فيما ذهبوا إليه من وهم وسألناهم عن كتاب (شوق المستهام في رموز الأرقام) هل هو موجود ومنسوب إلى ابن وحشية أم إلى غيره ؟ وهل كان ابن النديم في كتاب الفهرست عندما أشار إليه في الفقرة التي نقلناها عنه يتحدث عن كتاب غير معروف ولم يعثر عليه أحد إلى يومنا ؟. فسيكون الجواب بالعكس هذا الكتاب موجود ومنسوب إلى ابن وحشية،وهو يؤكد ما ذكره ابن النديم في (الفهرست) ، وقد أورده محمد علي مولوي مع جملة الآثار العلمية المنسوبة إلى ابن وحشية في الفقرة التي نصها (11_ .شوق المستهام في معرفة رموز الأرقام،وهذ الكتاب مجموعة من 93 شكلاً من أشكال الأبجديات المنسوبة للعبرانيين واليونانيين والهنود، والأبجديات الرمزية المنسوبة لأشخاص، وأبجديات سيارات ومنطقة البروج. طبع هذا الكتاب بلندن بتحقيق هامر3 سنة1806 م بعنوان(شرح الأبجديات القديمة والعلامات الهيروغليفية ...) (EI2) توجد مخطوطتان منه في ميونخ (رقم789) وفينا (رقم68) (280/GAL.1)[2] .وبهذا نكون قد أسقطنا قول المشككين في صدقية وجود الشخصيات الثلاث التي تناولوها بالتشكيك والغمز واللّمز ،فكل الدلائل المستقاة تصب في تأكيد صدق كل ما قاله ابن النديم في كتابه وليس العكس .

ولعل بعض المنطلقات التي اتخذها هؤلاء مدخلاً للتشكيك بكل من ابن وحشية وتلميذه وابنه بالتبني العلمي ابن الزيات ،ما

(1) ابن النديم ،الفهرست ،ص424 .

(2) محمد علي مولوي ،ابن وحشية ، دائرة المعارف ،ص 269 .

ذكره الأخير في إشارة له في نهاية المجلد الخامس من كتاب الفلاحة النبطية ،من(.. أن ابن وحشية أملى عليه 80 ورقة فقط من هذا الكتاب ،أما بقية صفحاته وكذلك الكتب الأخرى التي خلفها،فقد حصل عليها من زوجته حسب وصيته)[1]. ولا يقود القول السابق لابن الزيات إلا لمزيد من تأكيد حضور ابن وحشية وابن الزيات فسواء أملى ابن وحشية كتابه بكامله على تلميذه أو بعض منه والبقية نقلها من الكتب التي سلمتها له زوجته بعد وفاته وفقا لوصيته، وهي مما لاشك فيه مكتوبة بخط ابن وحشية ،فالنتيجة واحدة وهي تأكيد أن كتاب(الفلاحة النبطية) وغيره هي كتب ابن وحشية رواها عنه ونشرها تلميذه الذي إئتمنه على مورثه العلمي .وقد أحسن ابن وحشية الاختيار فكان ابن الزيات خير من أدى الأمانة عنه قولاً وعملاً.

ولمزيد من تفنيد ما ذهب إليه البعض في التشكيك في حقيقة وجود ابن وحشية والرد عليها، فقد أورد محمد علي مولوي رداً على ما ذهب إليه (سامي خلف حمارنة) قوله (... كما لم نلاحظ أية إشارة إلى ابن وحشية من محمد بن زكريا الرازي الذي عاش في نفس العصر لفترة ببغداد .بينما ذكر ابن وحشية وخلافا لما ادعاه سامي خلف حمارنة ، الرازي في أحد كتبه المسمى كنز الحكمة ص23)[2].ويفيد القول السابق أن الرازي لم يذكر ابن وحشية وهو معاصر له في كتبه مع أن الرازي ورد ذكره في أحد كتب ابن وحشية وسواء كان الأمر على هذه الصورة أو على تلك فذكر ابن وحشية للرازي يدل على معاصرته له ويثبت بمزيد من الدليل حقيقة أنه كان يعيش حياً يرزق في بغداد أو في غيرها في الفترة التي كان يعيش فيها الرازي ، وقد جمع بينهما الاهتمام بعلم الكيمياء ومن هنا جاء ذكره في كتاب ابن وحشية (كنز الحكمة) مع كل من أبي موسى جابر بن حيان وأبي الخير المصري .

وذكر ابن النديم في المقالة الثامنة أن لابن وحشية (..كتاب مفاوضاته مع أبي جعفر الأموي،وسلامة بن سليمان الاخميمي في الصنعة والسحر..)[3] أي أن ابن وحشية جمع في هذا الكتاب مناقشاته ومحاوراته مع هذين العلمين البارزين في عصره في مجال علمي الكيمياء والسحر، كما كانت له محاورات ومكاتبات مع علم ثالث شهير أيضاً يسمى (عثمان بن سويد الأخميمي) وكان شهير عصره في علم الكيمياء ، ذكر ذلك ابن النديم عند ترجمته للإخميمي بقوله (..واسمه عثمان بن سويد أبو حرى الإخميمي ،من أخميم قرية من قرى مصر ،وكان في صناعة الكيمياء رأساً فيها، وله مع ابن وحشية مناظرات، وبينه وبينه مكاتبات ..)[4] .ويبدو لنا أن القول السابق لابن النديم استقاه من اطلاعه على كتاب (عثمان بن سويد) المسمى (كتاب مناظرات العلماء ومفاوضاتهم) ،وقد ذكره في الفهرست .ولكن هذه الإشارات وخاصة الأخيرة منها والتي تؤكد تواصل ابن وحشية بالمراسلة مع أعلام عصره من المهتمين بعلوم الكيمياء والسحر تم التشكيك في صحتها من قبل من تناولوا شخصية ابن وحشية ومعه أعلام عصره وذلك بقولهم (ويبدو أن ابن النديم هو الوحيد الذي ذكره من بين معاصريه ..كما أشار إلى محاورات ومراسلات ابن وحشية مع الكيميائي المصري عثمان بن سويد الأخميمي، وإلى كتاب بعنوان مفاوضات ابن وحشية مع أبي جعفر الأموي وسلامة بن سليمان الأخميمي في الصنعة والسحر.. ولكن أياً من هؤلاء الثلاثة لم يعرف. بينما تنسب آثار عديدة لعثمان بن سويد ..فإن أياً من تلك الآثار

(1) المصدر السابق ،ص268 .
(2) نفسه ،ص268 .
(3) ابن النديم ، الفهرست ،ص372 .
(4) المصدر السابق ،ص424 .

لم يعثر عليه .)[1].

ويتضح من القول السابق السعي الحثيث إلي نفي كل ماله صلة بابن وحشية ويثبت وجوده بما في ذلك نفي من عاصره وذكرته كتابات من عاصرهم وهو ابن النديم .ومع أن غير ابن النديم من العلماء قد ذكر آثار ابن سويد العلمية إلا أن حجتهم كانت عدم عثورهم على أي من مؤلفاته في عصرنا الراهن ، ولهؤلاء نقول متى قد كان فقد آثار العلماء والشعراء والمفكرين نافية لوجودهم مع وجود ترجمات لهم من قبل معاصريهم ومن تلاهم تثبت أنهم قاموا بهذه الأعمال وكانت تعد في فترات زمنية سابقة من المراجع والمصادر التي تستقى منها المعرفة لأجيال وأجيال فكيف يتأتى لنا نحن المتأخرين أن ننفي وجود هؤلاء من منطلق فقد آثارهم التي يمكن أن تكون قد اختفت وتوقف الاهتمام بها لفقدها أهميتها نتيجة للتقدم العلمي عبر العصور ،أو لظهور مؤلفات استوعبت مؤلفات المتقدمين وإبداعاتهم وغدت هي المصدر البديل عنها فأغنت عنها من ناحية وأدت إلى عدم نسخها واندثارها ، كما لا يخلو الأمر من حدوث كوارث طبيعية كالفيضانات والزلازل ، أو الكوارث الناتجة عن الحروب كالاجتياح المغولي لشرق الدولة الإسلامية قديما والاجتياح الأمريكي لبغداد في وقتنا الحاضر مما يؤدي إلى فقد وضياع عشرات الآثار العلمية ،وإذا نقبنا عن المؤلفات التي اندثرت وذكر أصحابها لاحتجنا إلى عشرات المجلدات ليس في القديم فحسب بل وإلى عصرنا الراهن ، وبهذا تسقط هذه الحجة لأنها تفتقر إلى سند قوي يدعمها ويؤكد صحة وسلامة المرتكز الذي قامت عليه .

ومن أجل مزيد من إلقاء ظلال الشك حول ابن وحشية ،سعى هؤلاء إلى التنقيب عما افترضوه ماضياً لأسرة أبي طالب أحمد بن الحسين الزيات وذلك بالربط بينه وبين محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً للمعتصم والواثق ثم لبعض الوقت للمتوكل الذي قتله عام(233 هـ/847 م) بتهمة الزندقة ، وأتى الربط بين الطرفين هنا على فرضية أن الجد الثالث لأبي طالب هو الوزير المذكور ولم يذكر هذا ابن النديم ولا غيره وقد ترجم للوزير دون أن يشير إلى علاقته بأبي طالب، وتكرر الأمر نفسه عند ما ذكر أبي طالب ولم يشر إلى الوزير ولو كان بين الطرفين رابطة من قرابة لتمت الإشارة إليها نتيجة لشهرة الوزير المذكور وعنايته بالثقافة والأدب جرياً على ما اعتاد عليه كُتّاب تلك العصور.ولكن توجُّه من سعوا إلى هذا الربط هدفوا من ورائه تحقيق مآرب أبعد من ذلك وبنوها على احتمالات وفرضيات استقوها من ماضي أسرة ابن الزيات الوزير، وليس من النزر اليسير الذي ذكر عن تلميذ ابن وحشية راوي أعماله ومن ثم تم الجمع بين الاثنين للتشكيك بماضي هذا التلميذ ليس إلا ،وهو أمر يدل على مجانبة للحق وسعي وراء سراب لا تؤيده الدلائل الملموسة في إنكار وجود ابن وحشية وتلميذه .وإليكم ما قالوه ونقله محمد علي مولوي: (..ومن المحتمل أن يكون محمد بن عبد الملك الزيات الموجود في شجرة نسبه _أبي طالب _ هو وزير المعتصم والواثق الذي كان لفترة وزير المتوكل أيضا وقتل أخيراً بأمر منه(233هـ / /847م). وعلى هذا يكون ابن الزيات منحدرا من أسرة كانت لها منذ القدم ميول شيعية اعتزالية .كما يحتمل البعض وجود مراجع قديمة باللغة السريانية لدى هذه الأسرة ..إن ماضي أسرة ابن الزيات وكذلك وجود بعض العناصر المشابهة لآراء المعتزلة والشيعة في الآثار المنسوبة لابن وحشية في التاريخ ،يطرح هذا الاحتمال أيضاً، وهو إمكانية كون المؤلف الحقيقي للآثار

(1) محمد مولوي ،ابن وحشية ،دائرة المعارف ،ص268 .

النبطية هو ابن الزيات نفسه ..)[1].

إننا لنحار في فهم ما ورد أعلاه من احتمالات وفرضيات لا يربط بينها رابط. فما العلاقة بين الميول الشيعية المعتزلية لأسرة ابن الزيات (الوزير) واحتمال وجود كتب سريانية قديمة لديها، هذا فيما إذا فرضنا وجود هذه الكتب أصلاً، وعلاقة كل ذلك بالفكر الذي قيل أن ابن وحشية سعى إلى إبرازه وهو الفكر الوثني للبابليين القدماء، كما أن أبي طالب أحمد ابن الحسين الزيات ما دافعه إلى إبراز هذا التراث الوثني للكسدانيين وهو ليس من الأنباط كابن وحشية، وما علاقة كل هذا بأبي طالب وبالشيعة والمعتزلة؟ وما الذي سعى إليه هذا الرجل ليمرره لصالح الفكر الشيعي المعتزلي من خلال وعبر كتب ابن وحشية التي اختلقها حسب قولهم ، بينما كتب ابن وحشية تمجد الفكر والتراث النبطي ولا يذكر فيها مطلقاً ماله علاقة بالشيعة، كما أن ابن النديم ذكر بأن ابن وحشية (صوفي) والصوفية كما هو معروف من السُّنَّة وليسو من الشيعة .وكل ما نخلص إليه هو سعي هؤلاء إلى حجب الحقيقة بالمغالطات ولو لجاءوا في سبيل ذلك إلى حجج واهية من النوع المذكور أعلاه، مدعين البحث عن الحقيقة وهم الساعون إلى طمسها ، ونحن نعذرهم في ذلك لما سيتكشف من أسباب سنأتي عليها في موضعها من البحث .

وعند تناولهم لمكان إقامة ابن وحشية سعى البعض إلى ادعاء أنه كان يقيم في بغداد (كان ابن وحشية حسب ادعاء بعض المصادر يسكن بغداد ،واشتهر بالتنبؤ بواسطة التنجيم وأخذ الطالع ومعالجة المرضى بالطلاسم والتعاويذ والرقي /حمارنة، 118 ، 117)[2].وكان المقصود من نسبه إلى بغداد القول بعدم ورود ذكره في كتابات محمد بن زكريا الرازي ، الذي أقام لبعض الوقت في بغداد .بينما نجد محل إقامته الذي ذكر قرين اسمه ونسب إليه في كتاب(الفلاحة النبطية) أتى على الصورة الآتية في أول صفحة منه(هذا كتاب الفلاحة النبطية ،نقله من لسان الكسدانيين إلى العربية أبوبكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني القسيني ،المعروف بابن وحشية) فهو من هذا المنظور منسوب إلى قومه النبط الكسدانيين من جانب ومنسوب إلي مكان إقامته (قُسِّين) ،وتبدو الصورة أكثر جلاء فيما أورده ابن النديم في الفهرست في المقالة الثامنة حيث ذكر(.. هو أبو بكر أحمد بن علي المختار بن عبد الكريم بن جرثيا بن بدنيا بن برناطيا (برطانيا) ابن علاطيا الكسداني الصوفي ،من أهل قُسِّين..)[3] .وذكر ياقوت الحموي قسِّين في (معجم البلدان) بقوله (قسين :بالضم ثم الكسر والتشديد وياء مثناة من تحت ونون: كورة من نواحي الكوفة .) ، ومعنى الكورة هنا المكان الذي تجتمع فيه المساكن والقرى .وذكره أيضا ابن النديم في المقالة العاشرة بأنه (..من أهل جنبلاء وقسين)[4] .وذكر ياقوت الحموي جُنْبُلاَء في المعجم قائلاً(جنبلاء: بضمتين وثانيه ساكن وهو ممدود .كورة وبليد وهو منزل بين واسط والكوفة منه إلى قناطر بني دارا إلى واسط) ،وقول ابن النديم وتعريف ياقوت للموضعين يدل بدقة على أنهما يقعان بقرب بعض في ناحية قريبة من مدينة الكوفة . وبهذا نكون قد تعرفنا على الموطن الذي كان يقيم وينسب إليه ابن وحشية ،بما لا يدع مجالاً للشك فيه ،فقد ورد ذكره من قبله وأكد ذلك ابن النديم ،وذكره ياقوت الحموي كموضع تابع للكوفة من بلاد العراق .

وعوداً على ذي بدء كيف نستطيع القول

(1) مولوي ،ابن وحشية ،دائرة المعارف ،ص268 .
(2) المصدر السابق ، 268 .
(3) أبن النديم ،الفهرست ،ص 372 .
(4) المصدر السابق ،ص423 .

بعد كافة الحقائق التي أوردناها فيما سبق من أن ابن وحشية شخصية غير معروفة.، ويكتنف حياته الغموض.، وشخصية وهمية اختلقها ابن الزيات ..الخ من التقولات التي أثبتنا تهافتها. وسقوطها .

أما ما ذكره ابن النديم في المقالة الثامنة من أن ابن وحشية (..صوفي...وكان يدعي انه ساحر يعمل أعمال الطلسمات ويعمل الصنعة ..)[1].فيمكن تفسير ذلك على أساس إما التباس ما كان يمارسه من تجارب في مجال علم الكيمياء(الصنعة) ، على من كانوا يشاهدونه، وكثيراً ما نجد في كتب التراث العربي أناساً من الكيميائيين رموا بممارسة السحر وتعرضوا للأذى والسجن بسبب ذلك ، أو لأن بعض أصحاب الطرق الصوفية كان من المعروف عنهم جمعهم بين التصوف ومعالجة الأمراض بالرقي واطلاعهم على كتب السحر وممارسته، وكذلك على كتب الفلك والطالع ، وما زال الكثير من أصحاب الطرق الصوفية في اليمن وغيرها إلى يومنا هذا معروف عنهم هذه الأمور، فكان أن حسب ابن وحشية على الصوفية وهو ليس منهم بدليل هجومه العنيف عليهم في كتاب الفلاحة النبطية .وهناك احتمال كبير يمكن أن يفسر على ضوئه قول ابن النديم ،وكذلك تلميذه ابن الزيات الذي قال عنه أنه من السالكين في طريقة المتصوفة لما شاهداه في سلوكه من تعفف وانشغال عن أمور الدنيا بتحصيل العلم والعزوف عما عداه وهي من المسلكيات التي تميز خيار الأمة من صوفية وغيرهم .

أما القول بأنه ساحر فربما يعود ذلك إن لم يكن من المؤكد إلى ما ألفه من كتب في هذا المضمار وإلى ما ترجمه منها عن الكسدانيين مما جعله مرجعية في هذا الميدان للعاملين والمهتمين بعلم السحر والفلك والطالع .

واستكمالاً لملامح شخصية ابن وحشية من آثاره الثقافية وخاصة من كتاب (الفلاحة النبطية) ننقل ما ذكره عنه محمد علي مولوي حيث قال: (ملامح شخصية ابن وحشية في الآثار المنسوبة إليه :يتجلى ابن وحشية في آثاره وخاصة في الفلاحة النبطية بشكل مسلم ملتزم .ففي بداية هذا الكتاب ،وكذلك في البعض الآخر من آثاره وبعد ذكره اسم الله ،يصلي على نبي الإسلام(ص) وآله وصحبه كما يستشهد بالقرآن.وفي ختام كل جزء من الفلاحة يشكر الله ويكرر صلاته على نبي الإسلام (ص) وآله وصحبه.ويقول في موضع :((لقد منّ الله تعالى علينا بمعرفته وبالتوحيد على يدي أكرم خلقه)).كما يشير هنا أيضاً باستخدامه بعض كلمات القرآن(النور 24 /55) إلى وعد الله للنبي (ص) بانتصار أُمة الإسلام على جميع الأمم في وقت كان فيه عدد المسلمين قليلا جداً ،وكذلك إلى تحقق ذلك الوعد ،واعتبر هذه الحقيقة أعظم آية وأفضل دليل على صحة نبوة النبي (ص) ..)[2].

ونحن لا نشك مطلقاً في أن ابن وحشية مسلم ملتزم ، ولكنا نحس بأن آثاره العلمية التي نقلها بحرفيتها من كتب البابليين القدماء وتتضمن ما كانوا يعتقدونه في زمنهم من آلهة وثنية ويمجدونها هو ما قاد البعض إلى النظر إليه بعين الريبة مع أنه في حياته ،وبعد وفاته لم نطلع على مصدر يشكك في إسلامه إذ استثنينا ما رماه به العالم والحبر اليهودي(موسى بن ميمون الإسرائيلي القرطبي) الذي قال بأنه من الصابئة ، ودافع ابن ميمون إلى هذا معروف سنأتي عليه فيما بعد .

لقد تأثر الباحثون العرب والمسلمون المحدثون الذين تناولوا أعمال ابن وحشية أو كتبوا عنه أو حققوا بعض أعماله بمن سبقهم

---

(1) نفسه ،ص372 .

(2) مولوي ،ابن وحشية ،دائرة المعارف ،ص275 .

في الكتابة عنه من الباحثين والعلماء الأوربيين الغربيين الذين أخضعوا أعمال ابن وحشية وشخصيته لدراسات مكثفة ودقيقة ، ونتيجة للمكانة العلمية المرموقة لهؤلاء الباحثين والعلماء الغربيين فقد وقرت هيبتهم في نفوس من اطلع على أعمالهم ،فكانت كتابته إما مسايرة لهم فيما ذهبوا إليه ،أو محابية لهم ومنقولة عنهم ،والبعض منها بدلاً من الانتصاف لابن وحشية من منطلق البحث عن الحقيقة وليس التعصب دون وجه حق نجدها سارت ومن رؤية إسلامية إلى نسب ابن وحشية إلى توجه شعوبي قومي يحاول النيل من المسلمين من خلال قراءة ما ورد في كتاب الفلاحة النبطية من أفكار منسوبة للمفكرين الكسدانيين التي كانوا يرونها في زمنهم على الصورة التي ترجمها ابن وحشية ،ولكون هؤلاء قد اقتنعوا بأن ما ورد في الفلاحة النبطية هي من بنات أفكار ابن وحشية وتلميذه ابن الزيات فقد قاموا بنقدها دون تحفظ وقارنوها بأفكار علماء الكلام المسلمين ،وهذا كما هو واضح أمر لا علاقة له بعلم الكلام الإسلامي ولا بأفكار ابن وحشية وإنما أتى بناء على إسقاط أفكار (قوثامى) البابلي التي ترجمها ابن وحشية ونسبها إلى الأخير ،وكانت النتيجة النهائية لهذا الجهد توصُل مولوي إلى تجهيل ابن وحشية وتلميذه ابن الزيات في مجال علم الكلام وذلك عند تناوله أقوال (قوثامى) وليس أقوال ابن وحشية الذي لم يكن معنيا على الإطلاق بما ذهب إليه محمد علي مولوي[1] .

وهكذا غدا ابن وحشية عرضة لسهام النقد والتشكيك من كل صوب، كل يبني على أفكار من سبقه ويجتهد أن يأتي بجديد ليصب المزيد من السلبية على بعض أوكل أعمال ابن وحشية ، ورغم كل الجهود التي بذلت من قبل الجميع، فإنهم جميعا قد تركوا وراءهم ثغرات بينة لم يتمكنوا من سدها وبقى ابن وحشية وأعماله عصيين وسامقين تتعثر في أذيالهما كل السبل التي اتبعوها للنيل منهما .

لقد حظي كتاب (الفلاحة النبطية) باهتمام واسع من قبل المستشرقين الأوربيين في القرن التاسع عشر ، ولكونه مترجما عن السريانية ومنسوبا تأليفه لثلاثة من العلماء البابليين فقد عني المستشرقون بزمن تأليفه (..ففي 1835 م اعتبر كاترمير أن أصل الفلاحة يعود إلى عهد نبوخذنصر الثاني 605 _562 ق.م..وفي 1856م اعتبر إرنست ماير زمن تأليفه يقع مابين القرن 1 _ 3 م ..وفي سنة 1857 م اعتبر إيفالد ودون إبداء رأي قاطع بشأن تاريخ تأليف الفلاحة أنه كتاب قديم نسبيا وذو أصل نبطي ..وفي سنة 1859 م طرح خولسون أعجب رأي بشأن تاريخ هذا الكتاب ،حيث أعلن أن آخر تحرير لأصل هذا الكتاب يعود للقرن 14 ق.م بل وإلى أقدم من ذلك .فهو يعتقد أن سلالة الملوك الكنعانيين في بابل الذين ذكرهم قوثامى هم أنفسهم الأسرة العربية التي كانت تحكم بابل من 1518 _1273 ق.م ..ويرى خولسون أن ادعاء ابن وحشية بشان ازدهار ثقافة البابليين (النبط)في عصر تأليف هذا الكتاب هو ادعاء صحيح وخاصة أن الازدهار يعود للفترة التي لم يكن اليونانيون فيها قد تعرفوا بعد وبشكل جيد إلى مبادئ المعرفة ..ويبدي خولسون رأيه في مضمون الفلاحة على النحو الآتي في الوقت الذي يشكل كتاب تنكلوشا البابلي صندوقا مملوءاً بالأحجار الكريمة وأنواع اللآلئ ،استخرجت منه القليل ،فإن كتاب الفلاحة جبل مشحون بالذهب والفضة والأحجار النادرة التي تركتها دون أن ألمسها واكتفيت بنقب عدة ثقوب في ذلك الجبل ..)[2].

ومما سبق يكون أربعة من المستشرقين قد أجمعوا على قدم كتاب الفلاحة وأعادوا

(1) نفسه ،ص276 .

(2) نفسه ،ص273 .

زمن تأليفه إلى أزمنة مختلفة من عهد ازدهار الحضارة البابلية ، وواحد منهم وهو (إرنست ماير) أرجع تاريخ تأليفه إلى

ما بين القرن الأول والثالث الميلادي تعصباً منه للثقافة اليونانية والرومانية وكان مبرره في ذلك وجود تأثير للثقافة اليونانية والرومانية في كتاب الفلاحة ،وهذا الإدعاء أمر عجيب إذا قارناه بالرأي المنصف لخولسون الذي أشار إلى أن فترة تأليف كتاب الفلاحة ظهرت قبل تعرف اليونانيين على مبادئ المعرفة ،فلماذا لا يكون والحال هذه أن اليونان والرومان قد تأثروا بالثقافة الزراعية للبابليين لكونها الأقدم والأكثر تأثيرا في منطقة الشرق الأوسط وليس العكس ولهذا ظهرت في مؤلفاتهم الزراعية بما في ذلك كتاب (ديسقوريدس) الذي استشهد به ماير كأحد أبرز المؤلفات اليونانية في حقل الزراعة والذي يشبه في توجهه العام كتاب الفلاحة النبطية ، علما بأن العديد من مفكري اليونان قد رحلوا من بلادهم إلى مصر للدراسة وتلقي العلوم على أيدي المصريين ومن ثم عادوا إلى اليونان ليصبحوا من كبار مفكريها وفلاسفتها ،ولا يمكن لأحد أن ينكر التواصل الحضاري بين حضارة بلاد الرافدين والحضارة الفرعونية فيما قبل ظهور الحضارة اليونانية بزمن طويل .

من الواضح أن رأي خولسون في إعادة زمن تأليف كتاب الفلاحة النبطية إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وربما حسب قوله إلى زمن أقدم من ذلك قد شكل مصيبة كبرى للمعجبين بالثقافة والتراث اليوناني والروماني وربما كان الأمر أشد وطأة على التلموديين لأن زمن ظهور النبي (موسى عليه السلام) ووفاته ترجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فيكون في هذه الحال زمن الفلاحة النبطية أقدم من زمن ظهور التوراة أما رأي (كاتريمير) فقد أعاد زمن تأليف كتاب الفلاحة النبطية إلى عهد الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني الذي عاش من سنة 605 _ 562 ق.م ،وهو الذي دمر أورشليم (القدس) وسبى اليهود عام 658 ق.م ومن المعروف أن (تلمود أورشليم _ أوجمارا_ ومعناه أرض إسرائيل) نتيجة للظروف الصعبة التي عاشها اليهود ظل ناقصاً لم يكتمل ومن هنا تواصل العمل لإكماله من قبل الواقعين تحت السبي في بابل فنتج عن عملهم هذا (تلمود بابل)وهو التفسير البابلي اليهودي للمشناه وهي القوانين الشفوية لليهود ،وقد تشكل من جماع الثلاثة (تلمود أورشليم ،والمشناه ،وتلمود بابل) والشروحات التي أتت فيما بعد لعدد من علماء اليهود ،شكلت (التلمود الكامل) الذي يحتوي على 63 كتابا فيما مجموعه 524 فصلا .

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نفهم الحملة الشديدة على أعمال ابن وحشية ومنها كتاب الفلاحة النبطية لأنها تقدم فرضية وجود أعمال مكتوبة أقدم من الكتاب المقدس (العهد القديم) الذي يعتمده مؤرخو الغرب وعلماء الآثار كأقدم مصدر في دراساتهم لكل ما يتعلق بشئون التاريخ وعلم الآثار في كل ما يمس الحضارات في منطقة الشرق الأوسط بدرجة أساسية ، كما أنهم وبناء على الوقائع الواردة في الكتاب المقدس يجدونه المدخل المناسب لوضع الحضارة الإغريقية والرومانية في مصاف حضارة بلاد الرافدين والحضارة الفرعونية .

ويمكن لنا أن نفهم مما سنورده بعد هذا من ردود ومناقشات حول كتاب الفلاحة النبطية وصولا إلى نفي وجود ابن وحشية وغيره من الأفكار بأنه أتى كرد فعل على ما ذهب إليه كل من (خولسون وكاترمير و إيفالد ودون) وما يحويه كتاب الفلاحة النبطية والكتب الأخرى المترجمة عن كتب البابليين القدماء من علوم رفيعة توحي بتقدم علمي وسبق حضاري مدهش.

لقد قام محمد علي مولوي بجمع كل ما كتب من ردود فعل على النظريات القائلة بأصالة وقدم الآثار التي ترجمها ابن وحشية ،وهي ردود

يمكن النظر إليها على ضوء ما نزل بأصحابها من فاجعة كبرى تجعل هذا التراث المشرق أكثر قدما من ظهور موسى عليه السلام ومن التراث اليوناني والروماني ، فكان لابد لهم من مواجهته ولو بلي عنق الحقائق واستخدام كافة المناهج والعلوم لإسكات القائلين بهذا القدم وإليكم ما ذكره مولوي بهذا الخصوص وهو أيضا يرى مع هؤلاء أن التاريخ الزمني الذي أتى به خولسون غير صحيح :

(..نشرت عدة دراسات مهمة في المجلات العلمية بأوروبا لدحض النظريات القائلة بأصالة آثار ابن وحشية وخاصة نظرية خولسون المبالغ فيها بشأن تاريخ تأليف الفلاحة :

في سنة 1860 م أعلن إرنست رينان أنه لايمكن للفلاحة أن يكون قد ألف قبل القرن 6 م ،وهو يرى أن جميع الكتب التي يدعي ابن وحشية ترجمتها ذات خصائص متماثلة وتعكس ظروفاً وأوضاعاً اجتماعية متشابهة وفي سنة 1861 م استنتج ألفرد فون غوتشمند في مقالة له تقع في 110 صفحات أن ادعاء ابن وحشية بحصوله على كتب قديمة باللغة النبطية وترجمتها ،إدعاء غير صحيح إطلاقا وقد بحث بالتفصيل في هذه المقالة أربعة آثار منسوبة لابن وحشية هي الفلاحة النبطية والسموم وكتاب تنكلوشا وأسرار الشمس والقمر ،وتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذه الكتب لم تكن بأي شكل من الأشكال متقدمة على القرن 1 هجرية/7 م ،ومن المحتمل جداً أن تكون من تأليف ابن وحشية نفسه وتعود للقرن 3هـــجرية/ 9م

وقد اعتبر غوتشميد حتى اسمي ضغريث وقوثامى بسبب احتوائهما على حروف عربية خاصة ،مختلقين ، خاصة قوثامى المأخوذ من قثم (أو قثعم)الذي كان اسما متداولاً بين العرب ، وأشار إلى شخصين من أقارب النبي (ص) ممن يحملون هذا الاسم ..

وبسبب المديح المبالغ فيه الذي كاله خولسون لآثار ابن وحشية خاصة الفلاحة، صرح غوتشميد بالقول :رغم أنه لدى مقارنة هذه الكتابات بالتقاليد المندائية وتعاليم القرامطة ،يمكن الحصول على معلومات ملفتة للنظر بشأن الأوضاع الثقافية التاريخية والدينية في بابل خلال القرون الأولى من هيمنة المسلمين ، وربما أمكن أيضاً من خلال نقد مقارن اعتبار بعض أقسامه تعود إلى مصادر قبل الإسلام ،إلا أن هذه الكتابات لاقيمة لها إطلاقاً للتعرف إلى بابل القديمة.والخطأ الكبير في نظرية خولسون هو أنه لم يكن بإمكان ابن وحشية في القرن 3 هجرية /9م أن يدرك لغة كتاب كان قد ألف في القرن 14 ق .م وقد حاول خولسون مستندا إلى أن لغة الكتاب كانت اللغة القومية لابن وحشية ، وأن ابن وحشية كان على معرفة بلهجاتها المختلفة ، وكذلك استناداً إلى الثبات الخاص باللغات السامية على مرور الأيام ، واستشهاده بنماذج من الفهم السهل للشعر والنثر العربيين القديمين من قبل سكان الصحاري البسطاء ،حاول أن يبرهن أن هذا الاعتراض أمر لامسوغ له ، لكن غوتشميد أكد على اختلافين رئيسيين بين هلكما الحالتين : أحدهما أن معرفة العرب باللغة العربية القديمة ظلت مصانة بواسطة القراءة المستمرة للقرآن ،والآخر أن شبه الجزيرة العربية قد ظلت بمأمن من الاحتلال ،بينما اندثر الدين والأدب البابليان بسقوط دولة بابل ، ولم يبق من لغتهم شيء بعد الهيمنة الطويلة للإيرانيين واليونانيين والعرب على تلك المنطقة ..

وفي سنة 1875 م اعتبر ثيودور نولدكه ، وبعد إشارته إلى وجود انسجام تام بين أقسام الفلاحة ،وإلى أن هذا الأثر بأسره ،يعيد إلى الأذهان خصائص ثقافة العرب بعد معرفتهم لآثار اليونانيين ،وأن الكتاب يعود إلى أوائل القرن 4 هجرية /10 م . وعلى حد تعبيره فإن الآراء المتعلقة بالدين والدولة التي وردت في هذا الكتاب عربية تماما ، ومن الواضح بشكل جيد

أن المؤلف كان متأثراً بالأفكار الإسلامية فيما يتعلق بالوحي والغيب والعلاقة بين الأديان . وحتى لو لم تكن الشواهد الأخرى الدالة على اختلاق هذا الكتاب موجودة ،فإن ذلك لا يغير من أمر هذا الواقع شيئاً..وحسب رأيه فإنه يجب أن تطرح جانبا أيضا أية فكرة عن أصالة بعض أقسام هذا الكتاب . كما أيد كذلك رأي غوتشمند عن النزعات اللا إسلامية لمؤلف الفلاحة . والشيء الجديد في تقييم نولدكه هو اعتباره ابن الزيات وليس ابن وحشية مختلق هذه الآثار .وعلى حد تعبيره فإن ابن الزيات وفي سبيل إضفاء أهمية أكبر على آثاره ، وفي نفس الوقت إبعاد نفسه عن الاتهامات اللا مرغوبة بالاشتغال بالعلوم الغريبة بين المسلمين قام بنسب تلك الآثار إلى ابن وحشية بعد وفاته بوصفه أستاذاً مشهوراً للعلوم الغريبة .

وفي سنة 1895 م أعلن بروكلمان أن ابن وحشية سعى باستخدامه لأسلوب الشعوبيين إلى إثبات أن الثقافة البابلية القديمة أفضل من ثقافة العرب المنتصرين ،ولكن لما لم يكن على إلمام كاف بالثقافة البابلية القديمة ،فقد اختلق مواضيع وأضافها إلى المصادر اليونانية القليلة التي عرفها عن طريق الترجمة ،وأظهر هذا الكتاب إلى الوجود ،ونهض لمقاومة المعتقدات الإسلامية .واعتبر سنة 1937 م أن نولدكه كان على حق عندما رأى أن ابن الزيات هو المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب ..

وأخيراً وفي 1942 م أعلن باول كراوس أن ابن الزيات لم يكن مختلق الفلاحة وبقية الآثار النبطية فحسب بل وكان أيضا مختلق شخصية باسم ابن وحشية ..وتواصلت في نفس الوقت أيضا الجهود الهادفة إلى إعادة الاعتبار لابن وحشية وآثاره .فقد انتقد كل من فيدمان سنة 1922 م وبلسنر سنة 1928 م وبرغدولت سنة 1934 م رأي نولدكه وأكدوا على أهمية الفلاحة رغم إقرارهم بكونه مختلقا ، وأكد برغدولت خاصة أن هذا الكتاب لم يؤلف بواسطة ابن وحشية وحده وأن رأيه القائل أنه استفاد من مصادر أقدم لا يخلو من الحقيقة ..

وفي عام 1971 م أعلن سزكين بعد دراسته لآراء المستشرقين بشأن الفلاحة أن هذا الكتاب رغم كونه مختلقا فإنه_مثل نظائره من الكتب _ دُوِّن استناداً إلى مصادر قديمة ، وهو يعتقد أن تاريخ تأليفه يرجع إلى القرن 5 أو 6 م .وطبقا لرأيه فإنه إذا كان ابن وحشية هو مختلق الفلاحة وأنه كان يهدف من وراء كتابته إلى تحقيق أهداف سياسية وقومية من ذلك النوع الذي نسبه إليه غوتشميد ،فإن من الضروري أن يوجد انعكاس لأمثال هذه الأهداف في آثاره الأخرى أيضاً ، بينما لا تحتوي تلك الآثار على شيء من هذا القبيل .كما توجد في الفلاحة _إضافة للآراء التي يمكن أن تعتبر إشارات على أوضاع ومجريات العصر الإسلامي _ موضوعات أخرى أيضاً تجعل من غير المقبول استنتاج شيء كهذا منها . وهو يعتقد بصورة خاصة أن نظرية نولدكه التي يرى بموجبها أن ابن الزيات هو المختلق الحقيقي تؤدي إلى إبطال نظرية غوتشميد التي اعتقد نولدكه بصحتها . ويرى سزكين أنه إذا كان الهدف الرئيس من تأليف الفلاحة _بالشكل الذي يدعيه غوتشميد _هو الدفاع عن النبط ومقاومة المعتقدات الإسلامية ، فإنه لايوجد دافع كهذا لدى ابن الزيات ..)[1].

وقد ناقش محمد علي مولوي ماورد من آراء للمستشرقين بقوله (إن ما ورد آنفا هو خلاصة للنظريات التي خرج بها المستشرقون عن ابن وحشية وآثاره منذ القرن 19 م حتى الآن ،ويستنتج من مجمل هذه الدراسات وكذلك دراسة آثار ابن وحشية ،أن رأى خولسون القائل بقدم هذه الآثار غير صحيح ،كما أن الأدلة التي قدمها غوتشميد ونولدكه على اختلاقها

(1) محمد علي مولوي ،ابن وحشية ،دائرة المعارف ،ص273 ، 274 ، 275 .

في القرن 3هجرية /9 م هي الأخرى ليست قوية كذلك لم يقدم دليل قاطع على أن الشكوى من الضغوط الدينية ومعاملة الكنعانيين وأتباع شيث العدائية للكلدانيين هي إشارات إلى فرض العقيدة وملاحقة ذوي الأفكار الحرة في العصر العباسي . ومن جهة أخرى حين يكون بإمكان مؤلف الفلاحة أن يعلن عن عدم رضاه عن حكومة عصره وعن الظروف المعيشية للنبط من خلال مهاجمته الصريحة لأولئك الذين تجمعوا في بلاط الخلافة العباسية باسم الأطباء ،بل وحتى بإشارات مهينة لأولئك الخلفاء وضمن ذكره لاسم الخليفة المقتدر صراحة أو أن يدعي بشكل لا غموض فيه أفضلية العلماء النبط على المتكلمين المسلمين ،عند ذلك يبدو اللجوء إلى استخدام أسماء مستعارة لبلوغ تلك الأهداف _كما قال غوتشميد والآخرون _ أمراً غير ضروري .

إن قبول آراء المستشرقين الذين تدرجوا من ادعاء اختلاق هذه الآثار من قبل ابن وحشية إلى إنكار ابن وحشية نفسه أمر صعب للغاية . ويبدو أن افتراض كون ابن وحشية قد حصل من أسلافه على كتاب يعتقد النبط من أبناء عصره أن تاريخه يعود لآلاف السنين ،أمر غير خال من الصحة تماما . وإن ادعاءات بالعظمة كهذه من قبل أقوام مقهورين خاصة في زمن كانوا فيه عرضة للاحتقار الشديد أيضاً هي رد فعل طبيعي .)[1] .

ونحس ونحن نتتبع ما يبديه مولوي من أفكار في حق ابن وحشية بأنه يسير مع نفس الموجة التي ركبها المستشرقون ولكن هذه المرة من وجهة نظر إسلامية إيرانية ترى أن ابن وحشية كان يتعصب لقومه النبط الذين هم في المحصلة النهائية عراقيون ،كما أنه رغم النقد الذي وجهه إلى المستشرقين لم يبد وجهة نظر واضحة في المواضيع التي طرحوها في تناولهم لما ورد من أفكار في الفلاحة النبطية ،فقد اقتصرت أقواله أعلاه على إشارات مبهمة من نوع أنه يرى أن آراء خولسون في قدم آثار ابن وحشية غير صحيحة ،دون أن يقول لنا لماذا هي غير صحيحة؟! ،وكذلك في نقده للأدلة التي قدمها كل من غوتشميد ونولدكه والتي قال بأنها تفتقر إلى القوة ولم يقل لنا حجته في هذا الخصوص ،وكذلك قوله إنه من الصعوبة بمكان إنكار وجود ابن وحشية والقول باختلاق آثاره، تركه دون أن يبدي أي دفاع عن وجهة نظره هذه . وعند تناوله آثار ابن وحشية وخصوصا كتاب الفلاحة النبطية نجده يسير على هدى ما وجه من تقولات في حق ابن وحشية ممن سبقه من المستشرقين وأضاف إليها تعصبه ضد المديح الذي أبداه ابن وحشية لقومه النبط وتمجيده سبقهم العلمي على غيرهم من الشعوب ،ولم يرق هذا المديح لمولوي فصرح بتعصبه قائلا (..ومتى اعتبرنا ادعاء ابن وحشية ترجمة هذا الكتاب عن المصادر النبطية القديمة أو حتى تأليفه صحيحاً فلا بد من الإذعان بأنه قبل كل شيئ أقدم على ذلك لإثبات تفوق الثقافة والحضارة النبطيتين على جميع الحضارات التي جاءت بعدها ومنها الثقافة الإسلامية .فجميع مواضيع الكتاب حافلة بمدح النبطيين ((فيا لهؤلاء القوم ما كان أوفر عقولهم وأذكى قلوبهم وأحسن استنباطهم في كل العلوم... إن العلوم كلها للنبط هم استخرجوها كلها ،وما في أيدي الأمم منها فإنما هو من فضول ما جادوا به عليهم وفرقوه فيهم)) كما يلاحظ مديح للنبطيين في الآثار الأخرى المنسوبة لابن وحشية ..)[2].

إن هذه الحدية من قبل مولوي نحو ابن وحشية تعد غير مبررة خاصة إذا نظرنا إليها من زاوية السبق الذي حققه البابليين (النبط) في مجالات العلوم المختلفة ومن المعلوم أنها انتشرت

(1) نفس المصدر ،ص375 .

(2) نفسه ،ص270 .

عنهم شرقاً وغرباً لكونهم أصحاب السبق في التحضر والتمدن على الشعوب والمجتمعات الأخرى فما الضير إذا فخر ابن وحشية أو غيره بذلك . كما أن محمد علي مولوي يكون في غاية السرور عندما يأتي الحديث على بعض آثار ابن وحشية وأنها كما ادعى المستشرقون عبارة عن كتب يونانية ترجمت إلى الفارسية (البهلوية)وأن ابن وحشية أخذها عن الفارسية فمن ذلك (كتاب تنكلوشا البابلي في صور درج الفلك وما تدل عليه من أحوال المولودين) قال مولوي (.. ويرى خولسُن وضمن تصديقه لما ورد لدى ابن النديم والقفطي أن تنكلوشا من علماء بابل القدماء ، وأن عصره يعود للفترة التي كانت فيها بابل مزدهرة وكان اليونانيون يعبدون الأصنام .لكن توجد في حاشية لإحدى مخطوطات الترجمة الفارسية لكتاب تِنكلوشا (ورد في تاريخ التبري أن هذا الكتاب أُلف قبل الهجرة النبوية بثمانين سنة) .ونظرا إلى أن هذا التاريخ يعود إلى عهد أنوشروان وأن كتبا عديدة قد ترجمت بأمر منه من اللغات اليونانية وغيرها إلى البهلوية ، يمكن القبول بأن الأصل اليوناني للكتاب قد ترجم إلى البهلوية حوالي سنة 542 م، واعتبرت تلك الترجمة فيما بعد هي الأصل)[1].

ولكن ما أتى به مولوي بعد هذا أمر يدعو للعجب حيث قال (وطبقا لآراء بعض المحققين فإن تنكلوش أو تنكلوشا هو تصحيف لاسم توكرس اليوناني الذي كان قد ألف في القرن الأول الميلادي كتاباً في الصور النجوم ، وهو الكتاب الذي ترجم إلى البهلوية في عصر أنوشر وان ،كما ترجم إلى العربية في القرن الثاني الهجري . ونتيجة لصعوبات الخط البهلوي التي تجعل وقوع شتى أشكال التصحيف ممكنة فقد استبدل اسم توكرس باسم تنكلوش .أما ماعرف باسم كتاب تنكلوشا فهو بأكمله مختلق ولا علاقة له بكتاب توكرس ، وقد اندثر الكتاب ولم يبق منه سوى أقسام في كتاب المدخل الكبير لأبي معشر البلخي ،الفصل الأول المقالة السادسة ..)[2].

ويتضح من الفقرة السابقة التي أوردها مولوي بأنه ليُقَارب بين اسم توكرس اليوناني و اسم تنكلوشاَ البابلي أسماه (تنكلوش) وحذف الألف لتسهيل المقاربة بين السين الواردة في آخر اسم توكرس والشين الواردة في آخر اسم تنكلوش ،بينما لا توافقه في هذه المقاربة التي ذهب إليها كافة المصادر التي تورد اسمه وبصورة دائمة (تنكلوشا) بألف ممدودة بعد الشين ، كما أن مولوي في آخر حديثه يذهب إلى القول بأن كتاب تنكلوشا لا علاقة له بكتاب توكرس المترجم عن الفارسية ، وأن كتاب تنكلوشا المنسوب لابن وحشية مختلق و قد اندثر ولم يبق منه إلا ما نقله أبو معشر البلخي في كتابه .فيا ترى إلى ما هدف محمد مولوي فيما ذهب إليه من كل ماسبق ذكره ؟ وما أراده من دخل مدخله من المستشرقين ؟ أن الأمر بكله لا يعدو، من وجهة نظرنا،كونه نوعاً من العبث الذي لا يقود إلى نتيجة ذات فائدة أو دلالة ،خاصة وقد تبين في المحصلة النهائية أن كلا الكتابين ظلا منسوبين إلى صاحبيهما ولا علاقة لأحدهما بالآخر .

وينسب محمد مولوي إلى ابن وحشية الامتلاء بالشعور القومي المتعصب للنبط ولكن قراءة متأنية للفقرة التي سنوردها عنه تدل على أن مولوي نفسه متعصب لفارسيته رغم أنه مسلم فقد استفز لديه الشعور القومي ابن وحشية عندما نفى نسب بعض العقاقير الطبية للفرس ،وهذه الفقرة تدل على ذلك: (ويبلغ ابن وحشية أعلى درجات شعوره القومي حين يبدأ بوصف معجون يدعى الشليثا فيقول ((فإن النبط استنبطوه وركبوه ،وأكثر أطباء زماننا من

(1) نفسه ،ص269 .

(2) نفسه ،ص269، 270 .

النصارى لجهلهم ينسبونه إلى الفرس ويقولون هو لهم .فلولا الغباء و الغفلة لكان ينبغي أن يعلموا أنه للنبط من اسمه ،فإن شليثا اسم نبطي)) ، ثم يؤكد أنه لايهدف من كلامه هذا توجيه اللوم للفرس الذين يراهم أعلم الأمم وأعدلها ،وإنما كان ذلك من باب ضرورة معرفة فضل المتقدم ..)[1] . ولكون مولوي لا يملك أمام قول ابن وحشية ما يرد به عليه من إثبات أن اسم هذا المعجون أصله فارسي وليس نبطي فقد نقب عن قول آخر لابن وحشية ليشفي غله منه وهو قوله: (ورغم إظهار ابن وحشية حبه وهيامه بالنبط ومدحه لعلمهم وعلمائهم ،فقد تمنى في أحد المواضع اندثار الأسماء النبطية حيث قال : (الرازيانج اسمه بالنبطية برهليا ، إلا أنه في زماننا هذا الرازيانج الذي هو بلغة الفرس أشهر منه بالبرهليا ..ودع هذه الأسماء النبطية حتى تبيد وتمحى كما باد النبط وامتحوا ،فإن امتحاء لغتهم أهون من بوارهم وامتحائهم). إن هذا الكلام نابع من قريحة كئيبة لإنسان يرى قومه وقد ذلوا وثقافته القومية وقد ذهبت أدراج الرياح)[2].

وهذا دليل على أن كل من تناول ابن وحشية وآثاره له غرض ومقصد يتفق أو يتباين مع الآخرين وفقا للزاوية التي يتناوله منها فمنهم من استفزه جعل أثره المترجم عن النبط أقدم من الفكر الهليني والروماني ،وآخرين للقول بقدم آثاره على زمن شريعة موسى عليه السلام ، وغيرهم لعدم ذكرهم على الإطلاق لأن زمن تحضرهم كان متأخراً على الزمن الذي ظهرت فيه حضارة بلاد بابل بزمن طويل جدا وظهر على نمط تحضرهم تأثير حضارة بلاد ما بين النهرين وأعني بهؤلاء الفرس ، ويأتي بعض النقد والتحامل أيضا على ابن وحشية من خلال تضعيف دينه وأن توجهه كان يهدف إلى التعصب ضد الإسلام والمسلمين الذي كان هو وقومه يعيشون في كنفه ولم يشر أحد من الكتاب العرب والمسلمين في زمن ابن وحشية أو بعده إلى أنه قد نهض لمقاومة الفكر الإسلامي كما ذهب إلى ذلك (بروكلمان).

كما تلفت النظر الحيرة التي واجهت (ثيودور نولدكه) من الانسجام التام بين جميع أقسام كتاب الفلاحة النبطية ولكنه بدلا من اعترافه بقدم هذا الأثر نجده يعيد سبب هذا الانسجام إلى تأثر ثقافة العرب بما ترجموه من آثار اليونانيين ،كما رأى ما ورد من آراء متعلقة بالدين والدولة هي أفكار عربية وإسلامية ،ويبلغ قمة ضيقه من الفلاحة النبطية لعدم وجود شواهد تؤيده في نفي قدمه فيصرح بكل وضوح بأنه (..حتى لو لم تكن الشواهد الأخرى الدالة على اختلاق هذا الكتاب موجودة ،فإن ذلك لا يغير من أمر هذا الواقع شيئا) وحسب رأيه فإنه يجب أن تطرح جانباً أيضا أية فكرة عن أصالة بعض أقسام هذا الكتاب ويعد القول السابق أنموذجا للتعصب غير المبني على أسس علمية وبالنتيجة لا يقود إلى شيء نفيد منه . وقد وضح من التناقضات العديدة التي وردت في آراء وأفكار من خاضوا في شأن ابن وحشية وآثاره العلمية ومنها كتاب الفلاحة النبطية والمآخذ التي أوردوها على بعضهم البعض فيه كفاية للدلالة على التخبط الكبير الذي وقعوا وأوقعوا الآخرين معهم فيه .

لقد تناول (غوتشميد) فيما سبق كتاب الفلاحة النبطية بالنقد في معرض رده على ما ذهب إليه (خولسون) من القول بقدم آثار ابن وحشية ، وكان منه القول بأن ما ورد في الفلاحة النبطية من كتابات عن بابل القديمة هي متأتية من فكر إسلامي ،ومن هنا (..إن هذه الكتابات لا قيمة لها إطلاقاً للتعرف إلى بابل القديمة)[3].وردا منا على هذا القول سنثبت

(1) نفسه ،ص276 .

(2) نفسه ،ص276 .

(3) المصدر السابق ،ص274 .

بالدليل مما ورد في كتاب الفلاحة النبطية التفسير الصحيح والدقيق لبعض من مخلفات الحضارة البابلية (الكسدانية) ومنجزاتها والتي حار علماء الآثار إلى يومنا هذا في تفسير سبب وجودها بينما ورد تفسير دقيق لها في كتاب الفلاحة .

وبداية نقول إن الحضارة البابلية (الكسدانية) يرجع علماء الآثار تأريخها من القرن الثامن عشر إلى القرن الثاني عشر ق.م ،وقد وقف علماء الآثار حائرين أمام تلك التلال الضخمة والهائلة التي تشبه الجبال في تكوينها والتي شيدت من قوالب الآجر المحروق وأشهرها في عصرنا الموجودة في (عقرقوفا) ،وقد ورد ذكرها مع غيرها من التلال في كتاب الفلاحة النبطية وذلك عند تناول الاهتمام بالجانب الصحي لحياة الناس العاملين في الزراعة في بلاد بابل القديمة .

فنتيجة لأن بلاد بابل وبلاد والسواد أراضيها الزراعية مسطحة لا جبال فيها فإن مياه نهر الفرات ومياه الأمطار تركد في الأرض فتسبب أبخرة ثقيلة ورطوبة تضر بالنبات والحيوان وبالسكان العاملين في الزراعة ، وقد لاحظ البابليون القدماء ذلك وحفاظا على صحتهم وصحة الفلاحين (الأكرة) الذين يكدحون في العمل الزراعي قالوا في كتاب الفلاحة النبطية (.. أما التفضيل فهو أن يقال أي بقاع الضياع في كل جهة أوفق أن تبنى فيها منازل للأكرة لتصح أبدانهم فيها .فينبغي أن تكون القرية التي فيها المنازل المسكونة للأكرة المحتاج إليهم في الضياع في موضع عال ،أعلى ما في تلك الناحية ،إن كان فيها تلول أو عوال فلتتخذ المنازل عليها ،كما يعمل أهل مدينة عقرقوفا ،فأنهم لما عدموا التلول في أرضهم اتخذوا تلولا كثيرة بنوها وبنوا منازلهم فوقها ، وذلك أرادوا به جمع أمرين ،أحدهما أن العلو أصح وأسلم من الوهاد ،الثاني أنهم يشرفون على شجر ضياعهم ومزارعها من مواضع عالية ،فإنه أجدر أن يقفوا على ورود الحوادث الطارئة على النخل والشجر والزرع قبل أن يقوى ويستحكم)[1].

أما بقية الأسباب الموجبة لهذا العمل بما في ذلك تقنية بناء هذه التلال أو الزقورات فقد ورد تفسيرها على النحو الآتي : (فأما أهل الشام فإن لهم في ضياعهم جبالا يغرسون فيها أشجاراً ،وربما زرعوا عليها ،وكذلك أهل الجزيرة ،فيكون لهم فيها عوضاً من التلول ،بل يكون أوفق وأجود . وقد يطمون غياضا واسعة بالحجارة ثم يعلونها بالتراب فتصير كالجبال ، وهكذا يعمل أهل عقر قوفا في أصل تلالهم حتى تعلو ،ولما كانت الحجارة في هذا الإقليم قليلة جداً معوزة طبخوا اللبن حتى قام لهم مقام الحجارة ، واتخذوا منه التلول المرتفعة كما عمل أولئك الحجارة ، وربما اتخذ أهل عقرقوفا على بعض تلالهم وفي منازلهم فوق التلال أشجارا تشبه الأشجار البرية ،بل ربما غرسوا الأشجار البرية مثل الخلاف والأثل والطرفاء والسرو والصنوبر والحور والغرب والدلب وجميع ما أشبه هذه الأشجار ،يريدون بها أن يأخذوا منها أغصاناً وعروقاً يحولونها حتى تكبر في الأرض فيمكنهم أن يعملوا عليها غياضاً تكون أصولاً للتلول ، وذلك أنهم يظنوا أن هذه الأشجار البرية تحتاج في نباتها إلى المواضع اليابسة ،فاتخذوها فوق التلال التي هي كالجبال والبرابي في القشف والبعد عن الرطوبات ..)[2] .

وبعد فهل القول السابق يفيدنا في معرفة حياة الناس في زمن البابليين القدامى و يفسرلنا بعض من تقنياتهم وجوانب عدة من حياتهم واهتمامهم الفائق بالزراعة ،علما بأن التلال الآجورية في عقرقوفا يرجع علماء الآثار في عصرنا تاريخها إلى القرن 13 ق.م فهل من الصدفة أن يكون هذا التاريخ لتلال عقرقوفا والحديث عنها في كتاب الفلاحة النبطية

(1) ابن وحشية ، الفلاحة ،ج1 ،ص199 .
(2) نفسه ،ص200 .

الذي ترجمه ابن وحشية عن السريانية لغة الكسدانيين أو البابليين القدامى قد أتى اتفاقا دون أن يكون قائماً على أساس صحيح ،وربما إذا راجع علماء الآثار معلوماتهم عن تاريخ هذه التلال لكان تاريخها أقدم مما حددوه لها.

وإذا كان ابن وحشية كما ادعى البعض أنه مؤلف كتاب الفلاحة أو ابن الزيات كما ذهب البعض الآخر فهل كان عبقريا إلى الحد الذي يبلغ فيه ذهنه هذا المبلغ من الدقة في تتبع تاريخ وأزمنة بناء تلال الآجُر في عقرقوفا ليربط بينها وبين الفترة الزمنية التي كانت فيها حضارة بابل مزدهرة ، أم تراه كان يضع في ذهنه مسبقاً الجدل الذي سيدور حول كتابه بحيث تحوط للأمر فأتى بمثل هذه الأفكار ليدلل على قدم الكتاب الذي قام بترجمته ،كما أن شواهد عدة ترد في الكتاب تصب كلها في تناول شئون الزراعة وغيرها في بلاد العراق ومحيطها ولا ندري سببا في الربط بينها وبين كتابات المفكرين اليونان الذين ترد إشارات في مؤلفاتهم إلى الزراعة في المجتمعات الأخرى ، وقد أتينا هنا في الشاهد السابق بالقليل ليدل على الكثير الوارد في كتاب الفلاحة النبطية .كما أن بعض الأفكار الأخرى لا تستحق الأخذ والرد لأنها مبنية في أساسها على استنتاجات خاطئة ، وهدف العديد منها إلى الحيلولة دون نشر أعمال ابن وحشية لأن التشكيك في قدم وأصالة هذه الأعمال ثبطت همم العديد من العلماء في السعي إلى إخراجها ، وكان الرأي الذي أورده (توفيق فهد) مصيباً حين قال : (..فردود الفعل التي صدرت عن علماء ك(أرنست رينان) و(الفرد فون غوتشميد)و (تاودر نولدكه) وغيره قد ثبطت العزائم ..حتى إن عالماً مثل (فرانتس بول) كتب في مطلع هذا القرن في سياق حديثه عن (كتاب تنكلوشا) :((كذلك شأن كتابات ابن وحشية الأخرى الكثيرة الفائدة ،فهي لا تزال غير منشورة ،وستبقى على ذلك))[1] .

ومن الأدلة الأخرى على قدم الفلاحة النبطية العداء الشديد والهجوم العنيف الذي شنه الربي اليهودي موسى بن ميمون على ابن وحشية لأنه قد وردت في كتاب الفلاحة أفكار تخالف ما ورد في التوراة مما يوحي بأن العديد من الأفكار الواردة في التوراة هي تحريف لروايات كانت سائدة في ثقافة البابليين القدامى فكان أن نقلها اليهود الواقعين في الأسر البابلي وكيفوها لتتناسب مع المقاصد التي أرادوها منها مع العلم أن (التلمود البابلي) أخذ من علماء اليهود أمداً طويلاً ليظهر بصورته النهائية وليحل محل (تلمود أرشليم) فقد استمر العمل عليه تصحيحاً وتنقيحاً وشرحاً منذ عهد (رابينا) الذي عاش في بابل ومات بها سنة 499 م وحتى منتصف القرن السابع الميلادي وفي خلال هذه الفترة وبعدها انتشر التلمود البابلي بواسطة العلماء الكبار من اليهود إلى افريقيا الشمالية وأوربا. ولكون هذا التلمود كان بعد انتهائه كتاباً ضخماً _ 36 كتاباً تضم 524 فصلاً_ كما أن شروحه ومادته تعاني من الفوضى فقد كانت الحاجة تدعو إلى تيسير مادته لتسهل دراسته فكان أن تصدى لهذه المهمة الربي إسحاق بن يعقوب الفاسي سنة 1032 م فأصدر تلموداً مختصراً سماه(الأعراف) وبالعبرية (هالاخوت) وقد حذف منه المناقشات والشروح وحافظ على الجوانب العملية ولكن عمله هذا لم يكن منظما ولذا لم يكن ذا قيمة كبيرة .

ومن هنا تصدى موسى بن ميمون لهذه المهمة فكان أول من نشر عملاً تلمودياً منظماً تحت اسم (القانون اليهودي) وفي سنة 1180م أطلق بعده كتابه الشهير الموسوم ب(ميشناه توراة) ومعناه(إعادة القانون) ويسمى أيضاً (اليد القوية) وبالعبرية (اياد شازكاه) ويقع في أربعة

(1) توفيق فهد ،التمهيد لكتاب الفلاحة النبطية ،ص م7 .

مجلدات تضم 14 كتاباً تشتمل على(التلمود) بكامله، وأضاف إليه ابن ميمون رؤية فلسفية حاول فيها اشتراع قوانين وأحكام من عنده مما تسبب له بأن نبذه قومه اليهود دينياً وحكموا عليه بالموت ففر إلى مصر وتوفي فيها سنة 1205م

فقد سخر ابن ميمون مما ورد في كتاب الفلاحة النبطية من أقوال تتناول (آدم عليه السلام) وتقول بأنه ليس أقدم مخلوق وجد على الأرض بل كان عالماً واسع المعرفة أفاد البشرية بعلمه في مجالات عدة بما فيها مجال الزراعة إلى غير ذلك من الأفكار التي تخالف ما ورد في التوراة من قصة خلق آدم وحدوث العالم وعدم قدمه على عكس ما كان يراه البابليون القدامى وهو ما قام ابن وحشية بترجمته ومن هنا نسب ابن ميمون هذا القول لابن وحشية متهماً إياه بأنه من (الصابئة) وأن الصابئة اختلقوا هذه الرواية ليخلقوا في أذهان الجهلة من الناس فكرة قدم العالم ويجعلونهم يعتقدون أن القصة الموصوفة في التوراة هي تحريف لروايتهم[1] مع أن الجدل حول إثبات قدم العالم أو حدوثه لم يستطع المتكلمون وأصحاب الجدل والفلسفة أن يحسموه إلى اليوم ولكن ابن ميمون كان شديد التعصب لفكرة حدوث العالم ومن هنا برزت كثيراً في مؤلفاته.

ويتبن لنا مما سبق الأسباب الداعية لرجل تلمودي أن يدافع عن فكر هو أحد صناعه فلم ينسب هذا العمل للبابليين القدماء بل نسبه إلى ابن وحشية وشكك في عقيدته ومن هنا ظل ما قاله بن ميمون ـ الذي أصبح كتابه مع مرور الزمن التلمود المعتمد لدى اليهود بعد أن تم تخليصه من جميع القوانين القديمة التي غدت بغير فائدة وكذلك الأفكار الفلسفية لأبن ميمون ـ ظل له تأثيره عبر الزمن كما يفسر لنا هذا الجذر الأول الذي أتت منه أسباب العداء الشديد لكتاب الفلاحة النبطية وغيره من الكتب التي ترجمها ابن وحشية بما فيها معاداته هو من بعض المفكرين الذين سبق وذكرناهم والذين ذهبوا إلى التشكيك بوجود شخص ابن وحشية نفسه

ولاشك أن تأثير موسى بن ميمون في الوسط الإسلامي كطبيب وعالم مقرب من البلاط الفاطمي كان كبيراً ولاكننا نفتقر إلى دليل على وجود تأثير له في الفكر الباطني(الإسماعيلي) قاد إلى استبعاد ما ترجمه ابن وحشية من كتب بابلية أو نقدها من قبل علماء الإسماعلية بل نجد على العكس من ذلك، فالإسماعلية يعدون ابن وحشية واحداً من علمائهم وينسبونه إلى مذهبهم.مع أن ابن النديم لم يذكر ذلك ولم يشر إليه وذهب إلى نسبه إلى فئة الصوفية كما لم يذكره غيره، وفي اعتقادنا أن الإسماعلية بسعة مذهبهم وانفتاح رؤيتهم على الفكر الإنساني ونظرتهم إليه نظرة كونية كان هو المدخل الذي جعلهم ينسبون ابن وحشية إليهم لأنهم يقولون بواحدية المعرفة البشرية منذ بدايتها وإلى اليوم وأن أفكار الأمم والشعوب اتفقت أو اختلفت فهي تخرج من مشكاة واحدة وستظل كذلك ،ومن هنا يعدون تراث البشرية كلها دينياً كان أو وضعياً هو تراثهم.ويبدو ذلك جلياً في فكرهم وفي الرموز التي يستعملونها في كتبهم الفلسفية.

وتعرض ما ترجمه ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية عن من كتب عنهم مفكرو لأنباط القدماء(ينبوشاد وقوثامي) من أنبياء ورد ذكرهم في التوراة والقرآن تعرضت هذه الرؤية إلى مقارنة ونفي ونقد شديد لها وعلى أنها رؤية تسعى إلى التشكيك في صحة ما ورد في الكتب المقدسة، بينما لو نظرنا إليها من زاوية ما قام بترجمته ابن وحشية كما وجدها في كتب قدماء الأنباط لما أخذت بنفس الحساسية التي أخذت بها لأننا لو عرضناها وقارناها بما ورد في التوراة والقرآن الكريم لوجدنا أن هذه

(1) دائرة المعارف،م4،ص 272

الرؤية التي دونها قدماء الأنباط قد أوضحتها لنا الكتب المقدسة بما لا يدع مجالاً للشك فيها فمن ذلك قصة أبينا آدم عليه السلام وكذلك قصة نوح عليه السلام والطوفان وأيضاً قصة إبراهيم عليه السلام وقومه في بابل.

أما ما ترجمه ابن وحشية عن الأنباط القدماء (الكسدانيين) عن تفاصيل حياة هؤلاء الأنبياء والذين عاش بعضهم في بلاد العراق فهي تخالف في بعض تفاصيلها ما ورد في القرآن والتوراة، ولم يتناولها المفكرون العرب والمسلمون منذ زمن ابن وحشية وما تلاه من عصور بالنقد والتشكيك ولم يدر حولها حسب علمنا أي جدل ويرجع ذلك إلى سبب واحد هو أن هذه الأفكار أو الآراء كانت كذلك في الأزمنة القديمة التي دون فيها الكسدانيون هذه الكتب، كما أن ذكر العوالم الفلكية مثل(الشمس ، والقمر ، والزهرة ..) وغيرها على أنها آلهة كانت تقدس وتعبد ويُعتقد أنها كانت توحي لمبعوثيها من البشر بكثير من الأفكار والأعمال لم تجد اعتراضاً ولم تستدع سل سيف الكفر على ابن وحشية أو السعي إلى تدمير وإحراق أعماله ،لأن الناس نظروا إلى كل ذلك على أنه معتقد خاص بالقوم الذين ترجمت كتبهم إلى العربية ولا شأن لها بمعتقد من ترجمها أو بالزمن الذي ترجمت فيه لأن روح الإيمان والعقيدة الإسلامية الراسخة في صدور الناس في تلك الأزمنة وما تلاها لم تكن تبالي بما قيل قبل ظهور الإسلام انطلاقاً من الأثر القائل بأن (الإسلام يجب ما قبله) ومن هنا وحسب علمنا لم تدر معركة فكرية حول ما ورد في ثنايا كتاب الفلاحة النبطية من أفكار تخص البابليين القدماء سواء تطرقت إلى معتقداتهم الدينية وأوابدهم العقيدية، أو ما كان منها يذكر الأنبياء وما كانوا يرونهم، مع تقديرهم لهم واعتقادهم بنبوتهم وصلاحهم.

لقد ورد في (دائرة المعارف...م 4 ،ص 272) مانصه(أما رواية قوثامي عن وقائع رحلة آدم إلى إقليم الشمس جنوبي إقليم الهند ..فهي دون أدنى شك تصرف مثير للانتباه في نص العهد القديم. فهو يقول إن آدم أنبأنا أن هناك قوماً يعيشون حوالي إقليم الشمس لا يأكلون سوى اللحوم... وينمو هناك نبات الحنطة والشعير الذي يبلغ طول سيقانه ما يعادل قامة الرجل مرتين أو ثلاث، لكن سكان تلك البقعة لا ينتفعون من تلك الحنطة ولا الشعير بسبب وجود أفاع ضخام مجنحة ، أنفاسها قاتلة تأكل من الحنطة والشعير فتمنع الناس من الاقتراب من تلك السنابل... وقال آدم: فصنعت سهماً وقتلت عدة أفاع منها، بينما كانت تلك الأفاعي قبل ذلك لا تموت. وقد أدى وجود جثث الأفاعي المقتولة إلى إثارة الذعر لدى بقية الأفاعي... حينها حملتُ من تلك الحنطة وطحنتها، وصنعت تنوراً كبيراً، أعددت فيه الخبز وأكلت، ثم أكل القوم معي...ومنذ أصبحت الحنطة طعامهم،عقلوا...وكانوا قبل ذلك عراة لا حياء لهم،فأصبحوا بعد ذلك يستحيون من بعضهم. ثم علمتهم جمع القطن... وأخيراً عدت إلى وطني، مصطحباً معي كثيراً من الأشياء العجيبة التي كانت موجودة في تلك الأرض).

لقد وردت هذه الروية في كتاب الفلاحة النبطية، وقد قمت بتقليب الكتاب المقدس بعهده القديم بحثاً عن رحلة آدم إلى إقليم الشمس فلم أجد شيئاً من هذا القبيل فكل ما ورد في العهد القديم هو قصة خلق آدم إلى أن أخرج من الجنة وهبط إلى لأرض، فلا أدري من أين كان الاستنتاج القائل بأن ما ترجمه ابن وحشية في الفلاحة النبطية هو نقل بتصرف من نص العهد القديم..!؟

إن هذه الرواية وغيرها من الروايات بما في ذلك قول (قوثامى) (أن آدم كان نبياً ورسولا للقمر وكان داعية لمذهب عبادة الشمس والقمر وللقمر به عناية خاصة وقد علمه عن طريق الوحي أشياء لا يعلمها أي إنسان آخر.. ويقال أيضاً أن آدم قد حدد أسماء جميع

الأشياء)_ دائرة المعارف ، ص272_إلى جانب ما روي عن آدم من العجائب والقول في كتاب الفلاحة النبطية بأنه (آدمى) أو (آدم) ليس أول مخلوق إنساني عاش على الأرض بل بوصفه سمي أباً للبشر لأنه كان عالماً كبيراً استطاع بعلمه أن يعلم أهل زمانه كل العلوم التي كانوا يجهلونها بما في ذلك علوم الزراعة. إن كل ما ورد من سابق من روايات وغيرها من أفكار نبطية قديمة كانت تدل على أن هؤلاء القوم كانوا يؤمنون بقدم العالم وهو ما دفع الربي اليهودي ابن ميمون إلى السخرية مما ورد في كتاب الفلاحة النبطية واتهام ابن وحشية بأنه من الصابئة وأنهم اختلقوا كافة هذه الروايات ليدلسو بها على عقول الناس وليلقوا في روعهم مسألة قدم العالم وهو مالا تقول به الكتب السماوية.

أما عندما نأتي إلى تناول نوح عليه السلام وهو كان يعيش في بلاد العراق كما تجمع مختلف المصادر فلا نجد اختلافاً في الحديث عنه بين ما ورد في الكتب السماوية وما ورد في كتاب الفلاحة النبطية من أن نوحا كان نبياً مرسلاً إلى قومه ولكنهم عارضوه وكفروا بما أتى به وآذوه وأن الطوفان حصل في زمنه. ولم تتطرق الكتب السماوية إلى التفاصيل الخاصة بالبلاد التي أغرقها الطوفان مما جعل البعض يتبادر إلى ذهنه أن الطوفان عمّ الكرة الأرضية بينما ذُكر في كتاب الفلاحة النبطية أن الطوفان أغرق بلاد العراق وفارس والشام وبلاد الأناضول(الروم) وبعض بلاد اليونان.وهذا الأمر أكثر واقعية وصواباً لأنه يتماشى مع ما يحدث من ظواهر طبيعية وفلكية تصيب أجزاء من كرتنا الأرضية دون أجزاء أخرى كما أن علماء الآثار يؤكدون أن أخشاب السفينة التي وجدت على رأس جبل(أرارات)في تركيا هي أخشاب سفينة نوح التي نجا فيها ومن معه من الطوفان. وهذا القول يجعلنا أكثر قرباً من الحقيقة لأن تركيا قريبة من بلاد العراق التي كان منها نوح عليه السلام.

واستكمالاً لوجود الفوارق الملفتة للنظر بخصوص الأنبياء فيما بين ما ورد في الكتب السماوية وما ورد في الفلاحة النبطية نذكر قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام التي وردت في الفلاحة النبطية، وجاء ذكرها على خلفية ذكر شجرة كان البابليون القدماء يسمونها (شجرة إبراهيم) نسبة لأبي الأنبياء عليه السلام وقد ذكر في الفلاحة أن إبراهيم كان يعيش في إقليم بابل، وقد ورد في الأثر قول علي بن أبي طالب عليه السلام ما يؤكد صحة ذلك فقد سئل :من أين أنتم.؟ والمقصود من ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام فأجاب:(من كوثى). وكوثى من بلاد العراق وقد عرّفنا بها سابقاً. وذكر في الفلاحة النبطية أن إبراهيم :كان يعيش في بابل ، وحدث بينه وبين علماء بابل جدل حول تأثير الشمس على الظل فقال إبراهيم بعدم وجود تأثير للشمس في ذلك فحاولوا إقناعه بعدم صحة ما ذهب إليه فأصر على رأيه وجادلهم في ذلك جدالاً شديداً وانتشر الخبر في بابل فخاف الملك أن تنتشر مثل هذه الأفكار المخالفة لعقائد القوم منذ القدم فطلب من العلماء أن يقنعوا إبراهيم بما يرونه ، وأفرد لهم مكاناً في السجن لكي لا يخرج ما يتناولونه إلى الناس، فبقوا أياماً في السجن ولم يفلحوا في إقناع إبراهيم بوجهة نظرهم ورفضوا رأيه أيضاً، فما كان من الملك إلا أن طرد إبراهيم من بابل فساح في الأرض وزار بلاد الشام ومصر وبلاد العرب قبل أن يعود إلى بلاد العراق.

وكما هو ملاحظ لم يتطرق في كتاب الفلاحة النبطية إلى ما ورد في الكتاب المقدس أو القرآن من قصة إبراهيم، ولكن هذا القول السابق لا يعني أن هذا كل ما حدث لإبراهيم فقد وقع ما ذكر في الكتب السماوية لإبراهيم ولكن كتاب الفلاحة النبطية لم يكن معنياً بمناقشة أو ذكر قصة إبراهيم وخلافه مع قومه عبدة الكواكب والنجوم كما أن

من ألفوا كتاب الفلاحة النبطية كانوا من المؤمنين بعبادتها ومن هنا لابد أن يغفلوا ما حدث بينهم وبين إبراهيم من أمور تتطرق إلى عبادة الإله الواحد أو الله فذكروا جانب من القصة وأضربوا عن ذكر الجوانب الأخرى، وهذا يؤكد وبدليل قوي صحة الرأي القائل بقدم كتاب الفلاحة النبطية، وأن ما ورد عن إبراهيم في كتاب الفلاحة ليس بديلاً عما ورد في الكتب السماوية وإنما دليلاً إضافياً على صحة ما ورد في الكتب السماوية عن إبراهيم ، وأن من عاشوا الأحداث تعمدوا فيما بعد إلى إخفاء الحقيقة ، كما يقدم لنا ما ذكر آنفاً عن الأنبياء والفوارق بين هذه الروايات وبين ما ورد في الكتب السماوية أن ابن وحشية كان صادقاً وأميناً في ترجمة كتاب الفلاحة النبطية كما وجده ولم يبال ولم يخف من التفسيرات التي ستقال عنه بعد ظهور عمله، وهو ما شهدناه من جدل تناولنا بعضه فيما سبق من أوراق وقد وصل الأمر ببعض أبناء الأمة الإسلامية إلى التحسس من تناول الآثار العظيمة لابن وحشية أو إحياء آثاره والإشادة بذكره وهذا والله لغبن ما بعده غبن في حق رجل عظيم مثله.

حول رسالتي للدكتوراه:

في التراث والتاريخ اليمني

تعريف وإطلالة

أ/ عبدا للهعبدا للهالشماحي

لقد كان لثورة السادس والعشرين من سبتمبر وما تحمله من قيم إنسانية عظيمة والتي تتوجب بأن يحكم الشعب اليمني نفسه بنفسه بدون وصاية عليه من أحد كان لذلك أبلغ الأثر في نفسي وأنا أعد رسالتي للدكتوراه في التراث والتاريخ اليمني .

ولأني كنت في رسالتي أعمل من أجل تحقيق وإخراج نص مخطوط عن سيرة الإمام عبد الله بن حمزه أحد أئمة الزيدية الكبار، والذي كان له أثر كبير في فكر و تراث الزيدية بعده ، وجدت وبعد سنوات من البحث و التنقيب من أجل اخراج النص محققا كما كتبه الفقية حميد المحلي وجدت نفسي أمام مدرسة فكرية ذات طابع خاص لا بد من التوقف عنده وبدلا من تسليم النص الذي أنهيت تحقيقه إلى الجامعة التي أدرس بها لأنال درجة الدكتوراه قررت أن أواصل البحث في طبيعة وخلفية وتاريخ هذه المدرسة التي وجدت روحها في النص قوية و كنت أحسب أن الأمر لن يأخذ مني أكثر من فترة قصيرة لا تتعدى الأشهر القليلة لأنفض الغبار عن زيدية اليمن وأوضح معالمها .

فإذا بالأفكار تتوالى والبحث يتشعب لأتناول بالحديث زيدية المشرق في الجيل و الديلم وطبرستان ودورها في التأثير على زيدية اليمن عبر مرحلتين تاريخيتين رئيسيتين :الأولى في القرن الثالث الهجري بدخول الإمام الهادي يحيى بن الحسين إلى اليمن والثانية في القرن

السادس الهجري و دخول عدد من مؤلفات زيدية المشرق وتبنى إمامين من أئمة اليمن لأفكار وأطروحات تلك المؤلفات وهما الإمامان أحمد بن سليمان وعبد الله بن حمزة .

وعندما شارفت على تمام هذه التمديدة البحثية وجدت أن الأمر قد أخذ مني سنوات عدة إضافية وليست أشهر ،ووجدت أني قد أنجزت رسالة علمية أخرى إضافة إلى رسالتي العلمية الأولى وها أنا طوال الفترة التي قضيتها عندما وجدت أني قد أنجزت عملا فكريا وسبرت وأوضحت إشكالية في تاريخ التراث اليمني طالما سقطت في خضم نيرها الجماجم واستبيحت في ساحتها الحرمات وضاعت على عتباتها المصالح العليا للأمة .

إن الصراع على الساحة اليمنية عبر فترتها الإسلامية، هو صراع نفوذ مصالح في مجمله وصراع سياسي في مناخ أخر ،و هذا الصراع هو امتداد لبذوره التي اشتعلت في الفترة الإسلامية المبكرة بعد طي فترة العهد الراشدي .

إن مبادئ الإسلام العظيمة من إخاء ومساواة إنسانية وعدل قد ضرب بها عرض الحائط في أتون ذلك الصراع وكانت الشورى هي أولى تلك الضحايا .

إن الشورى لم تضع كونها شعارا يرفع عبر تاريخ الإسلام الطويل لكنه شعار أفرغ من محتواه في أتون ذلك الصراع السياسي وبالتالي فقد توقفت كل الآليات الحقيقية لتفعيل الشورى وجعلها ملموسة وممارسة في واقع المسلمين عبر تاريخهم .

ولكن هذا الصراع السياسي أو صراع المصالح ، نجده في فترة تالية من فترات تاريخ الإسلام يلبس ثوب الدين ويتمسح بأهداب الفضيلة ويقسم الأمة الواحدة إلى قسمين شيعة وسنة وتتعدد الأهواء والنوازع فإذا بأمة الإسلام الواحدة تتمحور حول تقسيمات غريبة بعيدة كل البعد عن مبادئ الإسلام العظيمة التي تدعو إلى لم الصفوف ونبذ الفرقة ، وإقامة العدل ، والمساواة الإنسانية.

لقد أدخل في دين الإسلام ما ليس منه من عقائد غريبة وتصورات شاذة و نوازع مغالية استنكرها حتى غير المسلمين من المهتمين بالدراسات العربية الإسلامية في الشرق أو الغرب أمثال براون (Browan) الإنجليزي ، وقوبنيو (Gobineau) الفرنسي ، ومادلونج (Madelung) الألماني وإسرائيل فرد ليندر (Israel Frielander) الأمريكي وفلاديمير أفانوا (Ivanow) الروسي ؛ وكان من أخطر العقائد والنظريات التي أقحمت في الساحة الإسلامية والتي كانت معروفة مشهورة قبل الإسلام في بلاد الهند وفارس،هي عقيدة ونظرية (الحق الإلهي) والتي ألبست وحولت الصراع على النفوذ والسلطة وشكله السياسي البحت ،والذي يخضع لنوازع البشر، حولته وألبسته ثوباً دينياً ؛ ومن خلال نظرية الحق الإلهي هذه إذا بنا أمام من يدعي أن الله أودع سره في سلالة خاصة من البشر اختارها من بين البشر لتكون فيها القيادة للبشرية في كل أمور الحياة ؛ ففي أفراد هذه السلالة تكون القيادة السياسية للأمة (الإمامة) والريادة الاجتماعية والمرجعية العلمية والدينية وما على كافة الأمة إلا اتباع هذه الطبقة المختارة والسلالة النبوية إذا أرادت الأمة الفوز بالجنة و النجاة من النار !!.

وإذا بعدد من افراد هذه السلالة يشعرون أنهم فوق البشر وأنهم في الرتبة العلوية لا يدانيهم أحد فإذا بهم يصدرون فتاوى الكفر على من لم يتبعهم ويحرمون زواج بناتهم من غيرهم ولا يقبلون اجتهاد العلماء ممن ليس من سلالتهم حتى ولو كان تابعا لهم ويرون سبي نساء وذراري المسلمين ممن خالفهم، أما الرجال فحلال سفك دمائهم وتخريب ديار من خالفهم وهدم مساجدهم و هدم مقابر مخالفيهم فهي مقابر كفار .

وهكذا يتحول الإسلام في نظر هؤلاء المتعالين إلى نزعة نازية لا تعترف بأية قيمة

لمن هو من غير سلالتهم . وهؤلاء المتعالون ومن لف معهم من الفقهاء ممن هم على أبواب عتباتهم مستعدون للي أعناق نصوص الوحي الإلهي حتى تتساير مع ادعاءاتهم فإذا بالنصوص تبتر من مواضعها ويستدل بها في غير مناسباتها غير مبالين بمخالفة نصوص إلهية ناصعة وأساليب عربية فصيحة ! .

والزيدية عبر تاريخها مدرسة مفتوحة لذوي العلم والمعرفة، الإجتهاد منهجها والاعتدال ديدنها والتبرؤ من الغلاة شعارها وتقويم المعوج نزعتها، مدرسة أدركت أن أساس الخلاف في الوسط الإسلامي عبر التاريخ الطويل لم يكن خلافاً دينياً وإنما هو سياسي أو من أجل النفوذ والسلطة، والزيدية في اليمن قد مثلت ذلك الدور الحضاري المتميز رافعة لواء الإسلام العظيم ومبادئه السمحة إلا أنه أصابها في فترات لاحقة من تاريخها ما عكر صفو اعتدالها ومنهاج اتزانها وكان للتسرب التدرجي لنظرية الحق الإلهي إلى أدبياتها كان لذلك أبلغ الأثر في تشوية صورتها إلا أن الله قيض من أوساطها من ذب عنها ادعاء المدعين ودس المندسين فقيض الله لها أعلاما أمثال نشوان بن سعيد الحميري والإمام يحيى بن حمزة ومحمد بن إبراهيم الوزير وصالح المقبلي والحسن الجلال ومحمد بن إسماعيل الأمير ومحمد بن علي الشوكاني فإذا بهؤلاء الأعلام وأمثالهم يحفظون للزيدية في اليمن اعتدالها ويحمونها من الوقوع في شباك الغلاة من الفرق والذين جعلوا من الزيدية أثرا بعد عين في بلاد المشرق في بلاد فارس وما جاورها.

إن حركة النضال والأحرار اليمنيين في العصر الحديث والتي توجت بثورة السادس والعشرين من سبتمبر 1962م (1382هـ) ما هي إلا امتداد لجهود المصلحين الأوائل عبر فترات التاريخ اليمني .

إن الثورة اليمنية وكما أكدت على ذلك في مقدمة بحثي كانت ضرورة حضارية لإيقاف عبثية سلالية كادت أن تعصف بالدين والأمة ولم تكن تلك الثورة السبتمبرية انقلابا عسكريا كما يحلو للبعض أن يصفها، ناسيا أو متناسيا حركة الشعوب وغضب الفئات المتنورة والمثقفة في الأمة والتي أجتمعت من كافة مناطق اليمن لتصنع يمناً جديدا حرا أبيا.

إن ما توصلت إليه رسالتي العلمية التي أنجزتها تكمن في أنها برأت الزيدية في اليمن من تلك الأفكار والنزعات التي انتسبت إليها في مراحل تاريخية متأخرة، كما أن الرسالة عموما أكدت على أهمية دعم كل الآليات التي تمهد إلى تفعيل مبدأ الشورى في المنطقة الإسلامية لأن هذا التفعيل شرط هام، لوضع أجل وحد للصراع السياسي في المنطقة الإسلامية، وبذا ينزع فتيل فتنة طالما كانت مطية لذوي الأهواء والأمزجة الغريبة و الطموحات غير المسئولة .

ولأن الثورة اليمنية لم تكن ثورة مدفع بل هي ثورة فكر ومبدأ فاحسب أن الكثير من الأفكار التي طرحتها في اطروحة الدكتوراه هي جزء أساسي في أدبيات الثورة اليمنية أفكار أشعر أنها من الأهمية بمكان أن تصل إلى أجيال الجمهورية اليمنية حتى يكون من خلالها التحصين الفكري لهذه الأجيال من عبث العابثين ومغالطات ذوي الأطروحات المؤدلجة والمفبركة .

والله من وراء القصد ......

أهل اليمن في مصر
إسهامهم في الفتوحات ودورهم السياسي من الفتح حتى نهاية العصر الأموي*

موضوع الأطروحة ينقسم بعد المقدمة وتحليل المصادر إلى تمهيد وأربعة فصول ومستخلص:

عرض التمهيد في لمحة تاريخية أوضاع مصر قبل الفتح العربي الإسلامي لها، حيث كان الشعب المصري يرزح تحت وطأة الاحتلال الروماني الذي أتسمت سياسته بالشدة والقسوة والاضطهاد، سواء من الناحية المالية أو السياسية أو الدينية.

وتناول الفصل الأول التعريف بالقبائل والعشائر اليمنية وفروعها في مصر وأماكن استقرارها، وكان التجمع الأكبر لهم في البداية في الفسطاط، فضلا عن الإسكندرية والجيزة ومناطق الصعيد وغيرها من المناطق.

د/عبدالرب الصنوي

وتناول الفصل الثاني دور اليمنيين في فتح مصر، وذلك منذ أن انطلقوا نحوها بعد فتح بلاد الشام أواخر عام 18هـ / 640 م مرورا بفتح مدنها وحصونها ومناطقها المختلفة حتى تحرير مدينة الإسكندرية التي كان الرومان قد عاودوا احتلالها سنة 25هـ / 645 م. وعدّد الفصل أسماء العشائر المختلفة التي أسهمت في تلك الفتوحات واشهر رجالها.

* أطروحة تقدم بها الباحث إلى معهد التاريخ العربي والتراث العلمي -بغداد، ونال عليها درجة الدكتوراه في التاريخ 2005.

أما الفصل الثالث فقد تتبع الدور نفسه لأهل اليمن في الفتوحات الإسلامية ولكن خارج مصر وانطلاقا منها . وشمل ذلك الشمال الإفريقي، أي بلاد المغرب التي تمتد من برقة إلى طنجة على المحيط الأطلسي، كما شمل دورهم في تأمين الحدود الشمالية وهي حدود بحرية مبيناً دورهم في قيام الأسطول وقيادة كثير من معاركه، والسيطرة على عدد من جزر البحر المتوسط، بعد أن كان الأسطول البيزنطي يشكل تهديدا خطيرا للوجود العربي الإسلامي في البلاد المفتوحة، وكذلك دورهم

في تأمين الحدود الجنوبية ومعاركهم مع قبائل النوبة التي توصل المسلمون آخر الأمر إلى عقد معاهدة صلح معها .

وتناول الفصل الرابع دورهم السياسي :

وتمثل في موقفهم من ولاة الخلفاء، ثم الخلفاء أنفسهم، فمنهم من وقف مع الخلافة ومنهم من وقف ضدها واستفحلت الأمور إلى اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، إذ اشترك بعض رجال العشائر اليمنية في عملية حصره وقتله.

وانسحب هذا الموقف إلي أن تقف بعض العشائر والجماعات كذلك مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان وخلفاء بني أميه بعده ، في حين وقفت عشائر وجماعات أخرى ضدهم .

وبيّن الفصل أيضا سياسة الولاة اليمنيين الذين حكموا مصر، فكان منهم ولاة يُعدّون مثالا طيبا للوالي المسلم ، ومنهم من هو عكس ذلك ، وكان لبعضهم اهتماما بالفتوحات وتوسيع رقعة الدولة.

وعرض المستخلص أهم ما توصل إليه البحث من نتائج .

وتم عرض قائمة بالمصادر والمراجع التي استندت إليها الدراسة ، كما زودت بمجموعة من الخرائط تبين مواطن استقرار العشائر اليمنية في مصر، فضلاً عن خرائط تبين سير بعض حملات الفتوحات .

كانت تلك الرحلة طويلة ، قصيرة مع العشائر اليمنية في مصر ؛ طويلة في تفاصيل أحداثها وقصيرة في أخذ العبرة منها وسنحاول أن نبسط القول عن استقرارهم وفتوحاتهم ودورهم السياسي فيما يأتي :

- يعود اتصال سكان شبة الجزيرة العربية بمصر إلى حقب التاريخ القديم وله أكثر من صورة تجارة ، هجرات محدودة ، فضلا عن الملاقات الرسمية.
- ومع الفتح الإسلامي استقرت جماعات العشائر اليمنية في مدن ومناطق مصر المختلفة ، وإن كانت منطقة استقرارهم الرئيسية في البداية هي الفسطاط تليها الإسكندرية ، والجيزة ، ومناطق الصعيد المختلفة لا سيما الحوف الشرقي وغيرها .
- عرفت الخطط - أي الأحياء - والأزقة بأسماء العشائر اليمنية أو أسماء أعلام من أهل اليمن ، ولا زال بعضها باقياً إلى اليوم. فضلا عن وجود شواهد قبور تبين استيطانهم منذ أيام الفتح كما في أسوان .
- الجماعات الصغيرة من العشائر كانت تتجمع مع بعضها فتؤلف تكتلاً واحداً مثل أهل الراية الذين كانوا من عشائر عدة : قحطانية وعدنانية وكذلك جماعة اللفيف كانوا من عشائر يمنية مختلفة .
- تعددت أماكن ارتباع العشائر في ريف مصر أي قضاء الربيع للراحة تسمين الدواب ، ووجد لبعض القبائل اليمنية أكثر من مكان للارتباع وهو ما يدل على كثرتها النسبية .
- كان أهل اليمن من أكثر القبائل العربية التي سكنت مصر ولذلك نجد مع بداية القرن الثاني الهجري قيام أحد الولاة باستئذان الخليفة في استقدام عدد من الجماعات القيسية في محاولة لتخفيض هذا الوضع من عدم التوازن فاشترط الخليفة أن لا ينزلهم في الفسطاط التي يشكل أهل اليمن جل سكانها لما قد يحدث من نزاعات فنزلوا في بلبيس .
- يلاحظ أن الفرع الكهلاني من العشائر اليمنية أكثر عدداً من الفرع الحميري .
- كان لكل قبيلة زعيم أو رئيس يطلق عليه اسم (عريف) له صلاحيات واسعة في تولي شؤونها .
- كان هناك مسئول عن تسجيل وإحصاء أفراد العشائر فهو يقوم بتسجيل الولادات والوفيات ومن دخل أو قدم على العشيرة

ويرفع تلك إلى سجل الديوان العام مما يشير إلى تنظيم إحصائي دقيق.

- قبل الفتح العربي الإسلامي كان المصريون يرزحون تحت وطأة الاحتلال الروماني الذي اتسمت سياسته بالشدة و القسوة فقد كان الرومان يجبون الضرائب الباهضة وتعددت أنواع تلك الضرائب حتى طالت دفن الموتى وأدى الاختلاف المذهبي بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة الأقباط المصريين إلى قيام الرومان باضطهاد المصريين لفرض مذهبهم ولتحقيق ذلك لجأوا إلى أشنع وسائل التعذيب والقتل.

- حينما دخل المسلمون فاتحين لمصر لم يقف المصريون إلى جانب الروم البيزنطيين بسبب ما عانوه منهم، وهو أمر أضعف قوة صمود الروم في وجه المسلمين.

- كان الجيش الفاتح لمصر يضم عددا من القادة الكبار من أهل اليمن كقائد المقدمة وغيرهم من قادة المدد.

- قام رجال العشائر اليمنية بالدور الرئيسي في عمليات الفتح ابتداء من المعارك لأولى سنة 19هـ / 640 م في الفرما حتى تحرير الاسكندرية سنة 25هـ / 645م نظرا لكثرتهم العددية في الجيش فكان السميفع بن وعلة السبئي أول المقتحمين لحصن الفرما وعند اقتحام حصن بابليون المنيع أشتلرك عدد كبير من اليمنيين في عملية جريئة لاقتحامه.

- وتبين من خلال الدراسة أن أهل اليمن واصلوا فتوحاتهم مع الجيش الإسلامي نحو الشمال حتى وصلوا الإسكندرية وخاضوا في الطريق إليها معارك عدة، وتمكنوا من فتح الإسكندرية ولمناطق الشمالية، ثم مناطق الصعيد وبرز عدد من القادة اليمنيين في فتح مدن ومناطق مصر المختلفة ووجدت مناطق تحمل أسماء بعضهم.

- ولتامين حدود مصر تمت السيطرة على مناطق في جهاتها الغربية والجنوبية ثم انطلقت الجيوش لفتح بلاد العرب (شمال أفريقيا) وخلال ذلك تم أيضا تأمين الحدود الشمالية بالسيطرة على عدد من جزائر البحر المتوسط وفي كل ذلك يتضح أن أهل اليمن كان لهم الإسهام الرئيس فكان معظم الجيش وقادة الفتح منهم مثل معاوية بن حديج السكوني وزهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان الغساني وموسى بن نصير البلوي والذي تم استكمال فتح بلاد المغرب على يديه فكان ذلك مقدمة لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية (اسبانيا والبرتغال) التي أصبحت تعرف باسم الأندلس بعد فتحها.

- وتمت السيطرة على الساحل الممتد من بلاد الشام إلى طنجة على المحيط الأطلسي فأصبح البحر المتوسط تحت سيطرة الأسطول العربي الإسلامي وقد عرف من أهل اليمن أشهر قادة ذلك الأسطول مثل جنادة بن أمية الأزدي وعبد الله بن قيس الغساني.

- واسهم اليمنيون في الحياة السياسية إسهاما فاعلا سواء في الوقوف إلى صف الخلافة أو في الحركات المعارضة لها، وفي مصر كان لأهل اليمن دور رئيس في مساندة محمد بن أبي حذيفة الذي استولى على ولاية مصر وداعا إلى خلع الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) واشترك عدد من القادة منهم في الجيش الذي سار إلى المدينة المنورة وساعدوا على حصر الخليفة ثم قتله.

- وعلى الجانب الآخر وقف بعضهم في صف عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ثم في صف معاوية بن أبي سفيان في نزاعه مع الخليفة وضمها إلى معاوية بن أبي سفيان في نزاعة مع الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وكان لهم الدور الرئيس في خروج

مصر من دولة الخلافة وضمها إلى معاوية وذلك بزعامة معاوية بن حديج السكوني الذي غير مجرى الأحداث السياسية لصالح معاوية.

- كما وقف بعضهم عند نهاية العصر الأموي إلى جانب المسودة (العباسيين) فثاروا على الحكم الأموي في أكثر من منطقة في مصر .

- وتولى عدد من اليمنيين حكم مصر خلال العصر الأموي فكان منهم ولاة يعدون مثلا رائعا للوالي المسلم في السياسية الحكيمة وفي الحنكة والدهاء وفي الوقت نفسه في تمثل تعاليم الإسلام النبيلة فحسنت سيرتهم في الناس، وأفضل مثال لذلك الوالي قيس بن سعد بن عباده الأنصاري فضلا عن ولاة آخرين حمدت سيرتهم مثل عقبة بن عامر الجهني وأيوب بن شرحبيل الأصبحي وحفص بن الوليد الحضرمي وغيرهم ومنهم من أساء السيرة فلم يمكثوا إلا وقتاً قصيراً ومنهم من أسهموا في مد رقعة الفتوح مثل مسلمة بن مخلد الأنصاري فضلا عن كثير من الإصلاحات الإدارية .

- ومع إخلاص القادة لأولي الأمر و الحرص على تنفيذ الأوامر إلا أنهم لم يكونوا ليقبلوا بما يمس ذاتهم فنراهم يقفون حتى في وجه الخليفة وأقاربه بكل قوة .

- كان لنزول القبائل العربية في مناطق مصر المختلفة واختلاطهم بالسكان الأثر الكبير في سرعة تعريب مصر مما يدل على حدوث تفاعل بين القبط وجماعات العشائر العربية ، وهو أمر لم يحدث من قبل ، إذ ظل الهكسوس و الرومان مئات السنين في مصر من دون أن تؤثر ثقافتهم أو لغتهم تأثيرا قويا في المصريين بل إن المصريين عدوا تعلم لغة الرومان جريمة لا تغتفر وعليه فإن تعريب مصر في مدة تاريخية قصيرة يعد حدثاً تاريخيا عظيم الأهمية له دلالات عميقة تؤشر إلى صلات وارتباط تاريخي عميق الجذور روحيا وثقافيا جغرافيا بين دلالات عميقة تؤشر إلى صلات وارتباط تأريخي عميق الجذور روحيا وثقافيا وجغرافيا بين مصر وشبة الجزيرة العربية وهي عوامل أهلت مصر ذات الثقل البشري والاقتصادي لكي تسهم بدور عظيم الأهمية في التاريخ العربي الإسلامي في شتى الجوانب العسكرية والسياسية والثقافية والفكرية والحضارية بشكل عام .

وهكذا فإن تاريخ أهل اليمن هو جزء أساس ومهم من التاريخ العربي الإسلامي ، ودراسته يعد أمرا ضروريا لفهم جوانب مختلفة في حياة هذه الأمة بغية مزيد من ترابطها وتحقيق مصالح أبنائها .

ملخص :

دراسات على بعض أصناف البن بتقنية زراعة الأنسجة *

يعد البن .Coffea arebica L من أهم المحاصيل النقدية في العالم ،كما يحتل مكانة مهمة بين هذه المحاصيل. ويعد البن من المحاصيل الواسعة الاستهلاك على مستوى العالم وبشكل يومي ،حيث بلغت المساحة المنزرعة من البن في العالم للعام 2006 حوالي 10.531.833 هكتار (الفاو - 2006) وبلغ إنتاجها لنفس العام حوالي 7.364.798 طن (الفاو - 2006).

سلوى محمد الحيمي

وتحتل اليمن مكانة خاصة فيما يتعلق حيث يعتبر أن القهوة قد انتشرت إلى العالم من اليمن لتنتشر بعد ذلك لتصبح المشروب الأكثر استهلاكاً خصوصاً في أوروبا و أمريكا. ولم تعد اليمن من ضمن الدول المنتجة للبن بشكل اقتصادي بل ومؤخراً أصبحت من الدول المستوردة للبن في حين أن دولاً كثيرة مثل البرازيل وبعض دول أفريقيا وغيرها أصبحت تحتل الصدارة في إنتاج وتصدير البن .

تدهور زراعة البن في الجمهورية اليمنية

* رسالة لنيل درجة الماجستير تقدمت بها الباحثة إلى قسم البساتين والغابات – كلية الزراعة – جامعة صنعاء 2008م

لأسباب عديدة من أهمها انتشار محاصيل منافسة وارتفاع تكاليف إنتاجه؛ نتيجة لطبيعة أشجار البن وثماره التي تحتاج إلى عمالة كثيرة للحصاد مما يشكل عبئاً على مزارعي البن كما أن شحة المياه والهجرة الداخلية والخارجية للعمالة ومنافسة البن المستورد من حيث الأسعار ؛لعب دوراً كبيراً في تدهور زراعة البن في اليمن (مكرد - 1998) .كما أن اتباع مزارعي البن لنفس الطرق القديمة المتوارثة في زراعة البن وعدم إتباعهم أية طرق أو تقنيات حديثة قد تساهم في زيادة وتحسين الإنتاج، ابتداءً من طرق الإكثار والعمليات الزراعية وانتهاءً بمعاملات مابعد الحصاد، تؤثر سلباً على كمية المحصول وجودته .

وتهدف هذه الدراسة إلى تطبيق الزراعة النسيجية كطريقة إكثار خضرية حديثة متميزة لإكثار بعض أصناف البن اليمني .إذ أن البدء باستخدام تقنية زراعة الأنسجة بما لها من تطبيقات واستخدامات ومميزات يمكن الاستفادة منها لتحقيق أفضل

النتائج المرجوة في مجال زراعة البن في اليمن .سواء من حيث تحسين الإنتاج كماً وكيفاً ، كما أن نتائج مثل هذه الدراسة يمكن أن تساهم في التشجيع على تطبيق تقنيات الهندسة الوراثية للإسهام في المحافظة على أصناف البن اليمنية وتحسين صفاتها الإنتاجية و خصائص جودتها.

و قد أجريت هذه الدراسة في معمل فسيولوجيا المحاصيل بكلية الزراعة - جامعة صنعاء على ثلاثة أصناف من البن اليمني (التفاحي،الدوائري، العديني)، والتي تم الحصول عليها من شتلات بن بعمر سنة أحضرت من مشتل الرجم الحكومي لإنتاج شتلات البن في محافظة المحويت .كما تم إجراء التحليل الكيماوي لمحتويات الأنسجة النباتية في معمل إدارة التحليل الطيفي والكروماتوجرافي بالهيئة العامة للمواصفات والمقاييس بصنعاء.

تضمنت هذه الرسالة ثلاثة محاور رئيسة بهدف معرفة أفضل البيئات الزراعية المناسبة وأفضل تركيز هرموني لزراعة البن للحصول على نسيج الكالس .ومعرفة أفضل الظروف المناسبة لاستخدام تقنية زراعة الأنسجة لبعض أصناف البن اليمني.بالإضافة إلى استخدام تقنية زراعة الأنسجة في مجال الزراعة والإكثار لبعض أصناف البن للاستفادة من هذه التقنية وتطبيقاتها ،و التي تشمل الكثير من الاتجاهات من أهمها:

إنتاج نباتات بأعداد كبيرة ،خالية من الأمراض ومقاومة لبعض الظروف البيئية والحفاظ على صفاتها الوراثية المتميزة .وقد تم في هذه الدراسة إرساء بروتوكول قابل للتطبيق في بعض مجالات الهندسة الوراثية والتقانات الحيوية .بالإضافة إلى التحليل الكيماوي لأوراق و الكالس للحصول على مؤشرات وتطبيقات أولية لزراعة الأنسجة لبعض أصناف البن اليمني . وقد شملت الدراسة المحاور التالية:

1.التعقيم والإعداد للزراعة:

إذ تم دراسة تأثير مدة التعقيم بثلاث معاملات مختلفة(5 دقائق 10-دقائق 15- دقيقة) وتركيز الكلوركس المستخدم كمادة معقمة بخمس معاملات مختلفة(20 % - 25 % 30- % - 35 % - 40 %) على نسبة التلوث ونسبة الأجزاء النباتية الحية .وقد أعطت مدة التعقيم الثالثة (15 دقيقة)أقل المعدلات من نسبة التلوث ،في حين أعطت مدة التعقيم الأولى (5 دقائق) أعلى المعدلات من نسبة التلوث .

• أما تأثير تركيز الكلوركس على نسبة التلوث فقد أعطى أقل تركيز للكلوركس (20 %) أعلى المعدلات من التلوث في حين أعطى التداخل بين المعاملة لمدة التعقيم(15 دقيقة)و تركيز الكلوركس الخامس (40 %)أقل المعدلات في نسبة التلوث .

وبالنسبة التأثير مدة التعقيم و تركيز مادة الكلوركس على نسبة الأجزاء النباتية الحية فقد أعطت مدة التعقيم الأولى (5 دقائق) أعلى المعدلات بينما أعطت مدة التعقيم الثالثة (15 دقيقة)أدنى المعدلات .وبالمثل اعطى تركيز الكلوركس الأول (20 %) أعلى نسبة من الأجزاء النباتية الحية،بينما أعطى التركيز الخامس (40 %) أدنى نسبة من الأجزاء النباتية الحية .

2. زراعة الأنسجة:

شملت هذه الدراسة إجراء عدة تجارب على أصناف البن اليمني لمعرفة مدى استجابة هذه الأصناف لزراعة الأنسجة، إذ تم استخدام الأوراق الغضة من كل صنف وزراعتة في ست بيئات مختلفة التركيز الهرموني و كذلك تراكيز الأملاح لمعرفة البيئة المناسبة لكل صنف .

وقد تمت التجارب في ثلاثة مواسم مختلفة (فبراير - مايو -أغسطس)لمعرفة أفضل موعد لأخذ الأجزاء النباتية لكل صنف .وقد أعطى الصنف العديني أعلى المعدلات في نسبة تكوين الكالس يليه الصنف التفاحي، فيما أعطى الصنف الدوائري أقل المعدلات

أما بالنسبة للبيئات فقد أظهرت نتائج الدراسة أن البيئة رقم(6) والمحتوية على كل الأملاح MS و 1 ملجم /لتر 2،4 -D ،و 8 ملجم/لتر منBA قد أعطت أعلى المعدلات في نسبة ظهور الكالس .أما البيئة (4) المحتوية على1/2 أملاح MS و 8 ملجم /لتر من BA والبيئة (5) والمحتوية على 1/2 أملاح MS و 0.5 ملجم/لتر 2،4 -D ، فلم تعط أي منهما أي تأثير .وتبين عدم وجود أي تأثير لمواعيد اخذ الأجزاء النباتية على معدلات ظهور الكالس .

أما با لنسبة لتأثير الأصناف والبيئات ومواعيد الزراعة على حجم الكالس المتكون (mm3)فقد تبين من خلال التجربه أن الصنف الدوائري أعطى أعلى المعدلات في حجم الكالس المتكون يليه الصنف العديني ،فيما أعطى الصنف التفاحي أقل المعدلات. وقد أظهرت التجارب كذلك أن البيئة (6) أعطت أعلى المعدلات في حجم الكالس المتكون بينما لا توجد اختلافات بين البيئة (1)و البيئة(2) في حجم الكالس المتكون أما البيئة (3) فقد تم استبعادها لعدم وصول الكالس الناتج إلى الحجم المناسب للاستخدام . في حين لم تعط البيئات (4)و(5) أي استجابة .وقد أتضح أن الموسم الأول (شهر فبراير) للزراعة أعطى أعلى المعدلات في حجم الكالس المتكون ،بينما أظهر الموسم الثالث (أغسطس)أدنى المعدلات .وقد تبين أن أفضل بيئة لزراعة الأصناف الثلاثة من البن هي البيئة (6) حيث أعطت أعلى النتائج مع الأصناف الثلاثة في الموسم الأول (فبراير).

3.التحليل الكيمائي:

تم تقدير محتوى الأوراق والكالس للأصناف الثلاثة من مادة الكافيين والنتروجين والكربوهيدرات، بهدف الحصول على مؤشرات وتطبيقات أوليه لزراعة الأنسجة لبعض أصناف البن اليمني .وقد أعطى الصنف الدوائري أعلى المعدل في محتوى الأوراق والكالس من الكافيين ،يليه الصنف التفاحي ،في حين أعطى الصنف العديني أقل المعدلات.

أما بالنسبة لنسبة النتروجين في كالس البن للأصناف المدروسة ،فقد أعطى الصنف العديني أعلى معدل للنتروجين ، يليه الصنف التفاحي ،فيما أعطى الصنف الدوائري أقل المعدلات في نسبة النتروجين في الكالس.

أما بالنسبة لنسبة النتروجين في الأوراق فقد أعطى الصنف الدوائري أعلى المعدلات يليه الصنف العديني ،أما الصنف التفاحي فقد

أعطي أدنى المعدلات .

وفيما يخص نسبة الكربوهيدرات في أوراق وكالس أصناف البن المدروسة ، فقد أعطى الصنف الدوائري أعلى معدل في محتوى الأوراق والكالس من الكربوهيدرات يليه الصنف التفاحي ،أما الصنف العديني فقد أعطى أدنى المعدلات في محتوى الأوراق والكالس من الكربوهيدرات .

استدراك على:

المخطوطات اليمنية .. تحقيقها ونشرها

أشار الدكتور مجبل مسلم لازم المالكي في مقدمة دراسته القيمة (المخطوطات اليمنية تحقيقها ونشرها) «دراسة تحليلية»، المنشورة في العدد (30 - 37) من المجلة إلى أن ما تضمنته دراسته من عناوين للكتب المحققة هو حصيلة ما اطلع عليه من المراجع أو قوائم الإصدارات للجهات التي قامت بنشر هذه الكتب، أو من خلال ما وجده في معارض الكتب الدولية أو المكتبات العامة، وذلك يعني أن دراسته لم تشمل كافة المخطوطات اليمنية المحققة والمنشورة خلال الفترة الزمنية المحددة في الدراسة.

ومن خلال الإطلاع على الدراسة آنفة الذكر يلاحظ أن عدداً من المخطوطات المحققة والمنشورة لم يطلع عليها الباحث وإلا لكان ضمنها الـ(ببلوجرافيا) التي ذيل بها الدراسة، وقد رأينا تذييل ببلوجرافيا الدراسة بما تيسر الوقوف عليه من المخطوطات المحققة والمنشورة ليستفيد منها القارئ والباحث، كما أن ما اطلع عليه الدكتور وأورده من منشورات بعض الجهات المعنية بالنشر لم يشمل كافة العناوين للمخطوطات اليمنية التي نشرت حتى تاريخ الدراسة، وهي الواردة في الدراسة، وهذا لا يعني التقليل من أهمية الدراسة والجهد الذي بذله الباحث في البحث والمتابعة والاستنتاج الذي كرسه الباحث وظهر جلياً في دراسته، ونفصل التذييل فيما يلي:

أولاً: مخطوطات نشرت محققة لم يشر إليها في الدراسة:

1 - أحمد بن علوان ديوان وكتاب الفتوح تحقيق عبد العزيز المنصوب، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1992م.

2 - الإرياني، عبد الرحمن بن يحيى، مجموعة رسائل في علم التوحيد، تقديم وتعليق عبد الرحمن الإرياني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1985م.

3 - الإرياني، علي بن عبد الله»نجاح الطالب في صفة ما يكتبه الكاتب»، تحقيق أحمد علي الوادعي، صنعاء، مكتبة السنحاني، (د. ت).

4 - الأمير، محمد بن إسماعيل، «إجابة السائل شرح بغية الآمل بمنظومة الكافل»، تحقيق القاضي حسين السياغي، وتعليق الدكتور حسن محمد مقبول الأهدل، صنعاء، مجلس القضاء الأعلى.

5 - ....»رفع الأستار لإبطال القائلين بفناء النار» تحقيق الشيخ محمد ناصر الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، 1984م.

6 - ....»تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد»، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة 1966م.

7 - .... «منحة الغفار على ضوء النهار «، نشرها مجلس القضاء(4)مجلدات، صنعاء، مكتبة غمضان.

8 - ....تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد»،المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية،(19)، 1975م.

9 - .... «تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد»، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، 1979م.

10 - .... «تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد»، (ضمن مجموعة رسائل في علم التوحيد)، تقديم وتعليق: القاضي عبد الرحمن الإرياني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1985م.

11 - الآنسي، عبد الرحمن بن يحيى،»الأنموذج الفائق للنظم الرائق»، تحقيق: عبد الرحمن طيب بعكر، صنعاء، مؤسسة الإبداع، 1992م.

12 - البرعي، عبد الرحيم بن أحمد المهاجري، «ديوان البرعي» تحقيق: عبد العزيز سلطان المنصوب، صنعاء، مركز عبادي، 2003م.

13 - البهكلي، عبد الرحمن بن أحمد،»خلاصة العسجد في حوادث الشريف محمد بن أحمد»، تحقيق: ميشيل توشير، عدنان درويش، صنعاء، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية. المركز الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 2000م.

14 - جابر رزق، «زهر البستان»، تحقيق : عبد الله الرديني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1989م.

15 - جعفر بن أحمد بن عبد السلام، «متن نكت العبادات»، إعداد: أسعد إبراهيم الوزير، صنعاء، دار الحكمة اليمانية، 1998م.

16 - الجيشي الإمام، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، «نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف»، نشر دار المنهاج، جدة، 1997م.

17 - بن حمزة، أحمد بن عبد الله بن حمزة، «تاريخ الخيول العربية « شرح أرجوزة في صفات الخيل، تعليق ونشر وزارة الإعلام والثقافة، 1979م.

18 - الديبع، عبد الرحمن بن علي، «أرجوزة نشر السلوك فيمن ولي زبيد من الملوك»، تحقيق د.راضي دغفوس، تونس.

19 - الريمي، محمد بن عبد الله، «العدة في الفقه»، تحقيق: د/ محمد عبد الواحد الشجاع، صنعاء، مركز عبادي للدراسات والبحوث.

20 - السياغي، الحسين بن أحمد، « المزن الماطر على الروض الناظر في أدب المناظر «، إعداد : مجلس القضاء الأعلى، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1984م.

21 - الشرجي، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف، «طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص»،

تقديم وتعليق: عبد الله الجيشي، صنعاء، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، 1986م.

22 - الشوكاني، محمد بن علي، «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار» ج(1، 2)، تحقيق: قاسم غالب احمد، محمود إبراهيم زايد، القاهرة، 1969م.

23 - ....»السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»ج(1، 2، 3، 4)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، بيروت، دار الكتب العملية 1985م.

24 - ....» ذكريات الشوكاني»، تحقيق: د/ صالح رمضان محمود، عدن، وزارة الثقافة والإعلام، 1983م.

25 - ....»رفع الخصام في الحكم بعلم الحكام»، تحقيق: أحمد علي الوادعي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1997م.

26 - ....»الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني»، ج1، المعهد العالي للقضاء،صنعاء، 1994م.

27 - ....»الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني»، ج2، المعهد العالي للقضاء،صنعاء، 1994م.

28 - ....»شرح الصدور بتحريم رفع القبور»، تقديم:محمد حامد الفقيه، القاهرة، 1966م.

29 - ....»شرح الصدور بتحريم رفع القبور»، تقديم:محمد حامد الفقيه، القصيم، 1388هـ.

30 - ....»شرح الصدور بتحريم رفع القبور»، تقديم:محمد حامد الفقيه، المدينة المنورة، 1395هـ.

31 - ....»شرح الصدور بتحريم رفع القبور» (مجموعة رسائل في علم التوحيد)، تقديم وتعليق: القاضي عبد الرحمن الإرياني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1985م.

32 - ....»الصوارم الحداد لقطع علائق رب الاتحاد» (مجموعة رسائل في علم التوحيد)، تقديم وتعليق: القاضي عبد الرحمن الإرياني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1985م.

33 - ....»القول المسفر في البحث عن كل مسكر ومفتر»، نشره أحمد علي حسان، بإشراف القاضي عبدالرحمن الإرياني.

34 - ....»من مجاميع الإمام محمد بن علي الشوكاني»، «ثمان رسائل في الفقه»، تحقيق: عبد الحميد بن صالح أعوج سبر، مكتبة دار البيان، الطائف، 2003م.

35 - بن شرف الدين، محمد بن عبد الله»مبيتات وموشحات»، تحقيق علي المؤيد، وإسماعيل الجرافي، القاهرة (بدون تاريخ).

36 - ....» مبيتات وموشحات»تحقيق علي المؤيد، وإسماعيل الجرافي، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

37 - العنسي، علي بن محمد»ديوان وادي الدور»، تحقيق: يحيى منصور بن نصر، القاهرة، 1962م.

38 - ....»ديوان وادي الدور»، تحقيق:يحيى منصور بن نصر، صنعاء، دار الحكمة، 1980م.

39 - ابن فيروز، أحمد بن يوسف»مطالع النيران»، تحقيق : محمد عيسى صالحية، الكويت، نشر مجلة دراسات الجزيرة والخليج، (3)، 1984م.

40 - القاسم بن محمد بن علي،»كتاب الأساس لعقايد الأكياس»، تحقيق: البير نصري، بيروت، دار الطليعة، 1980م.

41 - المخلافي، عبد الفتاح بن محمد بن علي»مرآة المعتبر في فضل جبل صبر»، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، تعز المعمل

الفني، 1984م.

42 - المقري، إسماعيل بن أبي بكر» شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة»، تحقيق: عبد الرحمن الحضرمي، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1989م.

43 - الملك المظفر، يوسف بن عمر بن رسول»المخترع في فنون من الصنع»، تحقيق: محمد عيسى صالحية، الكويت، دار الشراع، 1989م.

44 - الوزير، محمد بن إبراهيم،» الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم».

45 - ....»مجمع الحقائق والرقائق في ممادح رب الخلائق»، نشر مختارات منه بتعليق علي المؤيد وإسماعيل الجرافي، القاهرة، المطبعة السلفية، 1961م.

46 - نشوان بن سعيد الحميري، «شرح رسالة الحور العين»، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة، 1367هـ.

47 - .... «شرح رسالة الحور العين»، تحقيق مصطفى حجازي، صنعاء، الدار اليمنية للطباعة والنشر، 1984م.

48 - نشوان بن سعيد الحميري، «متن القصيدة الحميرية، ملوك حمير وأقيال اليمن»، نشرها مسيورنه ياسهRhebasse ، الجزائر، 1914م.

49 - اليافعي، عبد الله بن أسعد، «مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة»، تحقيق : محمود محمد محمود حسن نصار، بيروت، دار الجيل، 1992م.

50 - اليامي، محمد بن حاتم بن عمران،»السمط الغالي الثمن في أخبار ملوك دولة الغز باليمن»، تحقيق: ركس اسميث، سلسلة جب التذكارية، 1974م.

ثانياً: مخطوطات نشرت محققة لم يذكر طبعتها:

1 - الأمير، محمد بن إسماعيل، «سبل السلام على بلوغ المرام في أدلة الأحكام»، راجعه وعلق عليه: محمد عبد العزيز الخولي، القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي، 1960م.

2 - بامخرسة، عبد الله الطيب بن أحمد «تاريخ ثغر عدن»، تحقيق: أوسكار لوفغرين، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

3 - الحيمي، محمد بن الحسن الحيمي»حدائق التمام في آداب الدخول إلى الحمام»، تحقيق: عبد الله الجيشي، صنعاء، وزارة الأوقاف والإرشاد، 1984م.

4 - الربعي،عيسى بن إبراهيم الوحاظي،»نظام الغريب في اللغة»، تحقيق: مولس برونلي،القاهرة، 1913م.

5 - مجهول المؤلف(حوليات يمانية)، تحقيق: عبد الله الحبشي، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1979م.

6 - بن عبد المجيد، عبد الباقي»بهجة الزمن في تاريخ اليمن»، تحقيق: مصطفى حجازي، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

7 - الكِندي، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي،»السلوك في طبقات العلماء والملوك»، تحقيق: محمد علي الأكوع، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 83 ،1989م.

8 - الموزعي، عبد الصمد بن إسماعيل،»الإحسان في دخول اليمن تحت ظل آل عثمان»، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي ، صنعاء، وزارة الأوقاف والإرشاد، 1984م.

9 - نشوان الحميري، «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم»، نشر منه جزء وبعض جزء، تحقيق: المستعرب السويدي سترستن، وطبع في مطبعة بريل، 1951م.

10 - ....»ملوك حمير وأقيال اليمن»، تحقيق: علي المؤيد وإسماعيل الجرافي، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

11 - الهمداني، الحسن بن أحمد، »الجوهرتين العقيقتين الصفراء والبيضاء»، تحقيق: الشيخ حمد الجاسر، الرياض، المطبعة الأهلية للأوفست، 1987م.

12 - ....» صفة جزيرة العرب»، تحقيق: محمد علي الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1990م.

13 - الوزير، محمد بن إبراهيم،» العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم»، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، نشر في 9 أجزاء، بيروت، دار الرسالة.

ثالثاً: لم يورد الكاتب في دراسته ما صدر عن بعض الجهات من مخطوطات محققة كاملة ومستوفاه. ولكن ورد فيها نقص، حيث أورد ما صدر عن وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء ضمن مشروع الكتاب ثلاثة عناوين فقط، مع أن ما صدر عن الوزارة من كتب محققة ضمن مشروع الكتاب هي عشرة كتب.

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي أصدرتها وزارة الإعلام والثقافة – صنعاء:

1 - «تاريخ الخيول العربية»، شرح أرجوزة في صفات الخيل وأوصافها، لأحمد عبد الله بن حمزة، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1979م.

2 - «حوليات يمانية»، تحقيق: عبد الله الحبشي، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1979م.

3 - «السلوك في طبقات العلماء والملوك» ج(1)، لـ محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1983م.

4 - منتخبات في أخبار اليمن» من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: عظيم الدين أحمد، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1981م.

5 - «الجوهرتين العتيقتين، الصفراء والبيضاء» لـ أبي محمد الحسن الهمداني، تحقيق: كوستوفل تل ، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1983م.

6 - «مجموع بلدان اليمن وقبائلها»، لـ محمد أحمد الحجري، تحقيق: إسماعيل الأكوع، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1984م.

7 - «الأبحاث المسددة في فنون متعددة» لـ صالح بن مهدي المقبلي، تحقيق: القاضي عبد الرحمن الإرياني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1984م.

8 - «مجموعة رسائل في علم التوحيد»، لـ (محمد بن إسماعيل الأمير، محمد بن علي الشوكاني، عقيل بن يحيى الإرياني)، تقديم وإشراف القاضي عبد الرحمن الإرياني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1985م.

9 - «زهر البستان في اختراع الغريب من الألحان»، ديوان شعر، لـ جابر أحمد رزق، تحقيق: عبدالله محمد الرديني، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة.

10 - «السلوك في طبقات العلماء والملوك» ج(2) لـ محمد بن يوسف الجندي الكندي، تحقيق: محمد علي الأكوع، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1989م.

11 - «شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة»، لـ إسماعيل بن أبي بكر المقري، تحقيق: عبد الرحمن عبد الله الحضرمي، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1989م.

بالإضافة إلى ما أصدرته الوزارة من مخطوطات وهي:

1 - «الصادح والباغم» لـ محمد بن يونس الزحيف، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1981م.

2 - «المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك» لـ علي بن الحسن الخزرجي، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1981م.

3 - "روح الروح فيما جرى في المائة العاشرة من الفتن والفتوح"، لـ عيسى بن لطف الله بن المطهر، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، 1981م.

كما أورد الكاتب أن ما أصدرته وزارة الثقافة والإعلام – عدن هو عنوان واحد، مع أن الوزارة أصدرت عنوانين اثنين هما:

1 - «الآداب المحققة في معرفة البندقة»، لـ الحباني، تحقيق: عبدالله أحمد محيرز، عدن، وزارة الثقافة والإعلام، 1987م.

2 - «ذكريات الشوكاني» لـ محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: صالح رمضان محمود، عدن، وزارة الثقافة والإعلام، 1987م.

وأورد أيضاً أن ما أصدرته دار الكلمة، صنعاء، هو عنوان واحد، مع أن ما أصدرته دار الكلمة سبعة عناوين، هي:

1 - «ترجيع الأطيار بمرقص الأشعار»، شعر عبد الرحمن الآنسي، تحقيق: القاضي عبد الرحمن الإرياني والقاضي عبدالله عبد الإله الأغبري، صنعاء، دار الكلمة، 1980م.

2 - "وادي الدور"، شعر علي بن محمد العنسي، تحقيق: يحيى منصور ، صنعاء، دار الكلمة، 1980م.

3 - "مبيتات وموشحات، شعر محمد بن عبدالله شرف الدين، تحقيق: علي المؤيد، وإسماعيل الجرافي، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

4 - "طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب"، لـ الملك الأشرف عمر بن يوسف الرسولي، تحقيق: كات سترستن، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

5 - "القصيدة الحميرية – ملوك حِمْيَر وأقيال اليمن"، نشوان الحميري، تحقيق: علي المؤيد، وإسماعيل الجرافي، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

6 - "بهجة الزمن في تاريخ اليمن"، عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، تحقيق: مصطفى حجازي، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

7 - "تاريخ ثغر عدن"، عبد الله الطيب بن أحمد بامخرمه، تحقيق: أوسكار لوفجرين، صنعاء، دار الكلمة، 1985م.

كما أن ما أورد الكاتب من إصدارات وزارة الأوقاف والإرشاد هو عنوان واحد فقط، مع أن الوزارة أصدرت ثلاثة عناوين، هي:

1 - «إقامة الحجة والبرهان على جواز أخذ الأجرة على تلاوة القرآن»، محمد بن إسماعيل الأمير، تحقيق: أحمد عبد الرزاق الرقيحي، صنعاء، وزارة الأوقاف والإرشاد، 1984م.

2 - «حدائق النمّام في آداب الدخول إلى الحمام»، لمحمد بن الحسن الحيمي، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، وزارة الأوقاف والإرشاد، 1984م.

3 - «الإحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان»، لـ عبد الصمد بن إسماعيل الموزعي، تحقيق: عبد الله الحبشي، صنعاء، وزارة الأوقاف والإرشاد، 1984م.

رابعاً: نسب الكاتب بعض العناوين لغير أصحابها:

ويلاحظ أن الكاتب أورد عنوانين نسبا إلى غير مؤلفيهما وهما:

1 - «العسجد المسبوك والجوهر المحكوك والزبرجد المحبوك في طبقات العلماء والملوك» نسبه للملك الأشرف عمر بن يوسف، والكتاب مؤلفه الملك الأشرف الثاني إسماعيل بن العباس المتوفى سنة 803هـ.

2 - « المعتمد في الأدوية المفردة « نسبه للملك الأشرف عمر بن يوسف، والكتاب مؤلفه هو الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول، وقد طبع عدة طبعات بتحقيق وتصحيح مصطفى السقا، ويحمل اسم المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول.

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن الرقم في الببلوجرافيا المنشورة في العدد الماضي فيه غلط في عنوان الكتاب واسم مؤلفه ، فعنوان الكتاب هو «العسجد المسبوك والجوهر المحكوك والزبرجد في طبقات الخلفاء والملوك»، تأليف الملك الأشرف إسماعيل بن العباس وقد التبس عند التصحيح بعنوان كتاب الخزرجي، هو الوارد تحت هذا الرقم في الببلوجرافيا، وكتاب العسجد المسبوك المشار إليه تأليف الملك الأشرف إسماعيل يحتوي على تاريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء الدولة الأموية والدولة العباسية، ويعتبر تاريخ للخلفاء والملوك وشمل الأبواب الأول والثاني والثالث.

أما «العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك»، للخزرجي، فهو خاص بتاريخ اليمن ويبدأ من الباب الرابع ويبدأ منذ فجر الدعوة الإسلامية وحتى عهد الملك الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل وهو الذي تولى الملك خلفاً لأبيه الملك الأشرف منذ وفاته عام 803هـ وحتى 812هـ وفي عهده توفي المؤرخ الخزرجي مؤلف الكتاب.

والله ولي الهداية والتوفيق...

المحرر

المراجع:

- مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص.
- مقدمة العسجد المسبوك، للخزرجي، مصورة وزارة الإعلام والثقافة 1981م.
- علماء اليمن المجتهدون، إسماعيل الأكوع.
- تفسير البيان، محمد بن إسماعيل الأمير، دراسة وتحقيق: هدى القباطي، دار الكلم الطيب.
- فهرست المخطوطات بالجامع الكبير بصنعاء.
- ملوك حِمْيَر وأقيال اليمن، تحقيق: علي المؤيد، إسماعيل الجرافي.

أرجوزة الزميلي : (غاية النفع في نشر فضائل الزرع) *

(تأليف : العلامة شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الزميلي)

تقديم : محمد لطف غالب

مقدمة :

دأبت (الإكليل) على نشر مخطوط محقق أو بدون تحقيق مع تقديم منها ونشره بصورته الاصلية ، وفي هذا العدد ننشر الارجوزة موضوع التقديم ونورد بإيجاز نبذة عن موضوع الأرجوزة ومؤلفها

1 - موضوع الأرجوزة كما ورد في عنوانها هو زراعة الأرض باعتبارها أفضل أنواع المكاسب التي كانت منحصرة في ثلاثة هي (التجارة والزارعة والصناعة) وقدم الأرجوزة بمقدمة ضمنها فضل الزراعة وأنها حرفة أبينا آدم فو أول من أشتغل بالزراعة وحرث الأرض ، ويورد أيضاً أسماء عدد من الأنبياء الذين اشتغلوا بالزراعة وكذا الصحابة ، ثم فصل محتويات أرجوزته في خمسة أبواب وخاتمة .

الباب الأول : في فضل الزرع ، الباب الثاني : في فضائل الأرض وخدمتها ، الباب الثالث : في التّلام (والتلام شق الأرض وبذر الحب فيها) ومواقيت البذر لأنواع الحبوب ومواسم الزراعة في المناطق التي ذكرها في هذا الباب ، الباب الرابع : في تدبير النفقات ، الباب الخامس : في الفصول الأربعة وفي حلول الشمس والقمر في الأبراج .

وفي الخاتمة أورد ذكر أوقات البرد والحر من فصول السنة وأطول أيام السنة وأقصرها والاعتدال في فصلى الصيف والشتاء وتساوي الليل والنهار فيهما .

ولهذه الأرجوزة عدد من المخطوطات منها نسختا المكتبة الغربية في الجامع الكبير بصنعاء الأولى مجاميع (33) ورد عنوانها :

(غاية النفع في نشر فضائل الزرع (أرجوزة). مطلعها :

(الحمد لله اللطيف الهادي
رب الأنام رازق العباد)

---

*هنا العنوان ورد في فهرست مخطوطة مكتبة الجامع الكبير أما في المخطوطة المنشورة هنا فقد جاء العنوان هكذا«أرجوزة للعلامة الزميلي رحمه الله ونفعنا بعلومه آمين».

وآخرها :

(مقاصد الأرجوزة الميمونة

من ربنا أتت لها المعونة)

عشر ورق 38 - 47

م. 2 س 23 × 17

الأخرى مجاميع (12) سبع ورق 109 - 114 م

25 س 20× 5 (1)

2 - ناظم الأرجوزة : عالم فقيه شاعر فلكي ، على معرفة تامة وإلمام بأحكام الفقه يتضح ذلك من خلال ايراده لأقوال العلماء الفقهاء الذين أورد أسماءهم في الأرجوزة وذكر مؤلفات بعضهم . ، كما ألمح في أرجوزته إلى الحكم في إحياء الأرض الموات وما يناله الزارع بشكلٍ عام من أجر حينما يأكل من ثمرة زرعه طائر أو إنسان .

وهو أيضاً شاعر تنبئ أرجوزته (موضوع التقديم) وكذا قصيدته الأخرى الموسومة بـ : بديعية الإخوان في رياضة الصبيان التي مطلعها:

الحمد لله ولي الحمد

موفق الخلق لكل رشد(1)

وهو فلكي فما ورد في أرجوزته التي بين أيدينا من ذكر الفصول وابتدائها وانتهائها وكذا بروج كل فصل ومنازل كل برج منها ثم حلول الشمس والقمر في البروج ثم اعتدال الليل والنهار ومتى يكون ذلك من أشهر السنة حيث هناك اعتدالان : (الاعتدال الشتوي نهاية الخريف وابتداء الشتاء ، ثم الاعتدال الصيفي عند انتهاء الربيع وابتداء الصيف .

وعالمنا الزميلي صاحب الأرجوزة من علماء اليمن وكان على إلمام واسع ومعرفة تامة بمواسم ومواقيت البذار والحصاد للزرع والثمار وغرس الأشجار والفواكه ؛ وقد ضمّن أرجوزته (موضوع التقديم) فوائد ومعارف جمة في فضائل الزراعة وفضل الأرض وخدمتها للزراعة وفي معالم ومواقيت الزراعة من حرث ، وتدبير وبذر ، وحصاد مما نقله عن أهل الخبرة وما سمعه منهم أو خبره بنفسه بالتجربة ، كما أورد تداخل الشهور والنجوم والمنازل وحدد المواقيت والمواسم للزرع والبذر وعلامة صلاح الزرع ، كما أشار إلى طريقة معرفة حساب السنين الماضية والقرون الغابرة .

إما عصره الذي عاش فيه فقد أورد معدو فهرست مكتبة الجامع الكبير بصنعاء تحديد عصره على وجه التقريب بقولهم : ((ويبدو أن ناظمها (الأرجوزة) من علماء اليمن في القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي)) .

وهذه الأرجوزة (غاية النفع في نشر فضائل الزرع) ننشرها في هذا العدد دون تحقيق أو تعليق تعميما لفائدة القراء والمهتمين ، وبصورتها التي زود بها المجلة الباحث القاضي / يحيى بن يحيى العنسي وتحتوي على ثلاثمائة وثلاثين بيتاً ، ويلاحظ عدم ورود مقدمتها في بداية هذه النسخة حيث ورد العنوان هكذا : (هذه الأرجوزة في الزراعة) للعلامة الزميلي – رحمه الله ونفعنا بعلومه آمين ، ثم بعد البسملة ابتدأ من الباب الأول ولم ترد المقدمة كما أن خاتمة الأرجوزة غير مكتملة ، وقد أضفنا المقدمة من مخطوطة أخرى حصلت عليها المجلة من الاخ عبدالملك احمد المقحفي وكذا اتمام الخاتمة من مخطوطة حديثة حصلت عليها المجلة من القاضي يحيى بن يحيى العنسي لتعميم الفائدة، هذا ونأمل أن تكون المجلة بنشر هذه الأرجوزة قد أسهمت في نشرها وقدمت بذلك خدمة للقراء ، اسهاماً في نشر التراث وإحيائه ، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(1)- فهرست مخطوطات الجامع الكبير- صنعاء جـ 4 صـ 1628 ، 1889 ، 1890 .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله اللطيف الهادي رب الانام رازق العباد

حمدا ابوا في ما له من النعم ومن جزيل الموهب والكرم

سبحانه من باسط للرزق ومن لطيف بجميع الخلق

جعل تعالى خلقه بالما فضله لطفا من السما

احيا به الاشيا [illegible] فكل خير منه في الارض نبت

ثم الصلوة بعد حمد المنعم على النبي المصطفى من هاشم

وبعد فاعلم ايها المطالع وكل من مراده ينتفع

ان نظرهم في انواع الكسب [illegible] ثم على قلبي

[illegible] قد [illegible] الاكتسابا بفضله وسبب الاسبابا

وقسم الاسباب هذا زارع وتاجر هذا وهذا صانع

فهذه جملة المكاسب فاغايرها اسباب للمسبب

فاخترت منها مكسبا محمودا [illegible] تمهيدا

وسمته في خمسة ابواب [illegible] جملت الكتاب

اولها في نشر فضل الزرع وذكره وما به من نفع

وباب في فضل الارض فاعلم وكلما تحتاجه من خدم

وثالث الابواب في الظاهر جميعه الى تمام العام

رابع الابواب لتدبير النفقات دائم الدهور

[illegible] في العصور الاربعة الى انتهى كالها متابعة

في حلول الشمس ثم القمر في اي برج من جميع الاشهر

٥

ذكرت ما يصلح بها للبدن * من كل ملبوس ومطعوم هني

تمت بحمد الله وحسن توفيقه وهذه ارجوزة في الزراعة للامام العلامة الزميلي رحمه الله ونفعنا بعلومه امين

بسم الله الرحمن الرحيم

ولنبتدي باول الابواب * اعلم هداك الله للصواب

بان خير الكسب كسب الزرع * لانه كسب عميم النفع

وحرفة للانبياء والرسل * وكل اهل للتقا والفضل

فاستمسكوا بحرفة الزراعه * فانها من اكبر النفاعه

أثنى عليها ذو الجلال المنعم * بنص ايات الكتاب المحكم

وكرر المعنى بها تكرارا * متابعا في وحيه مرارا

وكم اتى عن صفوة الجبار * محمد في الزرع من اخبار

وكم ذكر فيها من الفضائل * والاجر والخير الكثير الطائل

لانه حرفة ابينا ادم * صلى عليه ربنا ذو الكرم

علمه جبريل مقتضاها * وكلما احتاج من اشياها

ومن جنان الخلد خير منزل * اخرج له بذر الطعام والحلي

وكان يحرث باليد الكريمه * بثور احمر صح في الروايه

وقد زرع ايوب وابرهيم * والكل منهم مرسل كريم

وقد زرع ايضا ابو هريرة * وكان يختار التلام بكره

وعايشة امامة الطواهر * وحفصة زوج النبي الطاهر

اختزن زرع الارض يوم القسمة * بخيبر من جملة الغنيمة

ولكن يورع عن الزرع الفاخرة * وهو من عمارة دار الاخرة

٦

وهذه دلالة قطيعه ٥ مختارة بها قوام الأمة ٥
وصار افضل جملة المكاسب ٥ واشهر الاشيا باصل المذهب ٥
وقد بذاك صرح الماوردي ٥ قال لان نفعه متعدي ٥
الى جيوش الطير والبهايم ٥ وغير ذاك بعد رزق الادمي ٥
وقال ايضا هكذا النواوي ٥ عين العلوم معدن الفتاوي ٥
وكم روايات اتت في الكتب ٥ مشهورة مروية عن النبي ٥
تشهد بفعل الزرع طول الدهر ٥ واهله ومالهم من اجر ٥
ذكر بان اسم الاله الباري ٥ مكتوب في الاوراق والثمار ٥
وقال ثلث الزرع رزق الادمي ٥ وما بقا للطير والبهايم ٥
وقال تكتب حسنات عشرا ٥ للادمي حين يبدا بذرا ٥
بكل حبة ثم مهما تنبت ٥ كان نفسا مومنة بها حيت ٥
وحين تخضر او يدرسه ٥ تذهب مع خبيطه ذنوبه ٥
وحين ما يكيله ويقعد ٥ تمحى الذنوب مثل يوم يولد ٥
وحين ما يفوح المبنينا ٥ تكتب له عبادة اربعينا ٥
من السنين ثم حين يشبع ٥ منه الفقير او يواسي الجايع ٥
يا من عند الله طول الدهر ٥ في هذه الدنيا وبعد الحشر ٥
الباب ٥ الثاني

فبان بعد ما ذكر من حالي ٥ ان العقار افضل الاموال ٥
لانه محل اصل الموزع ٥ به قوام اصل كل ذي يفع ٥
وخيره الساقي على القبول ٥ وما قرب من موضع السيول ٥

من الضواحي

٧

من الضواحي في بقاع الارض ٥ جميعها في طولها والعرض
لان كثر السبل ياتي بالوبد ٥ ويولد اليبس الكثير والزبد
وذاك يغنيها بكل فصل ٥ طول الزمان عن حصول الزبل
وقد نها امامنا الغزالي ٥ عن بيع ذي الاموال للاموال
وقال بيع الارض نقص القوة ٥ نقص عظيم بهتك المروة
ردوا بها شهادة الانسان ٥ حكام شرع الله في البلدان
حكاه في كتابه الوسيط ٥ المنتقا من دفتر الوسيط
وحرموا في الشرع بيع الارض ٥ ارض اليتيم نظرا للحفظ
ولم يقيموا غيرها من فضة ٥ ولا ذهب غال نفيس القيمة
مقامها لما بها من نفع ٥ وليس رأي فوق رأي الشرع
وقال من احيا من الخراب ٥ ارضا نقه بالمنعم الوهاب
بارك الله وفيما قد فعل ٥ وكان بعون ربنا عز وجل
وقال رزق الناس في الجنايا ٥ وهي وهاد الارض والزوايا
يعني اثارت كل ارض صالبه ٥ وحرثها حتى تصير طيبة
صلى عليه نبنا من ناصح ٥ وناظر للخلق بالمصالح
فبادروا للارض بالعمارة ٥ وكل شغل نافع وخدمة
وبطشها بكثرة التطييب ٥ وحرثها والذبل والتقشيب
وجدرها في موضع التجديري ٥ وحرما يحتاج من حوز
وكلما يحتاجه من تسوية ٥ كقطع اشجار وحفر ساقية
وحين ما انسقا تجففوها ٥ لا تحرثوا حتى تجبوها

8

حذاركم من الخلف طول الابد ، فهاهلاك الارض الامال وجد ،
والحرث احسن وقته في الدهر ، وخيره على طلوع النسر ،
وذاك قبل موقف للشمس ، باربع لبال قبل او بخمس ،
اولها فان حصل توانيا ، او غفلة فلا يفوت الثانيا ،
ففيه خفض الارض والرطوبه ، وقصر زرع ثم كبر سنبله ،
سمعته من بعض اهل الخبره ، فقلته على سبيل التذكره ،
والشمس تبلغ حدها في اليمن ، خامس عشر كانون الاول فاعلم ،
وذاك وقت للوقوف يشتهر ، عند العوام قول عرف معتبر ،
ولا وقوف عند اهل المعرفه ، بل تنتهي والتصير واقفه ،
وذاك اقصر ايام السنه ، كم قد بدا لنا ولسنة الالسنه ،
قالوا وحرث مدة العجوز ، دار السعود وكل خير فوز ،
وقد سمعت من كلام الناصح ، بان شق الارض غير صالح ،
في وقتها وتلك سبع تعتبر ، ثلاث من شباط واربع من اذار ،

فصل

والزبل خير خدمة مجربه ، كذاك قال كل اهل التجربه ،
به صلاح جملة الاطيان ، يثبت به كالطب للابدان ،
لانها تضعف بكل عام ، من الزروع دايم الدوام ،
تنقص ما فيها من الرطوبه ، وكل شيء نافع وقوه ،
ولا تعود قوة الاطيان ، الا به في جملة الاحيان ،
وقد حرض عليه رب زارع ، لما راوا فيها من المنافع ،

٩

وكان سعد ابن ابي وقاص ، يحمله الى مكان خاصي
من ارضه وكان بعض العشرة ، العارفين المنفقين البررة ،
وكان يشتري ذاك بالطعام ، كيلا بكيل عام بعد عام ،
وقد سمعت من ذوي الاتقان ، بانه مذموم في نيسان ،
قالوا يبدل قوة التراب ، والارض في الصحراء في السعاب ،
والذبل خير ضبطه في الذال ، من تحت لا من المكان العال ،
أنا بذاك في صحاح الجوهري ، وذاك خبر ضابط معتبر ،

فصل

ثم اعلموا علمكم باريكم ، سبحانه في كل ما يعينكم ،
بانه ليس لمخلوق ظهر ، رزق من الارزاق الا بالمطر ،
والله قد اجرى لنا بحكمته ، عوايدا من فضله ورحمته ،
انزاله لنا بوقت الصيف ، لنفعنا ومدة الخريف ،
وذاك وقت للزروع معتبر ، جميعها لكونه زمان حر ،
تنشوا بها الزروع ثم لا تقف ، وغيره من الفصول تختلف ،
طباعها في البرد ثم اليبس ، يصير نشر زرعها بالعكس ،
فعظموه واشكروه واحمدوا ، ما اجرت من بره العوايد واه
ووحدوه دايما لا تشركوا ، به سواه ذا علا لتهلكوا ،
وادعوه ثم لا تقولوا واحذروا ، هذا من النجم الفلاني تكفروا ،
وان رأيتم انه بالعادة ، لوقته فذاك بالارادة ،
من ربكم فلو يشاء يمنع ، لكنتم ترون النجم ماذا يصنع ،

١٠

لكنه سبحانه من كافي ٭ معني العباد واسع الالطاف
أتى به من غير سوء وطلب ٭ تفضلا من كفه اليمنى وهب
في وقت ما يحتاجه الخلايق ٭ تبارك الفتاح نعم الوارق
فليس وقت لانتفاع الخلق ٭ كالصيف يرجى لاكتساب الرزق
وقد رأيت الناس كل العالم ٭ زراع ذو احرص على المسالم
لكونها من المهم اكبره ٭ وكل دهقان ذري ذا يصغره
فقلت سوف اودع الانامنا ٭ بقدر ما الهمته كلاما
اعلم هداك الله للصواب ٭ بان زرع الحقل من اصاب
بنبات وقت المتلم المشهور ٭ به صلاح جملت البذور
اكثرها في وقته ببذورها ٭ كورها والبر بقدر موتها
وليس علم بهذا قادري ٭ بمقتضى ترتيب كل باذر
وانا ذكرتها بمعنا ٭ فهمت ان عنده لا يستغنا
وذاك ترتيب شهور العام ٭ وذكر ما فيها من التلام
حتى يتم دورها وينتهي ٭ لينتفع بذكرها من يشتهي
وسلخ نيسان قلت يتلموا ٭ اهل الجبال عندنا وينتهوا
وذكر شهر الفصد والحجامه ٭ والادويه والزرع للعامه
ثم التلام في اصاب السافل ٭ جميعه في مدة الاوابل
وانه مدت شهر المبكرى ٭ احضر اوقات التلام والذري
وفي لسان الروم هو ايار ٭ ومثله ايام له تختار
تخين وقت للتلام في الجبل ٭ على الثريا مدة العشر الاول

لحد ثب

11

كحد حب وحبل الفجار ◦ وسائر البلدان ذو العبارى
وثور وسائر المعاشرى ◦ من كل ارض نابت وحميرى
وعشرة الوسطى هي المختاره ◦ لكونها اشد بدة الحراره
تصلح لزرع الغربه والدخن ◦ يثمن فيه الزرع كل ثمن
واول الوسطا شروق العنبر ◦ تبدو الثريا بكرة الرابع عشر
وحين تغرب بطلع الاكليل ◦ فهو على طلوعها دليل
لانه رقيبها دواما ◦ طلوع ذا غروب ذا دواما
فهذه علامة حقيقيه ◦ لمن خفي عليه عد الروميه
وذاك خير وقت في البذر ◦ يفتح بها الرحمن كل فتح
ايام وقت المتلم المختار ◦ موافقا مدة بعشر الثوار
وخيرها سمعته ممن ذكر ◦ من الثقات كلها التاسع عشر
وعشرة الاخرى تمام المبكر ◦ يصلح بجد عردفه فيها الذرى
وذ[illegible]شهر اللبس للكتان ◦ تبرد والشرب للالبان
وفي حزيران تلام تحمل ◦ معتاده من الزمان الاول
وخير متلم تحمل في الجوزا ◦ من نال ذاك فاز خير فوزا
زمان وقت طول للايام ◦ عند انتهاء الشمس حد الشام
وذاك وقت النصف من حزيران ◦ في وقت ما تحل برج السرطان
احصد وقت متلم الجوزاء ◦ عند انتصاف الشهر بالوفاء
وذاك شهر اكل لحم البقرى ◦ جميعها والاكل للصيد الطري
وذاك وقت لحرم اللجامعه ◦ والهجر للنسوان والمخادعه

١٢

ما دام ذاك الشهر بالمطال ۵ حتى يتم الشهر بالكمال ۵
والباجسي بعد تمام المجرى ۵ على دواخل عشر من تموز ۵
هذي منازل كل وقت الصبي ۵ والبعض من منازل الخريف يبقى ۵
حقا عليه جملة المعول ۵ طول المد الآخر وأول ۵
فصل
والقدم صالح فاحذروا وبادروا ۵ وقت التلام واحذروا أن تؤخروا ۵
والصيف ضيف فالفتى من يكرمه ۵ عند الوصول بالقرى ويكرمه ۵
وقيل صيف والفتى من صاده ۵ وأهل الكسل كل يقول عاده ۵
الصيف
تزجوا الفتى بمغلة ۵ إذا أنمها الله غنيمة ۵
مباركة وزرعها بأي قوي ۵ وليس أمطار السنين تستوي ۵
فعادة السنين وقت جرى ۵ في غالب الأوقات طول دهري ۵
وتلك من أول حوزان اعتبر ۵ الى دفا تموز فافهم ما ذكر ۵
حتى أزكم تفرحوا وتندموا ۵ بل وقفوا وقت التلام واتلموا ۵
والزارع الرحمن ذو الهبات ۵ ومنبت الزرع بالنبات ۵
فقد ذكر نصا مبدأ منبتنا ۵ حقا وقال نحن الزارعونا ۵
وحين ينبت زرعكم وتصلحوا ۵ وبعد الفقح عموا واخفوا ۵
فالكثر محق ما به نفاعه ۵ والعدل أحسن عادة الزراعه ۵
الا اذا كان كثير اليبس ۵ بالأوديه فما به من باس ۵
لأن مجرى اليبس والعباري ۵ في الأرض يحمل كثرة البذور ۵
والزموا زراعة الأودان ۵ بالوقش والتنظيف للأوطان ۵
وبالنقا عن جملة الأشجار ۵ جميعها والحرث بالأثوار ۵

وكلها

١٣

وكلها ذو ثم لها من خدمة ٥ وجدتموها دايمًا اتي الغلة ٥
هذي خدم كل الزراع الصيفة ٥ وجملة المنازل الخريفة ٥
فاكرموها غاية الاكرام ٥ فذلك الاكرام للطعام ٥
وهذه منازل الاوقات ٥ جمعتها نقلا عن الثقات ٥
وبعضها عرفته بالتجربة ٥ لكل اوقات السنين الذاهبة ٥
مرتبة جميعها على الولا ٥ كما ذكرت أولاً فأولا ٥
حتى يتم الدور بالزمان ٥ جميعه الى ابتدا نيسان ٥

فصل

وقد ختمت الماضية بالباجي ٥ ونبتدي بالثالث والخامسي ٥
فالثالث من انسلاخ الشهر ٥ اعني به تموز حلول الدهر ٥
بذر جميعا فيه والبذر يجا ٥ طول الزمان كل من احتاجا ٥
ومن دخول الخمس والعشرينا ٥ في آب ينثلم خامس يقينا ٥
بذر [illegible] يجا فيه والعزيزا ٥ فجربوها دايمًا مرارًا ٥
يطلع به بنات نعش الشامية ٥ ثم سهيل اشهر اليمانية ٥
والسابع من ابتدا ايلول ٥ الى دواخل ست بالكمالي ٥
تجد علو الوادي من تبيذه ٥ وفي جميع هذه الحدودي ٥
وواسط الوادي تجد القريبي ٥ منها الى ثالث عشر يا صاحبي ٥
واسفل الوادي من الثالث عشر ٥ وذاك وقت الاولين المعتبر ٥
به البذر يجا ووقف المبذور ٥ يذر عليه اكثر المذور ٥
وتسنج الزراع جلجلانا ٥ من اوله الى انتها عشرينا ٥

١٤

وعشرة اخيرة الأيام ه للجلجلان صالح اللام ه
وذاك ايضا وقت اعند ال ه ليومنا وليلنا بالسطول ه
وشهر تشرين ابتداء الاشهر ه به صلاح كل انواع البذر ه
قالوا ابذر فكل تصلح الغرير ا ه ونصلح بها المكي و الحميراه
والجري والجلجلان بصلح ه ببذرابه قالوا وباقي صالح ه
وذاك وقت القطع للاخشاب ه منقول عن اكابر الاصحاب ه
ومثلم الغرير بتشرين العقب ه وعشر الوسطى اليها قد ندب ه
تختار كالوسطى شهر المبكري ه احصر وقت مستحب للبذر ه
غرب الثريا مطلع الاكليل ه كما ذكرناه لذا دليل ه
وذاك يطلع بكرة الثالث عشر ه من شهر تشرين الأخير المعتبر ه
تبذر الغرير افيه والأقبرع ه والجلجلان والجبنا تتبع ه
وذاك احسن وقت غشيان النسا ه في كل ليله والـ[illegible] بالكساه
به دواء للجسوم يعتبر ه لابيما ذات الثياب في السحر ه
وليس في كانون للسلام ه وقت سوى الستة الايام ه
اوله قالوا به للـجري ه مع البذ بحا مثلم لا ادري ه
وذاك شهر طبعه كما مضى ه موافق فيه الجماع يرتضى ه
وشهر كانون الاخير ان مضى ه من ذاك نصف بالحساب والقضى ه
ياتي دخول مثلم السطبي ه ومثلم القثا والسطيحي ه
وهو الذي سمي مثلم الجري ه وقت به الحمر اصح لبذري ه

وذا

١٥

وذاك وقت الغرس للاشجار ٭ وسقيها بالليل والنهار ٭
وحين ما يدخل شباط فاعلم ٭ الى دواخل عشر خبر مسلم ٭
حمرا ويدخل منلم العذيقي ٭ فالت عشر شباط بالتحقيقي ٭
وفي شباط العلجلان بسح ٭ قالوا وياتي غلة وبجلي ٭
وقالوا ايضا بعض اهل العلم ٭ كل شباط صالح للمسلم ٭
حتى العجور وهي ايضا صادق ٭ بحرث وناضح وحاذق ٭
وذاك شهر فيه قالوا بالعطب ٭ من الشجر جميعه قطع الخشب ٭
وحين يدخل مبتدا اذار ٭ ياتي دخول منلم التبري ٭
وفي اذار من دخول الثاني ٭ قالوا دخول منلم البقطيني ٭
وذاك وقت الاعتدال واستوى ٭ نهارنا وليلنا ياتي سوى ٭
وقبل نيسان منلم التبري ٭ منلم وتمت جملة الشهور ٭
هذي منالم كل اوقات السنه ٭ جميعها اوضحتها مبينه ٭
جعلتها منظومة للحفظ ٭ والله يفعل ما يشا ويقضي ٭
فليقصد المخلوق باب الخالق ٭ توكلا سبحانه من رازق ٭
والزرع خير آلة التسبب ٭ لكل ذي توكل مكتسب ٭
فاعنوا به وادعوا سريع اللطف ٭ بمن هو بالغيث فهو يكفي ٭

الباب الرابع في تدبير النفقات

وحين ما تاتي الثمار فاشكروا ٭ رب العباد واحمد لا تبطروا ٭
ووقت يبس الحب واشتداده ٭ يكون وقت مقتضى حصاده ٭
وعجلوا ضبطا انواع البذره ٭ والدخن لا يضركم تاخره ٭

١٦

وحين مايفرغ طعام الغله ۝ كيلوا بالمكيال واسالوا الله
بان يبارك لكم فيما وهب ۝ سبحانه من فضله من كل حب
وانفقوه غيره واقتصدوا ۝ فالنصر ما عال امرؤ ما اقتصدوا
وعاملوا انفسكم بالشفقه ۝ فان في التدبير نصف النفقه
واجتهدوا بالدق للطحين ۝ واتموا اجادة العجين
واجتمعوا بصبحكم والليل ۝ على الطعام عند وقت الاكل
وقنعوا نفوسكم لا تتبعوا ۝ مرادها فانها لا تقنع
وحيث تطلب شهوة لا تقدروا ۝ بنحبها فصبروها واصبروا
لتستريحوا من هموم الدين ۝ والمستريح من قنع بالدون
ولا تهينوا الخبز والطعاما ۝ حذاركم فتصبحوا ندامى
بل قيدوا نعمتكم بالشكر ۝ لله رب العرش طول الدهر
اذا انسوا نعمتكم لا تنفدوا ۝ فهكذا علمنا محمد
ثم انظروا منافع التجاره ۝ والارض اغنتكم عن الاسفار
نحمد رب قادر وهاب ۝ اذ السفر نوع من العذاب
يستغرق القلب العزيز الفدر ۝ بالهم والافكار طول الدهر
والفكر في الارباح والخسران ۝ وزايد الاثمان والنقصان
فعاملوا الارض بما تحتاجوا ۝ فان خدمتها الكبر رواجوا
ولا تحبوها تزدد ارزاقكم ۝ فيها فان الرزق من خلاقكم
بل انها من الة التسبب ۝ للزارع المتوكل المتسبب
والاكل من كد اليمين مستحب ۝ اليه خير المرسلين قد ندب

ولكان يرعى

١٧

وكان يرعى غنما وتحلب ۞ بكفه الطاهر ثم يشرب

وكان داود النبي قنوعا ۞ في الملك وهو يصنع الدروعا

حتى يكون القوت من كد اليد ۞ الله اكبر ماله من مقصد

ثم ابنه ملك بقاع الارض ۞ جميعها في طولها والعرض

وقد اطاعه الرياح الخافقة ۞ والجن كلا والطيور الصافقة

وكان يصنع كل يوم قفة ۞ تواضعا لربه وعفة

يبيعها القوت فما حصل ۞ له يشرى به طعاما واكل

فبان ان الاكتساب سنة ۞ وقايد الى نعيم الجنة

بشرطا ان يهتم بالصلوة ۞ ولا يوخرها عن الاوقات

ولا تغل واجب الزكات ۞ ولا توخرها عن الميقات

فما هلك مال وضاع مال ۞ الا اذا خالطها الاغلال

وان تكن تعرف ما تعتقد ۞ وما يدم فعله تجتهد

وان تقيم حاجة الاخوان ۞ وساير الاهلين والجيران

وان تجانب صحبت الاشرار ۞ وتعتمد ذكر الاله البارى

ولا تنم دايم الدوارم ۞ كلا ولا تغتاب ذوا الاسلام

ولا تحيف عند ما توصى ۞ والثلث كل الثلث لا تستقصى

فقد نهينا مدة الحيوة ۞ عن الضر ومدة [illegible]

وعله من جملة الكباير ۞ تبينا في شرعه المطهر

فاسعوا بما في مدة الدنيا ۞ به الخلاص مدة الاخرا

فانها دار النعيم الباقي ۞ جوار رب العزة الخلاق

١٧

ولا تملوا السعي طول الدهر ، مادمتم على الكتاب الاجري ،
والله يهدينا واياكم لما ، به الامان من ضلالات العمى ،

الباب الخامس

ثم اعلموا بان علم الرومي ، مبارك من افضل العلوم ،
علم نفيس عنه لا يستغنى ، لانه اصل عليه يبنى ،
حساب اوقات الشتاء والصيف ، ومدة الربيع والخريف ،
مع انتقال الشمس في البروج ، ومكثها ومدة الخروج ،
واي برج حل فيه القمر ، وطالع الفجر الذي يعتبر ،
من المنازل كلها طول المدا ، وغيرذا وكم به من اقتدا ،
فاعنوا بضربت اصله لتفهموا ، في اي يوم الشهر وتعلموا ،
وداك معروف وقد اودعته ، في بعض ابيات بها نصمته ،
وهذه الابيات فاحفظوها ، لتعرفوا الاشيا وتفقنوها ،

فصل

وان تروم تعرف في اي يوم ، في اي شهر ياتي من رومي ،
دع عنك مكسورا مع المئين ، وخذ جبور الفوق من سنين ،
باحدى عشر فاجريه وانظر ما انتهى ، زد فوقه يومين فالواد والنهى
داعه روميا مهما يبقى ، تجعله رومى البه نز في ،
اصنف البه ما مضامن غرب ، واحفظه باصاح وقل لي حسبي ،
فابدا من التنوين مبدا الرومي ، حتى تساوي فهو هذا اليوم ،
فاجتهد واعنوا بهذا الفعل ، لتعرفوا دخول كل فصل ،
فصل وها انا اذكر حلول الشمس بكم ، تحل في بروجها حتى تتم ،

اعلم

١٨

اعلم هداك ربك ذو العلا ، بانها تحل شهرا كاملا ،
في كل برج فحلول الحمل ، خامس عشر اذار فافهم واعقلي
وذاك اول يوم بالحساب ، للصيف فافهم مقتضى خطابي ،
لاشك فيه حسبه محققه ، تلقبوه الناس بالمسبقه ،
والثور تنزل برجه رابع عشر ، نيسان فافهم ماذكرت من خبر ،
وتنزل الجوزاء من ايار ، بخمس والعشرة بالاثار ،
وحين تخرج تم فصل الصيف ، وتلك اول مدة الخريف ،
اوله تحل برج السرطان ، بخمسة عشر يوم من حزيران ،
قالوا في تموز في السادس عشر ، تحل في برج الاسد المشتهر ،
وهكذا قال الثقات النقله ، سادس عشر تحل برج السنبله ،
وحين تخرج تنقضي زمانه ، فافهم باني للشتاء وانه ،
اول شي تحل في الميزان ، سادس عشر ايلول بالاتقان ،
وهكذا تحل برج العقرب ، سادس عشر تشرين فافهم نص
اول برج القوس تنزل فيه ، خامس عشر تشرين بهم ثانيه ،
وينقضي وقت الشتا ويكمل ، وقت الربيع اعدل الاوقات ،
والجدي تنزل فيه ايضا فاعلم ، خامس عشر كانونها المتقدم ،
والدلو تنزل فيه في الرابع عشر ، من شهر كانون الاخير المعتبر ،
ولاخلاف في شباط يا نجيب ، ثالث عشر تحل برج الحوت ،
وحين ما تخرج منه ترجع الاول ، وذا رميقات الزمان وتصل ،
هذه بروج للفصول الاربعه ، ابياتها جمعتها متتابعه ،

١٩

ثلاثة تحدث كل فصل * كما أتت من ضرب فصل الأصل
يعلمنها الجملة الطلاب * ليهتدوا أمنا هو الحساب
واحسبوها حسبة تحقيقيه * ويعرفوا دخول وقت الروميه
لأنها هي التي لا تنكر * أوقاتها أصلا ولا تغتر
طول المدا والدهر يا فلان * لا زائد فيه ولا نقصان

فصل

وإن تشا تعرف حلول الشمس * في أي برج يا صحيح الحس
فانظر إلى ماضي الشهور الروميه * زد فوقه خمسة عشر متواليه
واسقط الجملة مثال الاثنتين * لكل برج يا فتى ثلاثينا
بحيث يفنى عدد الأيام * فالشمس في ذاك اعتبر كلامي
وما نقص من الثلاثين احسبه * وقدره منها حسابا وانسبه
وابدا من الميزان في الحساب * وذاك وجه الصدق والصواب
لأنه أول شهور الروميه * نقلت ذاك عن ذوي العلوم
وإن تشا تعرف حلول القمر * في أي برج يا صحيح النظر
فانظر إلى ما مضى من شهر العرب * أضعفه وانظر ما بقا من الحساب
وزد عليه خمسة أتماما * بكله محسوبة تماما
واعط لكل برج خمسة يا فتى * وابدا ببرج الشمس وانظر ما أتى
من دون خمسة فالقمر فيه انقطع * من نسبة الخمسة بقدر ما انقطع
وإن أتى خمسة تماما فاعلم * بأن ذاك البرج قطعه تمم
وإن تشا تعرف بأي منزله * فاحسب حسابا لابن ذا فالله
انظر إلى الماضي بشهر العربي * زد فوقه ثلاثة يا صاحبي

واليها من الطالع وقت الفجر ٥ للمنزله يوما تخذ بامر ٥
فحيث ما انتهى حسابك وصل ٥ فافهم فتلك المنزلة فيها نزل ٥
هذا الذي شرطه في الخطبة ٥ وقلته في اول الارجوزة ٥

خاتمة

وهذه خاتمة حميدة ٥ مباركة الفاظها مفيدة ٥
في وقت ذكر البرد ثم الحرة وطول ايام السنه والقصر ٥
والاستوا وكل ذي اعتدال ٥ في جملة الايام والليالي ٥
اعلم جعلت قدوة للمقتدي ٥ يا صاح ان البرد قالوا يبتدي ٥
تاسع عشر من شهر كانون العقب ٥ وجدته في كل تاريخ كتب ٥
كذا اشتداد البرد من عشر مضت ٥ من شهر كانون الاخير وانقضت ٥
قالوا ويفتر في شباط ان مضى ٥ اثنا عشر نهار منه وانقضى ٥
وجاء مبتدا الحر في اذار ٥ يا صاح من سابع عشر نهار ٥
وحين يبقى خمس من تموز ٥ يشتد اكثر من زمان الجوزي ٥
قالوا ويفتر اذا بالحساب ٥ لعشرة ايام مضت من اب ٥
وقد ذكرنا اطول الايام ٥ عند انتهاء الشمس حد الشام ٥
وذاك في اربع عشر حزيران ٥ في وقت ما تحل الشمس برج السرطان ٥
واقصر الايام في الزمان ٥ عند انتهاحدها اليماني ٥
وذاك يوم النصف بالاتقان ٥ من شهر كانون الاخر الثاني ٥
وتاخذ الايام في الزيادة ٥ الى انتهاء الجوزي على الحقيقة ٥
كذا اعتدال الليل والنهار ٥ في شهر ايلول وفي اذار ٥

عِندَ حُلولِ الشمسِ في الزمانِ بُرجَ الحَمَلْ يا صاحِ وَالمِيزانِ
وَعِندَ تَحلُّ بُرجَ الدَّلْوِ طُولَ المَدا يَشتَدُّ بَرْدُ الجَوِّ

كَذا اشتِدادُ الحَرِّ في تَموزَ قَدْ قالُوا مَعَ حُلولِها بُرجَ الأسَدْ
وَفي شُباطِ الماءُ يَجري في الشَّجرْ في الخَمسِ والعِشرينَ مِنهُ لا يُعتَبَرْ
وَرابعَ العِشرينَ مِن أيارِ يَكونُ نَقصُ الماءِ مِن الأشجارِ
وَتَسقُطُ الأوراقُ مِن كُلِّ الشَّجرْ في الشَّهرِ مِن كانونَ لِلثالِثَ عَشَرْ
وَتَكمُلُ الأثمارُ مِن آبٍ عَلى أَثنَينِ وَالعِشرينَ مِنهُ كَمُلا

وينتهي ريحُ الشمالِ إن حسب في ثلاثٍ من شهرِ تشرينَ العقب

وَالبَحرُ يَعلو فيهِ كُلَّ عامِ طُولَ المَدا مَعْ تاسِعِ الأيامِ
كَذا ابتِداءُ عَواصِفِ الرِّياحِ مِن بَعدِ عِشرينَ بِهِ يا صاحِ
وَتَختَفِي الهَوامُّ الثامِنِ مِن شَهرِ كانونَ الأخيرِ فافطِنِ
وَفي شُباطِ الفَردِ قالوا تَظهَرُ إذا مَضَتْ سِتٌّ بِهِ تُعتَبَرُ
تَمَّتْ بِحَمدِ اللهِ ذِي الجَلالِ وَالكِبرِيا وَالعِزِّ وَالكَمالِ
مَقاصِدُ الأرجوزةِ المَيمونَهْ مِن رَبِّنا أتَتْ بِهِ المَعونَهْ
فالحَمدُ للهِ الذي أعانا سُبحانَهُ مِن مَلِكٍ سُبحانا
ثُمَّ الصَّلاةُ بَعدَ حَمدِ الماجِدِ عَلى النَّبيِّ المُصطَفى مُحَمَّدِ
لا تَنقَطِعْ ما دامَتِ الأيامُ وَآلِهِ الأطهارِ وَالسَّلامُ